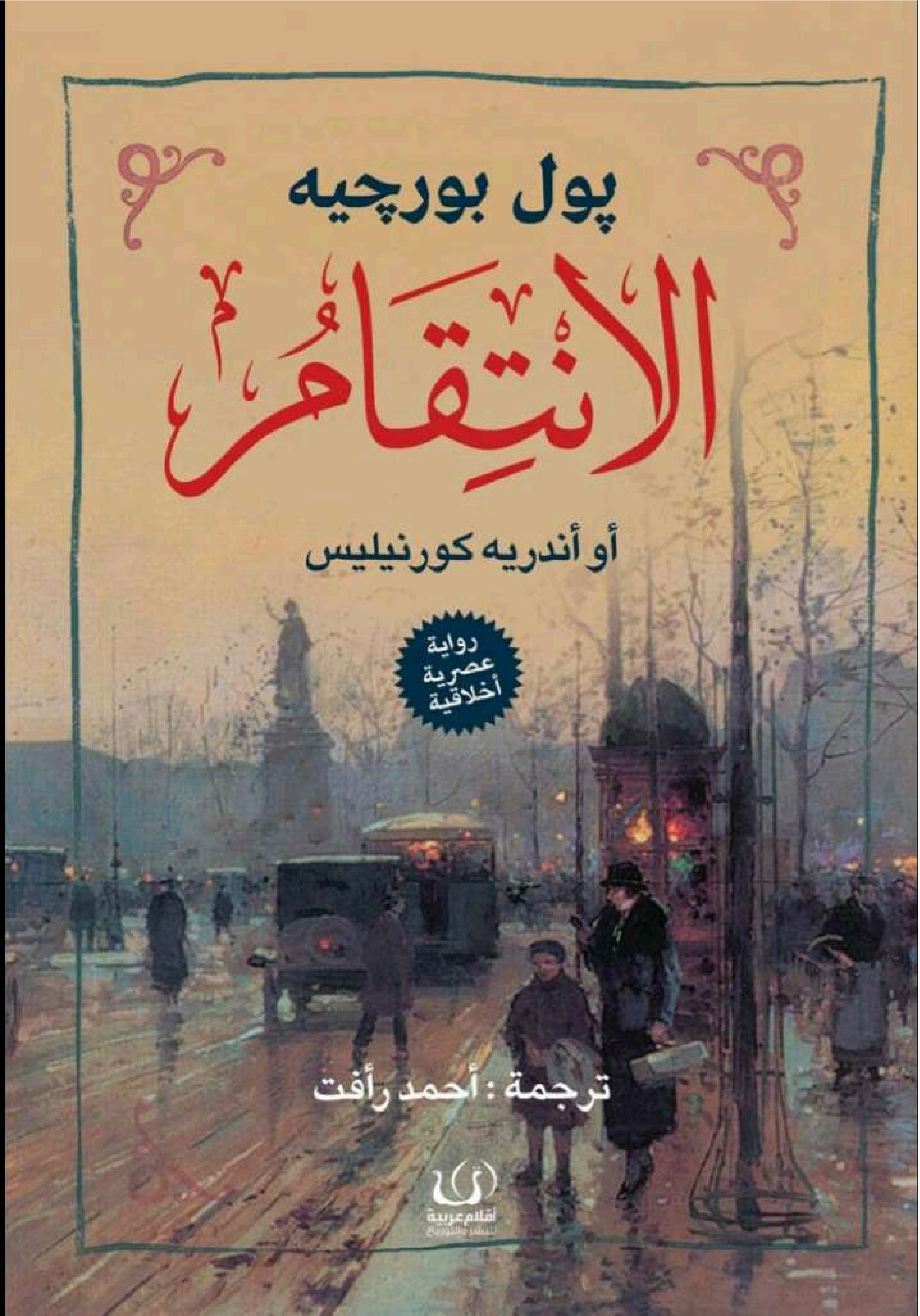

پول بورچيه
الانتقام
أو أندريه كورنيليس
رواية
عصرية
أخلاقية
ترجمة : أحمد رأفت
أقلام عربية



الأنتقام

أو

أندريه كورنيليس



بورچيه، پول

الانتقام، أو، أندرية كورنيليس/ تأليف پول بورچيه، ترجمة أحمد رأفت. – القاهرة.

أقلام عربية للنشر والتوزيع، ٢٠١٧، ٢٦٨ ص ١٤.٥×٢١.٥ سم.

١- القصص الفرنسية
أ- رأفت، أحمد (مترجم)
ب- العنوان ٨٤٣

رئيس التحرير: طارق هاشم

المؤلف

المترجم: احمد رافت

طبعة أقلام عربية الأولى ٢٠١٧/ ٢٠١٨

رقم الإيداع: ١٩٨٩٦/ ٢٠١٧

العنوان: 1 كريم الدولة – أمام جروبي – طلعت حرب

تليفاكس: 20225740228 +	موبايل: 201011745806 +

info@daraqlam.com

Aqlam Arabia Bookstore

www.daraqlam.com

الانتقام
أو
أندريه كورنيليس

تأليف

بول بورجيه

ترجمة

أحمد رأفت



المقدمة

ولد بول بورجيه في عام 1852 وهو من كبار الكتاب الفرنسيين ومـن أعـضاء المجمع العلمي الفرنسي. شغف في مباحثـه منـذ شـبويته الحـارة بدراسـة الـنفس وتحليل عواطفها خفيها وظاهرها فأصبح من بين الـروائيين أقـدرهم عـلى تـصوير النفس ومشاعرها في مختلف تطوراتها ومتباين صورها لا يستند في مـا يكتـب إلى وهم أو خيال بل يستقي آراءه وأفكاره من تحليـل وتكييـف مـما يجـري في عـالم الحقيقة معتقدًا أن دراسة الهيأة الاجتماعيـة مـن الـوجهتين النفـسية والفلـسفية ليست وقفًا على الفلاسفة وعلماء النفس وأن للـروائيين أن يلتمـسوا دراسـتها بـل هو يعتقد أيضًا أن هذه الدراسة أيسر للروائي الذي لا تحول بينـه وبينهـا منـاهج البحث العلمي ونظرياته، وإذن فليس بول بورجيه بكاتب روائي فحسب وإنما هو فوق ذلك فيلسوف وعالم نفسي كبير.

ولقد بدأ حياته في عالم الأدب بأن وضع مجموعات صغيرة شعرية مؤثرة ثـم وضع مؤلفًا في الفلسفة وعلم النفس أردفه بروايات قيمـة عديـدة أولاهـا "اللغـز القاسي" ومنها "جريمة حب" و"أكاذيب" و"قلب امرأة" وكثير غيرها.

وفي عام 1887 وضع رواية "أندريه كورنيليس" التي أقدِّم ترجمتها اليوم لحضرات القراء وهي من أدق رواياته وأبدعها ومدارها تحليل شائق لنفسية شاب تدفعه مشاعره ـوهو لا يستطيع التغلب عليهاـ إلى الانتقام لأبيه الذي قتل غيلة.

المترجم

أحمد رأفت

(1)

كنت وأنا صغير أؤدي فريضة الاعتراف!

كم وددت لو أعود إلى ذلك العهد فأصبح ذلك الصبي الذي كان يزور كنيسة المدرسة حوالي الساعة الخامسة مساءً، تلك الكنيسة الخاوية الموحشة المغشاة حوائطها بالجير والتي لا تحوي سوى مقاعدها المنضدة بأرقامها المتتابعة وذلك الأرغن البسيط الصغير وصورة العائلة المقدسة في ثوبها الناصع، تلك الكنيسة ذلت القبة الملونة باللون الأزرق المنقوشة بها الكواكب منتثرة، فلقد كان أحد أساتذتنا يدخلنا تلك الكنيسة عشرة فعشرة وعندما يحين دوري للجثو في أحد الكوخين المعدين للمعترفين التائبين، ذينك الكوخين القائمين إلى جانبي كوخ القسيس، كان قلبي يكاد ينقطع لشدة اضطرابه. وكنت أسمع صوت الكاهن دون أن أميز ما يقول عند شروعه في توجيه أسئلته للزميل الذي سيلي اعترافه اعترافي، فكان ذلك الهمس مع سكون الكنيسة ووحشتها يدخل في نفسي روعة وتأثيرًا عميقين كروعة الفجر وتأثيره عند اليقظة من النوم.

كانت هذه التأثرات مضافًا إليها خجلي مما سأفضي به من غلطاتي تؤلمني شديد الألم بحيث تزعجني حركة نافذة كوخ الكاهن

عند فتحها، تلك النافذة التي كنت ألمح من ثنايا قضبانها نظر الكاهن مسلطًا حادًّا وإن كان وجهه بدينًا محتقنًا بالدم.

ما أشد ما كان ينتابني من القلق والغم المميتين في تلك اللحظة ولكن ما كان أنعم بالي وأهدأ نفسي بعدها، بل ما أعظم غبطتي وارتياحي بعد الإفضاء بتلك الغلطات وما أعظم جذلي وانتعاش نفسي من تحرري من ربقتها والخروج من إصرها! فما أنا بعد تأدية فريضة الاعتراف إلا ذلك الذي يمنح صحيفة بيضاء نقية لتملأها روحه الفرحة المتحمسة بالحسنات!

إني لغريب الآن عن ذلك الإيمان الذي كنت عليه في سني حياتي الأولى حتى أؤمن بأن هناك نظامًا خارقًا يوقن به القلب وتخضع له المشاعر!

إني لموقن على كل حال بأن مبدأ الاعتراف، ذلك المبدأ الذي ينجو به الضمير من آلامه ووخزاته، والذي كان ينعش نفسي ويعيد إليها هدوءها وطمأنينتها كان أساسه في الحقيقة إفضائي بجميع ما اقترفت من الهنات والغلطات وأن أُلقي بذلك بعيدًا عن جوانحي عبء توبيخ الضمير، ذلك العبء الذي يكاد يقتلنا جميعًا. وما فعل الاعتراف في تخليص الضمير مما يثقله إلا كفعل ضربة المشرط تنقي الدمل مما فيه من السموم والأدران!

وا أسفاه! ليس لي الآن ملاذ اعترافٍ أجثو فيه ولم تبقَ في فؤادي صلاة أتمتم بها كما إني لم أعد عامر القلب بالإيمان بإله أتخذه غوثي ومعقد رجائي!

لكـن لا بـد لي مـن الـتخلص مـن إصر هـذه الـذكريات المرهقـة! فـإن هـذه الفاجعة الخاصة التي احتملتها تثقـل ذاكـرتي ولا صـديق لي أبثـه نجـواي بـل ولا صدى أبدد فيه شكواي. فإن من الجُمل ما لا يستطاع النطق به لأن تلـك الجمـل لا يصح أن تُعلن فتُسمع.

لذلك، ولكي أخـدع مـا بي مـن ألم، سـاورتني فكـرة الاعـتراف هنـا عـلى هـذه الصفحات البيضاء لنفسي لا لغيري كما كنت قد أفعل لدى الكـاهن. سـألقي فيهـا بجميع تفصيلات هذه الحادثـة الفظيعـة المـشئومة نتفـة نتفـة كـما تمليهـا عـليَّ ذاكرتها والذكرى وحينما أنتهي من هـذا الاعـتراف سـأثق أن مـا بي مـن قلـق قـد تلاشى أو تناقص على الأقل.. نعم، فليضمحل هذا القلـق عـلى الأقـل! ولأسـتطيعن الرواح والمجيء، ولأستطيعن أن أنعم بقسطي من الشبوبية والحياة!

قد تألمت كثيراً بل عشت في هذا الألم طويلًا ولكني لا زلت أحبها، تلـك الحيـاة، أحبها وإني بها لشغوف بالرغم من آلامها. وإن كأسًـا مـن ذلـك الـدواء الأسـود، ذلـك المخدر الذي عندي منه قنينة وقد أعددته لتلك الليالي الطويلـة التـي لا يـزور عينـي فيها لذيذ الكرى، إن كأسًا من هذا الدواء قد يكفي ليمحو دفعة واحـدة مـا أنـا فيـه من عذاب طويل بطيء مبعثه ما أنا واقع تحت إصره من وخزات الضمير!

لكني لا أستطيع بل ولا أريد! فالغريزة الحيوانية، غريزة حب البقاء، تتحـرك في نفسي بأقوى من جميع الأسباب الأدبية التـي توسـوس إليَّ بـالخلاص مـن تلـك الوخزات!

عش إذن أيها الشقي بما أن الطبيعة تجعلك ترتعد فرَقًا من شبح الموت.

الطبيعة؟ نعم، لأني لذلك لا أريد أن أذهب هناك، في تلك الدنيا المظلمة التي قد يسترد المرء نفسه فيها. لكن ما لي وهذا الفزع الذي أُلقي بنفسي في بيدائه وقد آليت على نفسي أن أعود فأمتلك مشاعري فلماذا إذن أضل؟ فلنعد وهاك إذن ما اعتزمت: أن أثبت على هذه الصفحات صورة ذلك القدر الذي أصابني، تلك الصورة التي لا أنظر إليها في مرآة ذاكرتي الضعيفة إلا باضطراب ووجل. وسأحرق هذه الصفحات حينما تغشاها كتابتي السيئة، لكن هذا التاريخ سيكون قد كمل واستقام أمامي كائنًا كاملًا.

نعم، سأضع قبسًا من النور يضيء ظلمات تلك الذكريات القاتلة التي تفزعني وتطير رشادي وسأعلم من تسطير هذه الحوادث المشئومة أين أنا كما أعلم مقدار ما بقي لي من القوى، فإني هنا، في هذا المنزل الذي اعتزمت فيه إنفاذ هذا العزم الوطيد أستطيع بسهولة أن أستجمع شوارد ذكرياتي.

هيا! هيا إذن إلى العمل! وإني أَعدُ نفسي وعد الشرف أن أدوِّن هنا كل شاردة وواردة.

أيها القلب التاعس، دعني أحصي ما انتابك من ضربات الدهر وكوارث الأيام.

(2)

أأتذكر؟ أشعر أني خلال عدة سنين تسلقت جبلًا من الآلام! ولكن كيف خطوت أول خطوة في هذه الطريق الملطخة كلها ببقع الدم؟

بأية ذكرى أبدأ تسطير تاريخ هذا العذاب الطويل الذي عانيته ولا زلت أعاني منه حتى الآن هزات القلق الأخيرة؟

لم أعد أستطيع، فإن المشاعر التي تجيش في فؤادي لشبيهة بتلك البلاد التي تجتاح البحار شواطئها فيعز على المرء أن يدرك أو على الأقل يتخيل من أين يبدأ البحر وأين ينتهي فلا يرى إلا بلادًا غامضة المساحة ورمالًا مبللة بالمياه وحدودًا دائمة التقلب غير صادقة، في حركة دائمة من الاعتدال إلى الاعوجاج ومن الاعوجاج إلى الاعتدال، وكما يستطاع مع ذلك رسم هذه البقاع على الخريطة تستطيع مشاعرنا أن ترسمها وتحللها بعد ذلك بحسب ما يمليه عليه التصور.

ولكن ما أشد ثوران الحقيقة، تلك التي تستعصي على من يحاول إيثاقها واهمًا أنه بذلك يخفيها!

وإن من أشد الألغاز غموضًا لتلك اللحظة التي تنفجر بها قرحة بين حنايا القلب، بل إحدى تلك القرح التي لم تندمل بعد في قلبي!

فيتعين إذًا تمهيدًا لتحقيق هذا الغرض وتسهيله ولكيلا نـضل في هـذا الخـدر المؤلم، خدر التخيل الذي يسيطر عليَّ سيطرة المخدر يجب أن أسير في تسطير هـذا التاريخ مهتديًا بهدي الحوادث نفسها. ولنـذكر عـلى الأقـل الحادثـة الثابتـة التـي كانت العامـل الأول القـاطع: تلـك الحادثـة هـي وفـاة أبي، تلـك الوفـاة المفجعـة الغامضة.

ولأحاول أن أتذكر نوع ذلك التأثر الذي أوقعني تحت إصر الـذعر مـن ذلـك العهد دون أن أُدخل فيه ما فهمته وما شعرت به بعد ذلك..

كنت قد ناهزت التاسعة من العمر في عام 1864.

وفي عصر يوم شديد القـيظ مـن أيـام شـهر يونيـة كنـت أشـتغل كعـادتي في حجرتي بعد أن عدت مـن مدرسـتي، مدرسـة بونابـارت وكانـت مـصاريع النوافـذ مقفلة.

كنا نقطن بشارع ترونشيت بالقرب من كنيسة المـدلين بـالمنزل الـسابع عـلى يسار الآتي مـن الكنيـسة. وكانـت حجـرتي هـذه صـغيرة مفروشـة برشـيق الأثـاث مدهونـة حوائطـا بـاللون الأزرق، وهـي الحجـرة التـي قـضيت فيهـا آخـر الأيـام السعيدة وكان يدخل لها بثلاث درجات _وإني لأذكـر الظـروف بـدقائقها_ وكنـت مرتديًا رداءً أسود حفيفًا طويلًا كما كنت وأنـا جـالس إلى منـضدتي أعيـد تـصريف فعل لاتيني على ورقة سطرتها سلفًا جملة سطور وقسمتها إلى خانات..

فسمعت فجأة صرخة هائلة تلتها أصوات تنم على الفـزع العظـيم وحركـات خطـوات سريعـة في الـدهليز الـذي تـشرف عليـه حجـرتي.

فاندفعت بحكم الغريزة نحو هذا الباب فاصطدمت في الممشى مع الخادم الذي كان يجري كالمجنون من شدة الهلع حاملًا في يده نضدًا من الأقمشة البيضاء أدركت بعد ذلك ما استعملت فيه.

فارتج عليَّ لدهشتي فلم أسأل هذا الرجل شيئًا لكنه لم يكد يراني حتى صاح بالرغم منه قائلًا: "يا لها من مصيبة فظيعة يا سيد أندريه!"، ثم عراه الذعر مما نطق به فعاد فتغلب على نفسه وقال لي:

ــ ادخل، ادخل في حجرتك عاجلًا...

وقبل أن أستطيع أن أجيبه احتضنني بين ذراعيه وقذف بي تقريبًا في حجرتي وأقفل الباب بالمفتاح. فقذفت بنفسي نحو الباب صائحًا: "كلا! ولتقل لي كل شيء، أريد أن أعلم كل شيء..."، فلم أسمع جوابًا بالرغم من صرخاتي التي تبددت هباءً. فانقضضت على القفل أعالج فتحه وعلى الباب أقرعه بيدي بأقصى ما استطعت ثم حاولت أن أفتحه بكتفي!

غضبٌ وسخط وزمجرة ولم يجدني كل ذلك فتيلًا!

فجلست مرهفًا أذني، أكاد أجن من شدة القلق أسمع حركات ذهاب الخدم وجيئتهم، أولئك الذين كانوا يعلمون بتلك المصيبة الفظيعة.

ولكن ماذا كانوا يعلمون؟

بالرغم من طفولتي كنت أدرك معنى الصيحة الهائلة التي صاح بها الخادم في تلك الظروف.

كان أبي قد خرج بعد تناول الفطور منذ يومين من ذلك الحين كعادته قاصدًا مكتب أعماله الذي كان منذ أربع سنوات في شارع "النصر" وكانت تعلو وجهه عوامل القلق والتفكير طول مدة تناوله الطعام. بل قد تغير طبعه منذ شهور فأصبح كئيبًا بعد أن كان باسم الثغر دائم الجذل.

وفي لحظة خروجه كنا جالسين إلى المائدة أمي وأنا وأحد المعتادين زيارتنا، السيد جاك ترموند الذي كان أبي قد عرفه منذ كانا طالبين في مدرسة الحقوق.

وقف أبي بعد الانتهاء من تناول الطعام وبعد أن ألقى نظرة على ساعة الحائط واستفهم عن الساعة بالضبط فقال له ترموند:

ــ نعم فإني على موعد مع عميل مريض الآن ولا بد لي من المرور بنزله لآخذ منه أوراقًا هامة... إنه لرجل غريب الأطوار، رجل لا أكره أن أراه عن كثب. قمت من أجله ببعض المساعي ولكن نفسي تكاد تسول لي أن آسف عليها...

ثم لم يصلنا أي خبر عن أبي بعد ذلك.

وفي مساء ذلك اليوم وقد أحضرت المائدة بعد أن أجلت مرارًا

دون أن يعود أبي مع ما عرف به من الدقة في المواعيد بدأت أمي تبـدي قلقًـا مـا لبث أن تزايد حتى تعذر عليها أن تخفي عني أن الجمل الأخيرة التي فاه بها ذلك الغائب كانت لا تزال أصداؤها تتردد في آذانها. وكانت محقـة في قلقهـا لأنـه كـان من النادر أن يتحدث إليها عن مشاغله وأعماله. ثم مضى الليل كلـه وهزيـع مـن الصباح ثم النهار طوله حتى أرخى الليـل سـتاره دون أن يعـود. فوجـدنا أنفـسنا، أمي وأنا، جالسين إلى المنضدة المربعة التي كـان غطاؤهـا المبـسوط أمـام مقعـده الخالي يمثل شبح فزعنا. وإذا بالسيد جاك ترموند، وكانت قد أبلغته بخطـاب، قـد حضر بعد انتهائنا من تناول الطعام. فأبعدت في الحال ولكن ليس بـدون أن أجـد الوقت الكافي لألحظ لمعانًا غير عادي في عيني هذا الرجل الغريب، تينـك العينـين الزرقاوين اللتين كانتا تلمعان عادة ببرود في هذا الوجه الخبيـث الـذي تحـيط بـه شعور شقراء ولحية باهت لونها تقريبًا.

ولا عجب في ملاحظتي فمخيلـة الأطفـال تلـتقط تفـصيلات دقيقـة تنمحـي في الحال ولكنها لا تلبـث أن تعـود آجـلًا في معـترك الحيـاة كـنقط الحـبر التـي لا تظهر لأول وهلة ولكنها تبدو عـلى الأوراق عنـد وضـعها تحـت أشـعة نـور قـوي واضح.

فإني بينما كنت ألحـف في البقـاء كنـت ألاحـظ بغـير تعمـد ولكـن باضطراب يديـه الجميلتـين وكـان قـد ضـمهما إلى بعـضهما وراء ظهـره تقلبان عصًا من الخيزران هي موضع إعجـابي وشـغفي القلبيـين، ولـولا

أني كنت كثير الإعجاب بهذه العصا وما نقش على مقبضها الفضي من صور عراك النسانيس لفاتتني ملاحظة اضطرابه البالغ، وكيف لا يضطرب السيد ترموند لاختفاء أخلص أصدقائه؟

ومع ذلك فقد كان صوته هادئًا مطمئنًا، ذلك الصوت العذب الذي كان من طبيعته تجميل كل جملة ينطق بها. فقد كان هذا الرجل يقول لوالدتي:

ــ إذا لم يعد كورنيليس اليوم فسأقوم بجميع صنوف البحث عنه غدًا... لكنه لا بد سيعود... وبعد ذلك ينكشف سبب غيبته... وستعلمين أنه سافر للمهمة التي كان يكلمك من أجلها وأنه قد عهد إلى رسول بخطاب وأن هذا الرسول قصر في إيصاله إليك... فأجابته والدتي:

ــ "صدقت"! و"لكن أتظن هذا ممكنًا"؟

كم أثرت هذه المحادثة خلال ساعات الشؤم التي مرت بي وكم تخيلت الحجرة التي نُطقت فيها، وهي عبارة عن بهو صغير كانت تحبه أمي وتؤثره على غيره وكانت فُرشه من الأقمشة الموشاة بسطور من الحرير بين حمراء وبيضاء وصفراء وسوداء كان والدي قد أحضرها معه من مراكش في إحدى سياحاته.

وإني لا زلت أرى والدتي، هي أيضًا بشعورها السوداء وعينيها الجميلتين وفمها المضطرب فزعًا. فلقد كانت لشدة ما انتابها من الهلع بيضاء بياض ثوبها الصيفي الذي كانت مرتدية إياه في تلك الليلة.

وكان السيد ترموند مرتديًا ثيابًا رسمية محكمة التفصيل بديعة الهندام.

كم أبتسم لهذه الذكرى كلما تحدث الناس عن المشاعر!

انصرفت مطمئنًا حينما سمعت ما قال. بل كنت أعجب به بطفولة، خصوصًا ولم أكن آنس منه إذ ذاك ملاطفة.

ولذلك تلقيت بالمدرسة دروس ذلك اليوم وقلبي على الأقل أكثر ارتياحًا وإن كنت ما زلت على شيء من بلبلة الخاطر...

لكني ما كدت أقف عند عودتي من المدرسة على درجات السلم الصغير الموصل لحجرتي، حتى عادت جميع صنوف القلق والاضطراب تساورني فكنت أدق من لحظة لأخرى على الباب مناديًا دون أن يجيبني أحد حتى دخلت غرفتي الخادم التي ربتني فصحت بها عندما رأيتها:

ـ أبي؟ أبي؟ أين أبي؟

فاحتضنتني العجوز قائلة وقد ارتسم الأسى على جبينها:

ـ مسكين! مسكين!

كان قد عهد إليها إبلاغي النبأ المفجع ولكنها خارت قواها فتخلصت من بين ذراعيها وركضت في الدهليز فألقيت نظرة في حجرتين فوجدتهما خاويتين ثم ما زلت أسرع حتى دخلت حجرة أبي قبل أن يستطيع أحد أن يحول دوني.

آه! رأيت على السرير ذلك الجسم الـذي كـان يـستر القـماش يبوسـته وعـلى الوسادة ذلك الوجه الناصع البياض لكثرة ما نزف من دمه، رأيت ذلـك الجـسم لا حراك به، ورأيت عينيه مفتوحتين إلى أقـصى سـعتهما كـأنهما عينـا رجـل لم تغلـق حدقتاه كما وقع نظري على تلـك العـصابة البيـضاء التـي لفـت بهـا ذقنـه وتلـك المنشفة التي أحيط بها جبينـه. ورأيـت عنـد رجليـه امـرأة جاثيـة سـحقتها الآلام كانت ما تزال مرتدية ملابسها الزاهية.

ذلك الرجل أبي وتلك المرأة أمي! فألقيت بنفـسي عليهـا كـالمجنون فـصرخت وهي تحتضنني بكـل مـا في أعـماق قلبهـا مـن الـشفقة والحنـان: "ولـدي، ولـدي أندريه"! فآنست في تلك الصرخة ألمًا عميقًا وحنانًـا بالغًـا كـما كنـت أشـعر وهـي تحتضنني أن قلبها مفعـم بـصنوف الحـزن والأسى. في تلـك اللحظـة التـي لا تـزال نارها تتأجج في فؤادي كلما مرت ذكراها بمخيلتي.

ثم حملتني في الحال خارج الحجرة لكيلا أعود فأرى هذا المنظـر المفـزع ثـم أخذت تصيح وقد زادهـا الحـزن والاضـطراب والـسخط قـوة قائلـة عـدة مـرات: "ليعاقبني الـلـه، ليعاقبني الـلـه"! دون أن تحـسب حـسابًا لوقـع هـذه الكلـمات التي كانت تنطق بها بغير احتياط. وكثيرًا ما مرت به لحظات عديـدة كانـت فيهـا من التقوى بحيث تبلغ حد التصوف. كما كانت تغطـي وجهـي ورقبتـي وشـعري بقبلاتها ودموعها!

أيتها الأم الرؤوم، ليغفر لك اللـه جميع ما انتابنـا، أبي وأنـا، مـن آلام مبرحـة تلقاء ما ذرفت من دموع غزيرة سخينة صادقة في تلك اللحظة!

إن شبح الميت الذي كان يذكرني على الأقل بآلامك قد كان لسان دفاعه عنـك أكثر نفاذًا وفصاحة من أنينه!

لقد أتيح لي الإيمان بإخلاصك يا أمي بـالرغم مـن كـل شيء لمـا حبـوتني مـن القبلات في تلك اللحظة!

حقًّا إن تلك الدموع وتلك القبلات لبريئة طـاهرة وقلبـك الـشفيق قـد هـاج حقًّا هياج السخط من هذا الحـادث المريـع الـذي حرمنـي أبي، وإني لأقـسم عـلى ذلك بنحيبنا المتواصل أنت وأنا في تلك اللحظة كما أقـسم بهـذا النحيـب المـشترك أنه ليس لك أقل قسط في تلك المؤامرة الدنيئة.

وصفحًا إذا كنت في حاجة اليوم أيـضًا للاقتنـاع بهـذه الحقيقـة التـي لا مـراء فيها والتي لا تحتاج إلى دليل. فليتك تعلمين مبلغ ظمأ المرء أحيانًا إلى ذلك اليقين ظمأ يبلغ به حالة النزع.

(3)

لمَّا كنت أسائل والدتي في تلك الآونة عن حديث هذا الحادث المروع الشنيع كانت تجيبني بأن والدي أصيب بضربة أثناء كان في عربة ولأنه لم يكن يحمل أوراقًا تدل على شخصيته بقي يومين دون أن يعرف.

بهذا كانت تجيبني والكبار يظنون أن من السهل خدع الأطفال!

لكني كنت من أولئك الذين يدأبون على التفكير الطويل فيما يلقى عليهم من الأحاديث والأقوال فلم أكن أصدق ما أسمع إلا بعد التمحيص. لذلك وصلت سريعًا بعد أن استعرضت الحوادث في مخيلتي وقارنت بين الظروف إلى الحكم بأن الحقيقة ليست ما عرفت. لأنه إذا كان والدي قد مات بالصفة التي أخبرت بها فلماذا سألني الخادم عندما كان يحضرني إلى المنزل عمَّا بلغني متعلقًا بذلك الحادث؟ ثم لماذا عكف هذا الرجل على السكوت المطلق بعد ذلك ومن فطرته الثرثرة؟ ثم لماذا ألاحظ هذا السكوت مرفرفًا حولي على جميع الأفواه مستكنًا في جميع الأنظار؟ وأخيراً لماذا يغيرون وجهة الحديث معي أو أمامي كلما كدت ألمس الحقيقة؟

لقد لاحظت ذلك من أدلة دقيقة عديدة! وإلا فلماذا أيضًا بذلوا جهدهم في عدم إيصال أية صفحة إلي أو تحت أنظاري في حين أن الجرائد الثلاث التي كنا مشتركين فيها كانت توجد دائمًا في حياة أبي فوق منضدة البهو؟ ولماذا على الأخص كانت نظرات رفاقي والمدرسين، في الأيام الأولى لدخولي المدرسة بعد أربعة أشهر من هذا المصاب، تسلط عليَّ بحالة أشتَمُّ منها شغفهم بالاستطلاع؟

إن هذه النظرات وفيها ذلك الشغف لهي التي كشفت أمامي عظم مدى هذه الكارثة.

لم يكن قد مرَّ علينا أسبوعان حتى بدأت الدراسة فوجدت نفسي صباح ذات يوم ألعب مع تلميذين حديثين بالمدرسة لا زلت أذكر اسميهما وهما راستوي وسيرفوان، كذلك لا زلت أرى وجهيهما. فالأول سمين الوجه والثاني نحيفه وكان ذلك خلال الفسحة التي كنا نمنحها بين درسي اللاتيني والإنجليزي ومداها ربع ساعة. كنا نلعب الكرة معًا ولما انتهى اللعب اقتربا مني متشجعين بما آنساه من نظراتي وسألاني دون احتياط:

ــ "أحقًّا قبض على قاتل أبيك"؟

ــ "وأنه سيعدم"؟

إني بالرغم من مضي ستة عشر عامًا لا أستطيع أن أتذكر بغير اشمئزاز وفزع خفقان قلبي الشديد الذي كاد يقضي عليَّ عند

توجيه هذين السؤالين إليَّ. فإنهما ما كادا يوجهانهما إليَّ حتى علا وجهي شحوب مريع لأن هذين الطائشين اللذين صوبا إليَّ هذه الضربة بخفة لا تصدر إلا ممن كان في سنهما _في سننا_ بقيا مضطربين قلقين في انتظار الإجابة. فتولاني غيظ شديد أعمى دفعني إلى أن أمرتهما بالسكوت مهددًا إياهما بقبضتي يدي مرفوعتين إذا تماديا.

لكني لم ألبث أن ساورني شغف جنوني بمعرفة أسباب سؤال زميليَّ وما إذا كان للسكوت الميم حولي علاقة بذلك، وعراني خوف هو خوف المرء مما يجهل. وصعد فيضان الدم في وجهي بينما كنت أتمتم مجيبًا: لا أدري. ثم فصلنا دق الناقوس وقد أذن بدخول الفصول.

ما أشأمها صبيحة قضيتها على أثر ذلك ضالًّا لشدة قلقي أقلب وأحلل ذينك السؤالين اللذين سببا لي عظيم الاضطراب.

وكان من الطبعي أن ألجأ إلى والدتي لألتمس منها الإجابة لكني شعرت بأني غير مستطيع تكرار ما وجه إليَّ ذانك الجلادان الطائشان. إنه لأمر مدهش! فإني أشعر من ذلك الحين أن لهذه المرأة التي كنت أحبها من صميم القلب تأثيرًا عظيمًا يشل كل حاسة في نفسي.

كانت على غاية من الجمال في شحوبها، وكان لها جمال الملكات وأنفتهن!

كلا، لن أجرؤ على مكاشفتها بالشك الغشوم الذي يساورني في حـديثها، ذلـك الشك الذي أثاره في نفسي سؤالا تلميذين طائشين مدفوعين إليهما بحكم الغريزة.

لكني وقد كاد يخنقني السكوت اعتزمت أن أتقدم إلى جوليـا، الخـادم التـي ربتني فأستدر منها جواب ذينك السؤالين.

وهي آنسة عجوز ناهزت الخمسين ضئيلة الجسم ذات وجه نحيف ثوت بـه التجاعيد كتفاحة زادت عن حد النضوج.

كم تقرأ من الطيبة في عينيها السوداوين وفي ذلك الوجه جميعه وإن كانـت شفتاها الغائرتان بعض الشيء لسقوط أسنانها الأمامية قـد جعلتـا مـن فمهـا فـم ساحرة!

قد بكت أبي لأنها خدمته فيما مضى قبل أن يتزوج. وقد احتفظ بها في المنزل خصيصى لخدمتي ولتؤدي في الوقت نفسه بعض أعمال بسيطة مساعدة للطاهية والخادمين الآخرين. فكانت هي التي تُعنـى بنـومي وترتيـب سريـري كـما كانـت تقرئني بـضع صـلوات وتكلفنـي أن أفـضي إليهـا بـآلامي ومتـاعبي الـصغيرة فلـما أفضيت إليها بمكنون قلبـي مكـررًا تلـك الجمـل التـي أثـرت في فـؤادي، أجـابتني ببساطة:

ــ آه! ما أفظع هذين السؤالين! ثـم اسـتتبعت قائلـة: ولكـن مـاذا؟ لـيس في الاستطاعة أن يخفى عليك الأمر طويلًا...

وهي التي أبلغتني الحقيقة بصوت منخفض في حجرتي الصغيرة بينما كنت أنتحب في سريري الضيق. وكانت تشاطرني آلامي وأحزاني وكنت أشعر بيدها التي أضاع نضرتها كرُّ السنين والعُكوف على التطريز رحيمة في مداعبتها لشعري.

هذه الكارثة المفجعة التي ناءت بغموضها الحالك على جميع سني شبوبيتي وجدتها مكتوبة بجرائد تلك الحقبة ولكن ليس بأكثر وضوحًا مما سمعته من ذلك الفم الذابل، فم خادمتي العجوز. وها هي في جدب تفصيلاتها كما قلبتها أيامًا طويلة متواصلة دون أن أفوز بشعاع من الأمل في كشف سرها الغامض:

كان والدي، ذلك المحامي المبجل قد ترك منذ بضعة سنين المحكمة الاستئنافية واشترى مكتب أعمال هامًّا قاصدًا بذلك إلى سرعة نوال أعظم ثروة. وقد مكنته من الحصول على مكانة ممتازة بضعة من علاقاته الرسمية واستقامته التي بلغ فيها منتهى الدقة وما كان عليه من دربة وبعد نظر في حل أعوص المسائل وقدرة خارقة على احتمال مشاق العمل.

كان في خدمته خمسة من كاتمي الأسرار فلم يكن مبلغ المليون ونصف الذي ورثناه عنه أنا ووالدتي إلا مفتاح ثروة هائلة كان لا يأبه بها إلا قليلًا بالنسبة لشخصه ولكن كان قصارى همه أن يعدها إلى ولده وعلى الأخص إلى زوجته التي كان بها هائمًا إلى درجة الجنون.

ثبت من المذكرات والخطابات التي عُثر عليها بين أوراقه في الفترة التي مات فيها أنه كان في مخابرة منذ شهر مع شخص يدعى وليم هنري روشدال أو يزعم أنه بهذا الاسم وأنه مكلف من قبل محل كرافورد في سان فرانسسكو بالحصول من الحكومة الفرنسية على امتياز بإيجاد سكة حديدية في الكوشنشين وهو الامتياز الذي حصل عليه ذلك المحل إذ ذاك.

فلما أن تركنا والدي بعد أن تناول طعام الإفطار مع والدتي والسيد ترموند وكنت أنا معهم، كان ذلك لأنه على موعد مع هذا المدعو روشدال. وهذه النقطة لم يجد التحقيق الذي عمل بعد الكارثة أقل عناء في إظهارها.

وكان موعد المقابلة في النزل الملكي وهو بناء ضخم ذو واجهة طويلة كائنة بشارع "ريفولي" ليس على بعد كبير من وزارة البحرية وكان هناك عدة منازل أحرقتها نيران الجمعية الثورية.

كم من مرة في طفولتي طلبت إلى خادمتي أن تمر بي هناك حيث أرى وأنا مفعم القلب بعظيم التأثر ذلك الفناء الموشى بالخضرة وذلك السلم وبساطه الذي يغطيه، وتلك اللوحة الرخامية السوداء المرصعة بالحروف الذهبية ومدخل هذا النزل المشئوم الذي كان ينحدر إليه ذلك الوالد التاعس بينما كانت والدتي تتحدث إلى السيد ترموند وأنا ألعب عن كثب منهما.

كان والدي قد تركنا في الساعة الثانية عشرة إلا ربعًا وقد اضطر إلى الذهاب سائرًا على قدميه ربع ساعة لأن خادم النزل بعد أن رأى الجثة عرفه وتذكر أنه كان قد سأله عن رقم الحجرة التي يشغلها "روشدال" حوالي الساعة الثانية عشر والنصف.

هذا الرجل الغريب المدعو "روشدال" كان قد وصل بالأمس وبعد شيء من التردد اختار مكانًا في الطابق الثاني مكونًا من حجرة للنوم وبهو تفصلهما عن الدهليز حجرة صغيرة.

ولمَّا أن نوى ذلك الغريب في ذلك المكان لم يخرج منه منذ لحظة دخوله فيه حتى لقد تناول فيه طعام العشاء يوم وصوله والإفطار في اليوم الثاني.

كذلك قد تذكر البواب أن هذا المدعو "روشدال" كان قد نزل وحيدًا حوالي الساعة الثانية بعد الظهر ولكن هذا البواب وقد اعتاد أن يرى كثرة ذهاب اللاجئين إلى هذا النزل ومجيئهم لم تساوره فكرة ملاحظة إن كان زائر الساعة الثانية عشرة والنصف قد بارح المكان أو ما يزال ثاويًا فيه.

لكن "روشدال" كان قد ترك مفتاح المحل آمرًا أنه إذا سأل عنه سائل فليرج في انتظاره فيه حتى يعود وخرج بعد ذلك بقدم ثابتة يحمل تحت ذراعه محفظته مذكيًا سيجارًا ولم يعد يرى بعد ذلك.

انقضى النهار ولمَّا أسدل الليل ستاره دخلت الخادمات مخدع الغريب ليرتبن سريره ومررن بالبهو فلم يلاحظن فيه شيئًا غير عادي: فأمتعة النزيل وهي صندوق كبير أتى عليه القدم وحقيبة صغيرة جديدة قد وجدا في مكانهما كما وجدت أدوات الزينة مرتبة فوق الخزانة.

وحوالي ظهر اليوم التالي عادت تلك الخادمات فدخلن ولما أن لاحظن أن النزيل لم ينم في مكانه لم يكلفن أنفسهن إلا مشقة إعادة تغطية السرير دون أن يشغلن فكرهن بأمر البهو. وقد تكرر هذا الأمر مساءً.

ولم ينكشف المستور إلا بعد غد ذلك اليوم إذ دخلت إحدى تلك الخادمات في المحل صباحًا ولمَّا أن وجدت كذلك أن شيئًا لم يمس تولاها الدهش فأمعنت في البحث قليلًا فاكتشفت تحت الأريكة جسمًا ممدودًا مغطى رأسه بمناشف.

فصرخت صرخة فزع داوية جاء على أثرها خدم آخرون راكضين وأخرجت جثة أبي _لأنه ويا للأسف كان هو!_ من المخبأ الذي وضعها القاتل فيه ولم تتعذر على المحققين معرفة أسباب الوفاة ولا كيفيتها:

فإن ثقبًا في قفا المجني عليه دل على ن المسكين قد قتل من الخلف عن كثب بغير شك حينما كان جالسًا إلى المائدة يفحص أوراقًا. أما عدم سماع الطلقة فراجع إلى إطلاقها عن كثب وإلى شدة

ضوضاء الشارع الذي كـان يـشرف عليـه المكـان فـضلًا عـن أن هـذا المكـان قـصي منعزل خلف الدهليز.

على أن الاحتياطات التي اتخذها القاتل تـدعو إلى الظـن بأنـه كـان متـسلحًا بسلاح من النوع الذي عني بـأن تكـون طلقتـه ضـعيفة الـصوت. وقـد وجـد أن المقذوف قد مس الخلايا النخاعية وأن الوفاة كانت صـاعقة. كـما أن القاتـل كـان قد أعد المناشف جديـدة دون أن تكـون عليهـا أرقـام، فلـف بهـا في الحـال وجـه فريسته وعنقها ليتفادى بذلك ظهور كل أثـر للـدماء. وأنـه نـشف يديـه بمنـشفة مشابهة له واستعمل لذلك ماء من إناء سكبه بعـد ذلـك في قنينتـي سـفر وجـدتا مخبأتين تحت الغطاء المسدل على المدفأة.

فهـل كـان الـدافع لهـذه الجنايـة الـسرقة أو مجـرد التظـاهر بهـا تـضليلًا للمحققين؟

لم يوجد مع والدي لا ساعته ولا محفظة أوراقـه ولا ورقـة تثبـت شخـصيته، تلك الشخصية التي عرفت في الحال بالرغم مـن ذلـك بحـادث عـرضي، فقـد كـان يحمل داخل جيب ردائه قطعة صغيرة من القـماش وضـعها لـه الـترزي مـع رقـم الفاتورة وعنوان المحل الذي يستورد منه القـماش فانتقـل المحققـون إلى حـانوت ذلك الترزي بعد ظهر اليـوم الـذي تـلا اكتـشاف الجثـة وبعـد إجـراء التحقيقـات عرفـت شخـصية الجثـة ونقلـت إلى منزلنـا. والقاتـل؟ إن الـدلائل الوحيـدة التـي

بدت للعدالة قد فحصت في الحال فحصًا دقيقًا فقد فتح الصندوق الذي تركه المجهول "روشدال" وهذا بالتحقيق لم يكن اسمه، فوجد مملوءًا بأشياء اشتريت صدفة كما اشترى الصندوق نفسه من محل الأشياء القديمة الذي قد اهتدى إليه وأدلى صاحبه ببيان يختلف جد الاختلاف عن ذلك الذي أدلى به بواب النزل الملكي لأنه وصف المزعوم "روشدال" برجل أشقر حليق الذقن بينما وصفه البواب رجلًا شديد السمرة كثّ اللحية. وقد وجدت أيضًا العربة التي حمل عليها الصندوق حينما اشترى وشهد الحوذي بما يطابق تمام المطابقة أقوال بائع الأشياء القديمة. وبعد شراء الصندوق دخل القاتل حانوت أدوات السفر حيث اشترى منه حقيبة ثم حانوت الأقمشة البيضاء حيث اشترى المناشف وذهب بجميع ذلك إلى محطة "ليون" حيث سلم هذه الأشياء بها.

وقد وجدت العربة الأخرى، تلك التي أوصلته بعد ذلك بثلاثة أسابيع من المحطة إلى النزل الملكي وقد وجد البيان الذي أدلى به الحوذي الثاني مطابقًا لشهادة البواب.

فاستنتج مما تقدم أن القاتل خلال هذه الأسابيع الثلاثة كان متنكرًا لأن جميع الشهادات اتفقت على مشيته ونغمة صوته على حركاته وعرض أكتافه. وأيَّد هذا الافتراض حلاق يسمى "جوليان" مثل أمام المحققين من تلقاء نفسه وأدلى بهذه التفصيلات الغريبة

قائلًا: شخص واضح البشرة أشقر الشعر أمرد كبير الجسم عريض الأكتاف، وهو ما وصف القاتل المزعوم "روشدال" به تاجر الأواني المزخرفة، قد حضر إلى حانوته في الشهر الماضي وطلب إليه شعرًا مستعارًا ولحية مرتبة بإتقان لكيلا تستطاع معرفته وقال إن السبب في ذلك أنه سيحضر ليلة راقصة يكون جميع من فيها متنكرين وقد أخذ هذا المجهول فعلًا شعرًا ولحية أسودين كما حصل على جميع العناصر الضرورية ليكون متنكرًا في زي واحد من أبناء أمريكا الجنوبية وكذلك اشترى صباغًا ليسوِّد به جفنيه وخليطًا من طينة "سبين" والعنبر ليلوِّن به بشرته. وقد نجح نجاحًا كبيرًا في تنكره باستعماله هذه الأدوات حتى استطاع أن يعود عنه جوليان دون أن يعرفه هذا الأخير. فدهش الحلاق غاية الدهش من هذا الاتقان في التنكر ومن إقامة حفلة راقصة متنكرة في الصيف... حتى اتجه فكره للحادثة عند قراءته للفصول التي نشرتها الصحف عن "حادثة النزل الملكي الخفية" وهو ما سميت به هذه الحادثة في الحال.

لكن هذا التصريح الذي أدلى به الحلاق زاد في صعوبة مهمة القضاة بما أظهر من الاحتياطات العديدة التي اتخذها المجهول.

وقد اكتشف عند والدي خطابان موقع عليهما بإمضاء "روشدال" مكتوب بأعلاهما أنهما صادران من لندن ولكنهما بغير مظروفيهما وكلاهما مكتوبان بأحرف مائلة منكسة قرر الخبراء أنها مصطنعة.

ولا بد أن والدي كان قد كتب عنهما مـذكرة إيـضاحية وأودعهـا في محفظتـه بصفته محاميًا، تلك المحفظة التي أخذها القاتل بعد أن اقترف جريمته.

كان محل كرافورد موجودًا حقيقة في سان فرانسـسكو ولكنـه لم يبحـث قـط في مشروع عمل سكة حديدية في الكوشنشين.

فوجد القـضاة أنفـسهم أمـام تلـك المـسائل الجنائيـة الغامـضة التـي تُعجـز المخيلة، إذ أنه من المحتمل ألا يكون القاتل بما بذل من المهـارة وتعـدد مـا اتخـذ من الاحتياطات الماكرة يريد السرقة فـإن الـسارق لا يوقـع رجـل الأعـمال في شرك وهو متخفٍّ بمثل هذا الإتقان ليستلبه ساعة ذهبية وبضعة آلاف من الفرنكات.

فهل كان هذا بدافع الانتقام؟

قد بحثوا بحثًا دقيقًا في حياة أبي الخاصة فاكتشفوا أنه كـان ينقـاد أحيانًـا إلى شيء من تلك الأهواء الضعيفة الشائعة لدى الشبان الذين هم من زمنه ومرتبته.

فقد كان فيما مضى على صلة بامرأة متزوجة ولكن هذه الصلة قـد انقطعت من زمن بعيـد فلـو أن شـكًّا سـاور الـزوج إذ ذاك مـن جهتـه فلماذا انتظر حتى الآن لينتقم بعد أن انقطع العهد بهذه الصلة من مـدة طويلة؟ ومع هذا فإن ذلك الزوج وكـان في ذلـك الحـين ينـاهز الخامـسة والخمـسين كـان قائمًـا بـأعمال ومـشاريع صـناعية ولم يكـن عـلى خلـق

يدفعه إلى الإجرام. كذلك كان وصفه كباريسي ضعيف ضئيل الجسم لا يتفق في شيء مع ذلك المتنكر تحت اسم "روشدال" المزيف.

فهل كان من المقبول أن زوجه قد تكون أرادت الانتقام، هي نفسها لهجر قديم بأداة خاصة؟

إني لكثرة مباحثي الأولى التي أملتها عليَّ حمى الهذيان قد وصلت بهواجسي وتخيلاتي إلى التفكير في هذا فأصررت على التعرف بها حتى رأيتها. فألفيتها بيضاء الشعر ولها ابن هو أكبر مني سنًّا، ربما كان أخي، من يدري؟

يا له من شعور أحسست به في نفسي حين فكرت في أن أبي كان قد أحب هذه المرأة التي كانت تنظر إليَّ بعينين لا تشعر نظراتهما بأنها أدركت أني كنت أبحث فيهما عن دليل على اضطرابها.

حقًّا، فإني لم أقرأ في هاتين العينين الزرقاوين الجميلتين اللتين بقيتا من آثار شباب ذلك المحيا المسن إلا حنانًا عميقًا، رقة حزينة وشفقة يخالطها كثير من جميل الذكريات فخجلت من وساوسي بل عددتها خيانة. فهل كان يخامر العدالة وهي لا يؤثر عليها ما أثر عليَّ من الحياء، ذلك الشك كما خامرني أو ذلك الشك مضافة إليه شكوك أخرى؟

إذا كانت قد خامرها شيء من ذلك فلا بد أن مخيلة رجالها قد اصطدمت بالنقطة الغامضة وهي البحث في حقيقة "روشدال" الذي لا يمكن تكذيب

كينونته ولا وجوده في النزل الملكي منذ الساعة السابعة من الليلة السابقة على الحادثة حتى الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي، ذلك الأثيم الذي اختفى اختفاء كأنما كان شبحًا دون أن يترك وراءه أثرًا يرشد إليه.

فلا نزاع في أن هذا الرجل قد حضر فكلمه أناس وعرف أين أمضى الليلة وصبيحة النهار قبل اقترافه الجريمة ثم اجترم جريمته... ولم يُعلم شيء بعد ذلك!

وقد شغفت باريس بتتبع أدوار هذه القضية وبعد ذلك، أي لما أن أردت أن أبحث عن مجموعة الجرائد التي أدرجت فيها وجدت أن أخبارها ظلت تذاع على صفحات تلك الصحف خلال أكثر من ستة أسابيع في كل صباح ثم اختفى عنوان هذا اللغز المشئوم من أعمدتها كما امحت ذكراه من ذاكرة القرَّاء بل تلاشت من رءوس رجال الشرطة والجواسيس العناية باستتباع المباحث. ثم سارت الحياة طاوية حطام هذه الكارثة في أمواجها التي تبتلع كل شيء!

نعم طُوي سجل هذه الحادثة ولكن هل نسيتها أنا وأنا ابن القتيل؟

أنَّى لي أن أنسى رواية خادمتي العجوز التي روعت جو حجرتي الصغيرة بحديث هذه الكارثة المفجعة؟

أنَّى لي أن أستطيع ألا أتمثل كل يوم، بل ما دمت قيد الحياة، وجه القتيل الشاحب وعينيه المفتوحتين وفمه المقفل بذلك اللثام وتلك العصابة التي كانت حول جبينه؟

وأنَّى لي ألا أقول: "سأنتقم لك أيها الميت المسكين، أيها الميت التاعس...؟".

لمَّا أن قرأت "هملت" تـأليف "شكـسبير" لأول مـرة بـذلك الـشغف الـشديد الذي توحي به المشابهة بين الحالة العقلية التي قد درست في كتاب قوامـه الفـن وشيء واقعـي مـن أزمـات حياتنـا الخاصـة، كنـت إذ ذاك أستبـشع ذلـك الـشاب وأخافه.

فهل لو أتاني شبح أبي يقص عليَّ، عليَّ أنا، بشفتيه اللتين فارقهما ريـح الحيـاة حديث ذلك الكمين الذي نصب له واغتيـل فيـه، أكنـت أتـردد لحظـة في التـشبه بهملت؟

"كلا"! لكني عرفت بعد ذلك كل شيء فترددت كما تردد "هملـت" في القيـام بالعمل الهائل. صه! صه! ولنعد إلى تسطير الحوادث.

(4)

...الحوادث التـي أعقبـت ذلـك؟ إني لأستعرضـها أمـام مخيلتـي بمـشقة، تلـك الحوادث التي وقعت خلال عـامين بـين تلـك الكارثـة المفجعـة ومـا اسـتولى عـليَّ بعدها من الكآبة والحزن.

ففـي عـام 1864 مـات أبي وفي عـام 1866 تزوجـت والـدتي بالـسيد "جـاك ترموند"، وبين هذين التاريخين حقبة لم تنمحِ من ذاكرتي لأنها الوحيدة التي فيهـا عنيت والدتي بأمري عناية متواصلة. فقبل التاريخ المشئوم كان والدي هـو المهـتم بشؤوني وبعد السنتين المذكورتين لم يعد أحد يهـتم بي، فلقـد تركنـا المنـزل الكـائن بشارع "ترونشيت" لأنه كان يـذكرنا كـل لحظـة بالكارثـة المـشئومة وأقمنـا بنـزل صغير بشارع "لا تور موبور" كان في ملكية رجـل مـن هـواة الـنقش. ينتهـي هـذا النزل بحديقة صغيرة تبدو لالتصاقها بالحـدائق النـضرة خلـف سـورها كأنمـا هـي متنزه كبير. ويحتوي هذا النزل على بهو كان "ورشة" للمالك السابق فجعلت منـه والدتي حجرتهـا الخاصـة. كـان في فطـرة والـدتي شيء مـن تلـك النـزوات الخياليـة الساذجة البريئة يدفعها إلى الإفراط في إظهار جميع المشاعر التي تخالج وجدانها.

وبينما كانت تهتم بدلال الطفولة بالتعبير عما يملأ جوانحها من التأثر، كانت في الوقت نفسه تترك هذا التأثر يتبدد من قلبها، فإنها في العزلة الاختيارية التي أرادت بها حبس نفسها بعد مصيبتها بحيث لا تقابل إلا عددًا صغيرًا من الأصدقاء من بينهم السيد ترموند، بدأت بأسرع ما يمكن في العناية بالتجمل وتنسيق كل شيء حولها بذلك الذوق الرقيق التي فطرت عليه. ولا غرو فقد كانت على جمال غريب، نحيلة شاحبة اللون طويلة الشعر حتى أنه كا يصل حقيقة إلى الأرض عندما كانت تمشطه أمامي كل صباح. فهل هي مدينة بهذا الجمال الأصيل وبوجهها البهي وبعينيها المحبوبتين وبقامتها النحيلة المعتدلة إلى ذلك الدم الإغريقي الذي كان يسري في شرايينها؟

فجدها من جهة الأم هو السيد "فوترنتو" الذي وفد إلى مرسيليا من المشرق عند ضم الجزائر اليونيونية إلى فرنسا وطالما كنت أفكر في التباين الغريب بين هذا الجمال النادر وبين ما كان عليه أبي وما أنا عليه مثله من القوة وعرض الأكتاف.

من ذا الذي يستطيع أن يقول إن هذا التباين لم يكن سببًا لجميع صنوف سوء التفاهم الذي كان بين الاثنين، والدي ووالدتي؟

لكني كنت في تلك الحقبة في سن لا يستطيع عقلي الصغير فيها تحقيق هذا التباين، بل كنت مفتونًا بجمال هذا المخلوق الساحر، والدتي الرشيقة الوديعة التي كانت تناديني وتخاطبني بقولها: "ولدي"

عندما كانت تجلس إلى "البيانو" في ذلك الموئل الرشيق الذي أثثته بجميل الحرائر والأصواف ووضعت فيه الأزهار والرياحين فكنت أشاهدها متأملًا في جمالها الفاتن بعبادة لا حد لها.

فبسببها هي وإرضاءً لها كنت أجتهد بالرغم مما فطرت عليه من الطيش في أن أكون نظيفًا معتنيًا بملابسي التي كانت موضع عنايتها. وكذلك كانت تنمحي رويدًا رويدًا صورة القتيل المفزعة من هذا النزل الذي كان ثمن كل ما فيه من ثمين الأثاث وبديع النظام من الثروة التي تركتها لنا مجهودات ذلك التاعس.

ولا غرابة فالحياة الحديثة قلما تبقي على ذكريات الحوادث الدموية ووحشية القتل القاسية وبالتالي لا تبقي على الشغف بالانتقام حتى أن المشاهد المفجعة التي حضرتها فشاهدتها عائلة لتبدو بأسرع ما يمكن لأشخاص هذه العائلة كأنما هي نوع من حلم أو كابوس.

ومع أن هذا لا يحتمل الشك بأي وجه فإنه موضع التكذيب!

نعم فإن الحياة قد عادت إلى مجراها الطبيعي تقريبًا عندما أبلغت بزواج والدتي، وإني لأذكر هذه المرة بكل دقة ليس فقط الحقبة التي وقع فيها الزواج بل يوم الزواج وساعته، كنت وقت المسامحة عند عمتي الوحيدة، شقيقة والدي، وهي آنسة عجوز تناهز الثامنة والأربعين كانت تقطن مدينة "كومبيني" "Compiegne" في منزل قصي ومعها ثلاثة من الخدم بينهم مربيتي "جوليا" التي لم يكن خلقها يتفق مع خلق والدتي.

كانت عمتي "لويزه" ضئيلة الجسم على وجهها مظهر الفلاحات وكانت في حياة أبي قليلة الرغبة في زيارة باريس فإذا ما زارتها لا تمكث بها أزيد من ثمانٍ وأربعين ساعة. وكانت ترتدي غالبًا ثوبًا من الحرير الأسود مصنوعًا بالمنزل على ياقته وطرفي كميه شريط رفيع أبيض وتحمل حول عنقها سلسلة عتيقة من الذهب عظيمة الطول تمر تحت صدرها حتى تصل إلى منطقتها وتظهر منها وفي نهايتها ساعتها بما هو مدلى فيها من التحف القديمة. وعندما لا تكون على رأسها قبعتها ذات الأشرطة السوداء بلون ردائها كانت تظهر شعورها وقد وخطها المشيب ما حوله من العصابات كما كانت تلك الشعور ربما تبدو كإطار محيط بجبين وعينين تقرأ فيهما البشاشة والطهارة حتى أن المسكينة لتعجب كل من رآها بالرغم من كبر أنفها بعض الشيء وعرض شفتيها وطول ذقنها وهي التي ربت والدي في هذا المنزل وفي هذه المدينة الصغيرة. وكانت منحته ثروتها التي اقتطعتها من احتياجات حياتها البسيطة ولمَّا أراد الاقتران بالآنسة "ده بلان" وهذا هو اسم والدتي فتاةً، مهرته لتسهل له سبيل الدخول في العائلة التي أراد مصاهرتها.

كم حزنت وألمت هذه المسكينة منذ عامين! فإن صورتها التي كنت محتفظًا بها في مجموعتي وأنا تلميذ تتباين كل التباين مع ما آلت إليه حالتها فقد طغى المشيب على شعرها وبدت تجاعيد وجهها عميقة وذبلت جفونها! ومع كل هذا فهي لم تستسلم للإباحة بحزنها

العميق ولو تفريجًا لقلبها المفعم. فالمقابلة في نظري ـ وأنا طفل نقاد ـ بين خلق والدتي وخلق عمتي كانت تدلني دلالة جلية على مبلغ الفرق بين ما كانت عليه كل واحدة منهما من مبلغ الحزن، لذلك كان يصعب عليَّ إذ ذاك أن أدرك سبب احتياط الآنسة العجوز التي لم أكن أستطيع الشك في جَمِّ حنانها.

أما اليوم فإني أصبحت غير عادل نحو النوع الآخر من الطبيعة. فإن والدتي كانت ذات نفس رحيمة شفيقة حتى أنها لم تستطع أن تكاشفني بحياتها الجديدة فأخذت عمتي على عاتقها عبء هذه المهمة.

لم ترد عمتي أن تحضر حفلة الزواج وقد علمت فيما بعد أن السيد ترموند كان قد فضل ألا أحضرها أنا قط ولم يكن غرضه بلا شك إلا تجنب تأثر تلك التي ستصبح زوجته.

يا لله! كم كانت الدموع بادية في محاجر عيني عمتي الشقراوين مع ما جاهدت في تملك عواطفها عندما قادتني إلى داخل الحديقة حيث كان أبي مثلي يلعب وهو طفل. كانت ألوان شهر سبتمبر الذهبية قد بدأت تنبسط على أوراق الأشجار وكانت العريشة التي جلستا تحتها يكسوها كرم كانت عناقيده وقد نضجت تجلب سربًا من الزنابير فوضعت عمتي يدي بين يديها، وقالت:

ــ أي أندريه، لدي خبر هام لأبلغك به.

فنظرت إليها قلقًا. لأن الهزة العنيفة التي أصابتني على أثر الحادث المشئوم خلفت من بين آثارها في نفسي نوعًا من سرعة الاضطراب العصبي حتى أصبح قلبي يشتد خفقانه عند أقل دهش لدرجة تؤلمني. فاستتبعت بسذاجة تلك الآنسة العجوز التي لم يغب عنها كنهُ ما تولاني من اضطراب قائلة:

ـ الخبر خاص بوالدتك... إنها ستتزوج.

من المدهش أن هذه الجملة لم تسبب لي في الحال الشعور الذي كانت نظرة الاضطراب التي بدت مني تؤذن بتوقعه! لأني ظننت من نغمة صوت عمتي بادئ الأمر أنها ستخبرني بمرض والدتي أو وفاتها فتولاني الذعر، لكني لما أن سمعت منه الخبر سألتها في شيء من الهدوء:

وبمن ستتزوج؟ فسألتني عمتي: ألا تحزر؟ فأجبت فجأة: بالسيد "ترموند"!

وإني حتى الآن لا أدرك سر خروج هذا الاسم من بين شفتي بتلك السرعة الفجائية.

مما ريب فيه أن السيد "ترموند" كان كثير الزيارة لنا منذ ترملت والدتي. ولكن ألم يكن يزورنا كثيرًا بل أكثر قبل أن تصبح والدتي أرملة؟ ألم يقم بمختلف أعمالنا وأمورنا بإخلاص كنت أدرك منذ ذلك الحين مبلغ ندورته؟ فلماذا كان إذن خبر زواجه بوالدتي قد بدا لي فجأة أشد بعثًا للكآبة مما لو كانت تزوجت بسواه؟

يبدو لي أن هذا الشعور كان يجب أن يكون غير ما حلَّ بنفسي، فقد كنت أعرف هذا الرجل من زمن طويل، هذا الرجل الذي دللني كثيراً وكان لا يزال يدللني، فهو الذي كان ينفحني بأبدع اللعب ومنه أتتني أجمل كتبي، فقد أهداني وأنا في السابعة من عمري حصانًا نادر المثال يسير بآلة ميكانيكية. أما سررتُ والدي المسكين حينما كنت أتحدث إليه عن هذا الحصان بأنه من أكرم الجياد أصلًا؟ ثم أهداني ذلك الرجل كتاب "الدون كيشوت" تأليف "جوستاف دوري" في تلك السنة عينها وكان بغير انقطاع يهديني هدايا أخرى جديدة. ومع ذلك فلم أعد أشعر في حضرته بما كان له في قلبي من الحب فيما مضى. فمن أي عهد بدأ عندي هذا النفور من جهته؟

ما كنت لأشعر بذلك لولا أني كثيراً ما كنت أجد هذا الرجل حائلًا بيني وبين والدتي. ولذلك أعترف أني كنت أشعر من جهته بغيرة هي غيرة الأطفال الطبيعية، حتى أني كنت بدافع من هذه الغيرة أسرف في مداعبة والدتي عندما يكون في حجرتها لأريه بأجلى بيان أنها والدتي وأنها ليست له في شيء. فهل عرف هذا الشعور في نفسي؟ من يدري؟ وهل كان يشاطرني إياه؟

مما لا مراء فيه أني كنت أقرأ في نظراته، بالرغم من صوته الملاطف وتأدبه معي، أنه يضمر لي من الكراهية بقد ما أضمر له.

فـالغريزة في تلـك الـسن ـسـن الطفولـة التـي كنـت فيهـا_ قلـما تخـدع في مشاعرها. وهذا هو ما أفسر به ذلك التقـزز القليـل الـذي تـولاني عنـدما نطقـت اسمه، فإني وقد تولاني هذا التقزز ما كدت أصرخ ناطقًا باسمه عنـدما طلبـت إليَّ عمتي أن أخمن عمَّن ستتزوج به والدتي حتى رأيتها ترتعد قائلة:

ـ نعم، صدقت. فالذي ستتزوجه هو السيد "ترموند"، ثم سألتني: لكن لمـاذا اتجه فكرك نحوه في الحال؟

لكنها ما كادت توجه إليَّ هذا الـسؤال وهـي تحملـق في وجهـي حتـى كأنمـا عراها خجل من توجيه سؤال كهذا إلى طفل مثلي فخفضت من صوتها قائلة:

ـ ما مبلغ علمك في هذا؟

فما كدت أسمع هذا السؤال وبغير دافع آخر سوى ألم عصبي كنـت فريـسته مذ وفاة أبي حتى انفجرت نحيبًا وبكاءً، أزمة من تلك الأزمات التي كانت تصيبني أحيانًا فتجعلني في هذه الحال وأنا وحيد منعزل في حجرتي المقفلـة فريـسة لقلـق ما كنت أستطيع التغلب عليه كأنما أنا على شفير خطر.

حقًّا كنت كمن يشعر بخطر داهم، كنت أتوقع أفظع الحـوادث، فـأرى مـثلًا كأن والدتي لا بد أن ستقتل كما قتل أبي وأن نصيبي سيكون نصيبهما عاجلًا.

لذلك كنت أبحث في أنحاء الحجرة وأنقب تحت ما بها من الأثاث وأرهف أذني لكل حركة. وعندما كنت أتنزه وبصحبتي أحد الخدم كانت تخالجني الريبة فيه فأسائل نفسي إذا لم يكن هذا الرجل شريكًا لذلك القاتل المجهول في تلك الجريمة الخفية وإذا لم يكن قد عهد إليه باستدراجي نحوه أو على الأقل بإضاعتي.

وهكذا كنت خاضعًا لمخيلتي المضطربة الثائرة فأتخيل أني قد وصلت إلى "كومبيني" ناجيًا من تلك المؤامرة. ولكن هل عندي من الدراهم ما يكفي؟ كنت أحدث نفسي أني قد أستطيع بيع ساعتي إلى ساعاتي كنت أراه وأنا ذاهب إلى المدرسة، يشتغل ونظارته فوق عينه اليمنى خلف زجاج حانوت صغير.

ما أفظع ما كان ينتابني من الحزن والقلق بسبب مقدرتي على توقع السوء، تلك المقدرة التي سممت ساعات طفولتي البريئة!

حقًّا، إن هذه المقدرة لهي التي كثيرًا ما جعلتني أنفجر نحيبًا وبكاء تحت عريشة حديقة الخريف بينما كانت عمتي تسألني الإفضاء إليها بما كان يشعر به قلبي ضد السيد "جاك ترموند" فأفضيت إليها وأنا مسند رأسي إلى كتفها بإحدى شكاياتي المؤلمة منه، وهي شكوى حملت في طيها بقية الشكاوى الأخرى.

وحدث بعد ذلك بشهرين أني عدت ذات يوم حوالي الساعة الخامسة من المدرسة كامل السرور على غير عادتي لأني قرأت أمام الأستاذ، كما

يحصل في آخر السنة الدراسية، قطعًا منتخبة مسلية فنلت منه أجمل التهانئ على ما أظهرت من الإجادة في المواضيع الإنشائية القيمة التي تمنح عليها الجوائز. ما أجمله خبرًا أحمله إلى منزلي فأنال عليه قبلة أجزل حنانًا! فما كدت أصل إلى المنزل مندفعًا حتى وضعتُ كتبي في الحال واتجهت رافعًا يدي برزانة نحو البهو الصغير حيث تجلس والدتي فدخلت بحماسة بالغة فصرختْ صرخة خفيفة عندما كنت أقذف بنفسي نحوها لأقبلها وكانت واقفة أمام المدفأة، شديدة الشحوب وبجانبها السيد "ترموند" الذي كان واقفًا أيضًا فقبض على ذراعي ليبعدني، فقالت والدتي:

ــ آه! كم أخفتني! وقال السيد "ترموند" من جهته:

ــ أهذه طريقة دخول البهو؟

وكان صوته وحشيًّا كحركته، فإنه عندما أمسك ذراعي قبض عليه بوحشية حتى أني وجدت في الليل رضوضًا في المكان الذي غرس فيه أصابعه. على أنه ليست تلك الجملة السفيهة ولا ألم أصابعه التي قبضت على ذراعي، ليس هذا ولا ذاك هما اللذان تركاني ذاهلًا منقبض القلب. كلا، ليس هذا ولا ذاك، إنما الذي أذهلني وأحل الانقباض والأسى بنفسي هو قول والدتي إليه:

ــ لا تكثر من تأنيبه فهو ما يزال طفلًا وستهذب...

وبينما كانت والدتي تداعب شعري بأصابعها فاجأت في نغمة صوتها ونظرها وتبسمها الخفيف خجلًا غريبًا يكاد يكون توسلًا

لذلك الرجل الذي كان مقطب الجبين وهو يشد بحالة عصبية شواربه كأن الضجر من وجودي قد ملك عليه مشاعره.

فبأي حق سوَّل ذلك الغريب لنفسه أن يكلمني كسيد آمر وهو في منزلنا؟ لماذا رفع يده عليَّ مهما توخى في ذلك من التخفيف؟ نعم، بأي حق؟ أأنا ابنه أو تلميذه؟ ولماذا لم تقف والدتي ضده مدافعة عني؟ إذ أني حتى لو كنت مخطئًا فليس ذلك إلا نحوها هي.

لقد عراني في تلك اللحظة غضب لا حد له حتى لقد شعرت برغبة الوحش الكاسر في الانقضاض على السيد "ترموند" وتمزيق وجهه بأظافري وأن أعضه. لكني نظرت إليه وإلى والدتي بمنتهى السخط وانصرفت من الحجرة دون أن أفوه بكلمة.

كان الغضب من خلقي وهو عيب مؤلم مبعثه ما فطرت عليه من سرعة التأثر بحالة تكاد تكون مرضية. كنت مغاليًا في تأثري أحنق لأتفه الأسباب، وكان رضائي وتسامحي بعد ذلك ضربًا من التعذيب لنفسي. نعم فإن شعوري بأن أُهنت كان من القوة في نفسي بحيث لا أستطيع التغلب عليه حتى إن أبي كان فيما مضى يعاني كثيراً في الانتصار على هذا الإفراط في هذه الشاعرية المهانة، ذلك الإفراط الذي كنت أقاوم فيه جميع عوامل اللين بغضب مكظوم كان يفرج عني وفي الوقت نفسه يعذبني. كنت أعرف في نفسي هذا السقم الأدبي ولذلك كنت أخجل منه بجميع ما أوتيت من طهارة قلب طفل

شريف. كذلك كنت أعد منتهى التحقير لي أن يقول السيد "ترموند" إلى والدتي لحظة خروجي من الحجرة:

ـ أمامك ثمانية أيام حتى ينحل عنه ما هو فيه من الغضب. حقًّا إنه لخلق لا يحتمل.

كان لكلمته الأخيرة في نفسي ميزة إذ أخذت من ذلك الحين في ترويض نفسي على ألا أغضب وهي خلة من خلال شرف النفس قصدت بها إلى تكذيب ذلك الرجل. لكن هذا الحادث البسيط كان قد وصل بجرحه شعوري إلى أعماق قلبي حتى أنه بقي ثائرًا في مخيلتي فأفضيت به إلى عمتي.

وا أسفاه! لم يكذبني في أمر هذا الرجل شعوري المضاعف، ذلك الشعور الصادر عن قلب طفل شديد التأثر. فإن هذا الحادث الصبياني المؤلم كان نواة قام عليها تاريخ شبوبيتي جميعها، ورمز هذا التاريخ كراهتي التي لا تقهر للرجل الذي سيحل محل أبي وتحيز والدتي إليه تحيزًا أعمى مع أنها كان يجب أن تدافع عني أولًا وعلى الدوام. كنت أقول باكيًا لعمتي:

ـ إنه يمقتني، فبم أسأته؟ فكانت تجيبني قائلة:

ـ هدئ نفسك! إنك لصورة من أبيك المسكين في مغالاتك بالاهتمام بأقل ما ينتابك من الآلام... ثم اجتهدْ في أن تكون معه لطيفًا إكرامًا لوالدتك ولا تخضع لعوامل الحدة هذه التي أخشى مغبتها... ثم زادت على ذلك:

ـ لا تجعل من نفسك لهذا الرجل عدوًّا.

كان من السهل المقبول أن تكلمني بهذه الصفة، لكني مع ذلك رأيت أن إلحافها منذ تلك اللحظة غريب. وكذلك لم أعلم لماذا بدا لي أنها قد تولاها الدهش من إجابتي عندما سألتني: "ما مبلغ علمك"؟ فإنها كانت تحاول تهدئتي ولكنها كانت في الوقت نفسه يزداد فزعها ازدياد فزعي من ذلك الدخيل المغتصب. نعم فقد شعرت بذلك من رعدة خفيفة بدت في صوتها حينما كانت تتكلم عن ذلك الرجل. وأخيرًا قالت لي:

ـ يجب أن تكتب الليلة إليهما.

"أن أكتب إليهما"! إن هذه الصيغة البسيطة آلمتني شديد الألم، إذ أدركت أنهما قد ارتبطا. فقلت في نفسي: "أبدًا! أبدًا! لن أستطيع منذ الآن أن أفكر في أحدهما دون أن أفكر في الآخر"، على أني سألت عمتي: "وأنت"؟ فأجابتني: "سبق أن كتبت"، فسألتها:

ـ ومتى يكون الزواج؟

فأجابتني بصوت منخفض سمعته بمشقة:

ـ قد تم بالأمس! فعدت فسألتها بعد سكوت: "وأين"؟ فأجابتني: "في الريف عند بعض من أصدقاء الطرفين"، ثم أردفت ذلك سريعًا بقولها:

ـ قد فضلا ألا تكون موجودًا تفاديًا من مضايقتك وأنت في فسحتك المدرسـية. وقـد سـافرا ليغيبـا ثلاثـة أسـابيع وسيحـضران ليريـاك في بـاريس قبـل سـفرهما إلى إيطاليا... وبما أني كما تعلم لست مستعدة الاستعداد الكافي للسفر فسأستبقيك هنـا معي حتى ذلك الحين... هيا، هيا اكتب إليهما، كن لطيفًا، كن لطيفًا.

كانت لديَّ أسئلة عديدة لأوجهها إليها ودموع غزيرة تجـيش في صـدري أود أن أسكبها، لكني مع ذلك كتمت عواطفي ولم ينقضِ ربع ساعة حتى جلـست إلى المكتب في صالون هذه العمة الشفيقة.

كم كنت شغوفًا بتلك الحجرة من الطابق الأرضي التي هي ملأى بالـذكريات! كنت أستطيع أن أرى بالقرب من المكتب صورًا معلقة عـلى الحـائط لجميـع مـن توفوا وكانوا موضع حب هذه الفتاة القديسة. كم حرّك هذا الركن المأتمي بلطـف جميع تخيلاتي!

فلقد كانت هناك صورة مصغرة ملونة لجـدتي، أم جـدي وهـي لبـاس عـصر الحكومة الاستبدادية، قصيرة القامة مرتبة الشعر. ثم هنـاك أيـضًا صـورة مـصغرة لولدها الذي هو عمي الأكبر، ما أجمل وأحب وجهه الذي تقرأ فيه العظمة وكـان من المعجبين بالملك لويس فيليب وبالمؤرخ الشهير "تيرس"!

وهناك جدي، والد أبي بمحياه القاسي تبدو عليه حداثة النعمة. ثـم صـورة أبي في جميـع أدوار حياتـه. ولأن كثـيرًا مـن هـذه الـصور التـي

أتي عليها القدم كانت مأخوذة بآلة التصوير الشمسي، كانـت ألوانهـا وقـد امّحـى نصفها تجعل من العسير تبين ملامحهـا وكانـت عـن بعـد قليـل مـن تلـك الـصور مكتبة وجدت بين ما تحوي من المجلدات كتب المكافآت التي منحها والـدي أيـام دراسته محفوظة بعناية عمتي التقية.

يا إلهي! كم كنت أشعر بالأمن والحمايـة حـول تلـك الأسـتار المـصنوعة مـن القطيفة الخضراء والتي تتخللها أشرطة من التطريز، أجمل ما صنعت يـد عمتـي، تلك الأستار التي كانت مسدلة على الأبواب مثنية أذيالها على أعقابهـا! كـم كنـت أنظـر راضـيًا إلى ذلـك البـساط ذي الألـوان الباهتـة والـذي أردت وأنـا طفـل أن أقتطـف منـه أزهـاره! إن هـذه لإحـدى حكايـات طفـولتي الأولى، إحـدى تلـك الأقاصيص التي كررت عن طفل كان موضع التعزيز وهي تشعره كـم كانـت أقـل تفـصيلات حياتـه محفوظـة ومحبوبـة... لكنـي بعـد ذلـك أصـبحت أسـمع هـذه الأقاصيص بغير اهتمام... نعم، كـم كنـت أغتـبط برؤيـة كـل ذلـك وعـلى الأخـص عمتي وهي بين تلك الأثاثات الغريبة! كم كنت أحب وجهها الذي كنـت أقـرأ فيـه الحنان المطلق وعينيها اللتين كانت نظراتهما تبعث بالطمأنينة إلى مكان خفـي مـن نفسي! كنت أشعر بها أقرب إليَّ بما كانت عليه وحدها من الشبه بأبي خصوصًا وقـد كانت في ذلك اليوم أكثر شبهًا به حتى أني قمت عدة مرات من مكاني لأقبلها وذلـك

الـذي جلـست فيـه إلى المكتـب أكتـب خطـاب التهنئـة إلى ألـدِّ عـدو لي في هـذا العالم.

وكان هذا ثاني تاريخ في حياتي بعد تاريخ الكارثة المـشئومة وكلاهـما خالـدان في صفحة تلك الحياة.

(5)

خالدان؟ نعم، كلاهما خالد ولا شيء سواهما... فإني كلما رجعت إلى صفحة الماضي اصطدمت بهما، قتل أبي وتزوجت أمي، ذكريان ناءتا بثقلهما زمنًا طويلًا على قلبي.

لسواي من الأطفال نفوس متحركة، لينة العريكة، قابلة لجميع التأثرات، ينطوون لظرفهم الحاضر فيذهبون ويجيئون متنقلين من غبطة إلى ألم ومن ألم إلى غبطة، ينسون في الليل ما يعانون في الصباح، يتغيرون إلى شكل جديد أمام كل مشهد من مشاهد حياتهم، أما أنا فلا!

تعود فتبدو تانك الذكريان بغير انقطاع في مخيلتي، تظهر لي هواجسي القائمة المستمرة في وجه الميت على وسادة سريره وعند قدميه والدتي تبكي. أو أتخيل أني أسمع عمتي تعلنني بالخبر الآخر فأعود فأتمثل وجهها كئيبًا حزينًا. ثم أعاني كما عانيت سابقًا شعوري بذينك الجرحين الداميين في نفسي واللذين يعز التئامهما. واليوم أيضًا أحاول أن أهتدي إلى نفسي، إلى أندريه كورنيليس الحقيقي المنعزل فلا أقابل ذكرى إلا وأجدها تختفي أمام ذينك الحادثين، ولا حالة من حالات شبوبيتي إلا ويشرحانها بل ويحتويان عليها احتواء الغيوم

على الصاعقة فالحريق تخريب المنازل التي تـصيبها تلـك الـصاعقة! حقًّـا، لا أكـاد أحاول الاهتداء إلى نفسي حتى أجد أن تلك الصور العديـدة التـي تحـاصر ذاكـرتي مظهرة لي ما كنت عليه خلال سني طفـولتي وشـبوبيتي الطويلـة ترجـع كلهـا إلى ذينك اليومين المشئومين اللذين لا أصطدم بغيرهما كلما رجعت إلى ذلك الماضي.

فما مثل طفولتي وشبابي وما فـيهما مـن الحـوادث إلا كمثـل مـشهد أساسـه الشؤم وأفق كئيب محزن لبلدة أشد منه حزنًا واكتئابًا!

أية صور؟ ساحة كبيرة فيها أشجار طال عليها العهد وأطفال يلعبـون مـرحين في أصيل يوم من أيام الخريـف عـلى وجـوههم علائـم الغبطـة والنعـيم، وأطفـال آخرون لا يلعبون لكنهم ينظرون أو يمشون متنزهين أو يتكئون إلى أصـول أشـجار اصـفرت ويبـست مـن كـر الـسنين وعـلى وجـوههم سـمات تـدل عـلى أن هـذه المخلوقات الصغيرة موضع الترك والإهمال.

ذلك هو فناء مدرسة "فرساي" والطلبـة الـذين يلعبـون هـم طلبـة المدرسـة الأصليون وأما الآخرون الذين هم ساكنون في عزلتهم يـسود علـيهم الخجـل فهـم الطلبة الجدد وأنا أحد هؤلاء...

لم تمضِ أربعة أسابيع عـلى تبليـغ عمتـي لي بـزواج والـدتي حتـى تغيرت حياتي تغـيرًا كليًّـا، فعنـد رجـوعي بعـد انقـضاء مـدة العطلـة المدرسية وجـدت أنـه قـد تقـرر إدخـالي كتلميـذ داخـلي لأن والـدتي

وزوجهـا اعتزمـا الـسفر إلى إيطاليـا في سـياحة سـتطول حتـى الـصيف. فهـل يستصحباني؟ لم يدر أقل بحث في ذلك لحظة. أو يتركاني كما أنا تلميـذًا خارجيًّا في مدرسة بونابرت تحت ملاحظة عمتي التي قد تقيم في باريس لهـذا الغـرض؟ قـد اقترحت والدتي ذلك ولكن زوجها رفض هذا الاقتراح بحجج معقولـة، لمـاذا يفـرض على فتاة عجوز تضحية عوائدها؟ ولما تخشى شـدة الحيـاة الداخليـة في المدرسـة، تلك الحياة التي تكوِّن الأخلاق؟

بهذين الاعتراضين قاوم زوج والدتي فكرتها وأضاف إلى تدليله قوله:

ــ ثم إنه في حاجة إلى هذه المدرسة. قال ذلك وهو ينظر إليَّ بعينـين بـاردتين كما كان ينظر إليَّ في تلك اللحظة التي فيها أنشب أصابعه بقسوة بالغة في ذراعي حينما كنت داخلًا فرحًا بما نلت من الجوائز لأقص حديث نجاحي على والدتي.

تقرر بالاختصار أن أكون تلميذًا داخليًّا ولكن ليس في مدرسـة مـن مدارس باريس إذ قال زوج والدتي لها إن الهواء فيها جـد سـيئ. فلـماذا لا أكون مدينًا له بأقل شكر على ما كان يظهر من العناية بـصحتي؟ إني لا أتنبأ مع ذلك بما سبق فأدركه ذلك الرجل الذي يريد أن يبعـدني عـن والدتي إلى الأبد مـن أنـه سـيكون مـن الـسهل عنـد عـودتهما أن أبقـى متروكًا داخليًّا في معهد خارج المدينة. فما الـذي يدفعـه إلى مثـل هـذه

التدبيرات؟ ألا يكفيه إظهار رغبته فتجيبه إليها السيدة "ترموند"؟ كم أتـألم عنـدما أسمع صوته حين يخاطبها بغير تكلف إذ يقول لها: "أنت" كما كمان أبي يخاطبهـا! كم كنت أتألم فيرجع بي الألم إلى ذكرى والدي المسكين الذي كان يساعدني في تأدية واجباتي المدرسية عند دخولي إلى المنزل بعد أن بدأت الدراسة في معهد بونابرت.

إنما هو زوج والدتي الذي صحبني بالأمس بعد الظهر. وهو الـذي قـدمني إلى الرئيس وهو رجل طويل نحيل أصلع تبـدو عليـه البـساطة. داعـب هـذا الـرئيس خدي قائلًا لي:

ــ آه! إنه آت من معهد بونابرت... معهـد المتـأنقين... في مـساء اليـوم نفـسه شغفت باستطلاع معنى هذه الكلمة في المعجم فوجدت أن تفسيرها: "شاب كثـير العناية بهندامه وزينته...".

وفي الحق أني بما كنت مرتـديًا مـن الملابـس الغاليـة الأنيقـة التـي أوحـى إلى والدتي غرامُها بإتقانها, كياقتي الكبـيرة البيـضاء وحـذائي الإنجليـزي وردائي المـتقن التفصيل، كنت أختلف بكل ذلك جد الاختلاف عن أولئك الأشقياء الذين سـأعيش بيـنهم، أولئـك الأشـقياء الـذي تـرى خويـداتهم مـشوهة وأغلـب أزرار ملابـسهم مقطعـة، وجـواربهم الزرقـاء مـسدله عـلى أحـذيتهم المثنـاة الكعـوب وتحـت تلك الأردية يتمون استهلاك الملابس الداخليـة التـي تخلفـت عنـدهم مـن العـام الماضي.

نظر إليَّ كثير منهم منذ أول فسحة في هذا اليوم الأول لوجودي بيـنهم نظـرة الشغف باستطلاع أمري حتى أن أحدهم سألني: ما مهنة أبيك؟ فلم أجبه. إن مـا أخشاه بقلق عتيد هو أن يوجه إليَّ هذا السؤال. كـم وددت بـالأمس حيـنما كـان القطار يسير بنا في طريق فرسـاي، زوج والـدتي وأنـا، حيـث لم نتبـادل كلمـة، كـم وددت أن أفضي إليه بخشيتي هذه وأن أتضرع إليه ألا يرمي بي في وسـط أطفـال آخرين غير زملائي فيعرضني إلى وحشيتهم الطائـشة! كـم وددت ذلـك وأن أعـده مقابله بأني إذا بقيت في المنزل أشتغل بأكثر عناية واجتهـادًا مـما كنـت عليـه فـما مضى! لكني حيال مـا كـان يـسلط عـليَّ مـن نظراتـه الحـادة كنـت في حاجـة إلى مجهودات عظمى حتى أستطيع، عندما أتقدم إليه بهذه الكلمات، بهـذه المقـاطع الصبيانية، أن أكلمه بكلمة "يا والدي" التـي لا أقولهـا مـرة وأنـا متجـه الفكـر إلى الآخر، إلى ذلك النـائم ولا سـبيل إلى إيقاظـه، إلى ذلـك الثـاوي إلى الأبـد في مقـبرة "كومبيني"! فلم أتوسل إلى السيد "ترموند" مؤثرًا الحبس في تلك المدرسـة دون أن أفوه بكلمة أسف لأني أفضل أن أكون ضالًّا بين المواطن الأجنبية عن مولدي عـلى أن أتوسل إليه برجاء أو أتقدم إليه بشكوى.

لا بد لوالدتي من المجيء غدًا وتحـدثي إليهـا وهـو قريـب سـيخفف عنـي ألم الفراق على أن تكون وحيدة لا بصحبة زوجها. لكنها قد أتت وكان معها! وفي بهـو الاستقبال الذي تزينـه صـور فظيعـة لأطفـال نـالوا جـوائز الـشرف في الامتحانـات العامة جلست أمي!

كان رفاقي يتحدثون كذلك إلى أمهاتهم. ولكن أية تلك الأمهات كانـت أجـدر بالحب من والدتي؟ كانت والدتي بما هي عليه من الرشاقة وجمال القامـة ولطافـة العنق طويلة بعض الشيء نجلاء العينين ترتسم على محياها ابتسامات عذبـة، قـد بدت لي مرة أخرى رائعة الجمال. فلم أستطع أن أكاشفها بشيء لأن زوجها "جاك" كما كانت تتعسف في تسميته _وإن كان هذا التصغير في الاسم يدل في الإنجليزية على اسم آخر_ لأن هذا الرجل كان في هذه المرة أيضًا حائلًا بيننا.

أفٍّ لهذه الكراهية التي تشل قوة المشاعر القلبية! هل عرفـتُ تمـام المعرفـة إذ ذاك وبعده تلك الكراهية؟ أظنني لمحـت مـن والـدتي أنهـا كانـت دهـشة بـل تقريبًا مكتئبة لبرودي في تلـك الدقيقـة في تـوديعهما. فهـلا كـان عليهـا أن تـدرك أني لن أستطيع أن أظهر إليها مـا يكنـه قلبـي نحوهـا مـن الحـب والحنـان أمـام ذلك الرجل؟ ومع كلٍّ فقد سافرت ولا زالت في نزهتها وسـياحتها أمـا أنـا فبقيـت وحيدًا.

هناك صور أخرى تنتصب أمامي فتريني حجرة المذاكرة أثنـاء الليـل في ذلـك الشتاء الأول لحبـسي فالمـدفأة المـصنوعة مـن الزهـر تـذكو نيرانهـا في وسـط تلـك الغرفة المضاءة بالغاز وعليها غطاء مبلـل بالمـاء خـشية أن تـؤلم رؤوسـنا حرارتهـا. وبطول الحوائط أدراجنا وخلف كل منا خزانـة لكتبـه وأوراقـه. وهنـاك الـسكون العميق الذي يخيم على القاعة الكبرى فلا نسمع خلالـه إلا حفيـف الأوراق عنـد

تقليبها وصرير الأقلام وسعالًا مكتومًا. ويرى الأسـتاذ "رودلـف سـوربل" جالـسًا في صدر القاعة على منبر عالٍ وهو شاعر. فقد وجدنا في اليوم السابق ورقة سـقطت من جيبه مملوءة بالشطب والتصحيح أمكننا أن نقرأ فيها بمشقة أبياتًا من الشعر لذيذة. سررنا بها غاية السرور نحن الطلبة المتوحشين الصغار حتى أننـا كنـا نـترنم بها بغير انقطاع في قاة النوم وفي فناء المدرسة وأثناء الفسحة بين ساعات الدروس. ولم نكن نستطيع عصيان هذا الأستاذ الذي كان لأقل هفـوة يحـرم مـن هفـا مـن التمتع بالفسحة بين الدروس فهو أشبه لقسوته بالكلب الحارس وكان معلقًا فوق رأسه مصباح يظهر شعره الذي وخطه الشيب وجبينه الأحمر ومعطفه الذي كـان أزرق فأصبح الآن مائلًا إلى البياض لكر الزمن وكـثرة الاسـتعمال. إنـه منكـب عـلى صياغة الشعر لأننا نراه يكتب ويمحو وفي خلال ذلك يرفع هذا الجبين الذي تنتفخ شرايينه فتخترق القاعة وصفوف الأراج عيناه الكبيرتان الزرقاوان اللتان تدلان على طيبة حقيقية عندما لا نسخطه بمعاكساتنا.

كنت أنا أيضًا أنظر إلى هؤلاء الزملاء في مهد هذه العبودية حتى بدأت أتعرفهم بعد أن رسخت في ذهني ملامح وجوههم، فمنهم "روكان" وهو ضيئل الجسم ذو أنف أحمر بالغ في الكبر في وجه طويل شاحب، و"باريزل" وهو ضخم الجسم بارز الفك أضر العينين في وجهه بقع من النمش وقد أكل جعلًا في مراهنة أثناء الصيف الماضي، و"جيرفيس" وهو أشقر مجعد الشعر من عادته أن يكتب

وصيته كل أسبوع. وقد أرسل لي آخر مؤلفاته الصبيانية فقرأت فيه هذا الشرط: "إني أورِّث "ليبرلو"، صديقه القديم، نصب له في الخريف الأخير كمينًا بواسطة "باريزل" الذي استدرجه بوحي منه حتى جعله يسير على طبقة من أوراق الأشجار الجافة فوق حفرة فسقط فيها فأسرَّها له "جيرفيس" الذي أصبح بعد ذلك يعده شريرًا. وتلك النصيحة المخبوءة خلال سطور ذلك الخطاب هي إعلان له بألا يثق بهذا الجبار... جميع هذا العالم الصغير فريسة لمصالح صبيانية وقد ظهر لي منذ ذلك العهد أنه كما وصفت عندما قارنت أحواله بما أحفظ في ذاكرتي من الذكريات السابقة. وإنه ليبدو من هؤلاء الزملاء أنهم أدركوا أن في حياتي شيئًا لا يوجد في حياتهم ولذلك لم يضايقوني بأية محنة من تلك المحن التي اعتيد تسليطها على الطلبة الجدد. لكني ليس لي صديق من بينهم إلا "جيرفيس" الذي يصاحبني في الصيف عندما نخرج، وهو طفل سريع التخيل شغوف بمطالعة مجلة تسمى مجلة "كل شيء" وقد وجد فيها روايات تنشر تباعًا منها "الرجل ذو الوجه الشمعي" و"ملك البحار" و"قط الشاطئ" وكان يقرؤها لي يوم العطلة وهو يوم الخميس من كل أسبوع. ولقد كنت أُقبل بشغف على استماع هذه الأقاصيص لأن ينبوع تخيلاتي كان يدفعني إلى التلذذ بها إذ أجد الجريمة فيها تقوم بتمثيل أعظم الأدوار أهمية. ولقد كان من سوء حظي أن تحدثت إلى عمتي التقية عن هذه التسلية المفسدة فنشأ عن ذلك أن فصل الرئيس الكاتب القائم بطبع هذه الأقاصيص لجهله

بعقلية قرائه من الطلبة وبمبلغ ما ينجم عنها من تسميم عقولهم. وعلى أثر ذلك منعنا أنا و"جيرفيس" من التنزه معًا لأن عمتي "لويزه" ظنت أنها بهذا المنع تهدئ ثوران ما في نفسي من سرعة التأثر, تلك السرعة التي كانت تخيفها.

مسكينة أيتها المرأة! ليس توسلها إليَّ ومبعثه حنانها، ولا اعتناؤها التقي ودافعها إليه بعد نظرها، ولا حضورها من "كومبيني" إلى "فرساي" في أيام الآحاد لتخرجني فأتنزه بصحبتها وتحت إشرافها، ولا إخلاصي في تأدية عملي ومضاعفتي لمجهوداتي حتى لا ينتصر زوج أمي إذا ساءت درجاتي في المدرسة، ولا حماستي في التدين، إذ أصبحت اشد الرفاق شغفًا بالكنيسة كلا، ليس شيء من هذا بمهدئ ذلك الشيطان الخفي الذي استولى على نفسي فأتلفها.

أثناء مذاكرتي الليلية وأوقات الراحة كنت أعود فأقرأ خطابًا يحمل مظروفه طابع بريد مرسوم عليه تمثال الملك "فيكتور عمانوئيل". إن في هذه الصفحات التي توافيني بها والدتي أسبوعيًّا غذاء لنفسي لأنها تنبئني بتفصيلات عديدة عن سياحتها قلما كنت أفهمها. على أني كنت أدرك أنها سعيدة بدوني، سعيدة مع كونها بعيدة عني. ومعنى ذلك أن ذكرى والدي ووفاته الخفية لا تخالج رأسها! معنى ذلك، على الأخص، أنها تحب زوجها الجديد! يا لشدة غيرتي! يا لها من غيرة شنيعة سامة استولت على نفسي! إن مخيلتي بنقائصها الغريبة، بما

تتعلق به من الأمور التافهة، تريني والدتي في حجرة من نزل وأمامها على المنضدة تلك الهدية التي أهداها بها والدي من معدات الزينة والسفر! وهـي مـن الفـضة عليها الحرف الأول من اسمه ولقبه كاملًا والحرف الأول مـن اسـمها متعانقًـا مـع هذا اللقب: "ماري ك." أليس من حقها أن تغير الظروف من حياتهـا؟ لمـاذا تنكـر ماضيها؟ ولماذا يؤلمني جد الألم خلطها ماضـيها بحاضرهـا؟ بـل بمـاذا يـضيرني هـذا حتى أني لشدة ما بي من الألم لم أستطع وأنا في حجـرة النـوم ملقًـى عـلى سريـري الحديدي الضيق أن أغمض جفني؟

كم كانت تبدو لي طويلة تلك الليالي عندما كنت أنام وفي نفسي هـذه المـشاعر وكم كنت أقاوم عبثًا عقلي فأفنيه في وهدة النعاس اللذيـذة! كنـت أسـتمنح اللـــه هذا النعاس بجميع ما أوتيت من قـوى الطفـل في التقـوى والإيمـان، كنـت أقـرأ في نفسي اثنتي عشرة صلاة فلا يزداد الكرى إلا هجرًا لأجفاني. فكنت أحاول أن أختلـق لنفسي خيالًا مستعينًا بقدرة غريبة كنت أشعر أني حاصل عليهـا. فقـد شـعرت مـرة وأنا طفل صغير بألم شديد في أسناني فأقفلت عيني وأرجعت نفـسي إليهـا وأكرهـت فكري على أن يستحضر أمامه واقعة سعيدة كنت أنـا بطلهـا فاسـتطعت بـذلك أن أحوِّل شعوري إلى وجهة أخرى ومن ثم لم أعد افكر في ألمي وقد اعتـدت منـذ ذلـك الحين اتباع تلك الوسيلة التي نجحت دائمًا تقريبًا وأصـبحت أسـتطيع التغلـب عـلى كل ألم. لكني عبثًا ألتجئ الآن إليهـا كلـما كـان مـا يـساور رأسي خاصًّـا بوالـدتي لأني

كلما حاولت أن أستعرض أمام مخيلتي منظرًا أهنئ نفسي بـه لا يظهـر أمـامي إلا ذلك المنظر الآخر المؤلم، منظر الود والمحبة من الكـائن الـذي أحبـه أكـثر مـن أي شيء إلى الرجل الذي أمقته أكثر مما أمقت سواه أني أمقته حقًّا وبوحشية دون أن أستطيع أن أستند إلى شيء سـوى اسـتيلائه عـلى مـا لي مـن المكـان الأول في ذلـك القلب الذي هو لي دون سواي. وما يكاد هذا المنظر يثور في مخيلتي حتى يقـضي عليَّ بالأرق، فأسمع وقع أقدام العجوز "سوربل" وهو يمشي في غرفة النوم المضاءة بصفة محزنة ببضعة قناديل. حتى يدخل في حجرتـه التـي يـشغلها في آخـر غـرف النوم. ما أشد كآبة صـفي أسرَّتنـا الكئيبـة بأكرهـا النحاسـية التـي تلمـع في الظـل وغطيط النائمين، ذلك الغطيط الشنيع!

وكان الحارس يمر بين كل لحظـة وأخـرى وهـو جنـدي قـديم عـريض الوجـه غلـيظ الـشاربين أسـودهما غـارق العنـق في معطـف مـن الجـوخ الأسـمر يحمـل مصباحًا ينير ولا يرى. ألا يخاف وهـو يمـر وحيـدًا في الليـل خـلال سلالم المدرسـة الحجرية التـي تغـور فيهـا الريـاح وتتغلغـل بهزيمهـا المخيـف؟ كـم أمقـت نـزول درجات هذه السلالم خلال تلك الظلمات المرعبة خشية أن أصادف شيطانًا!

ثم إني أطرد هذه الخاطرة الجديدة ولكن عبثًـا أيـضًا، ثـم أفكـر: "أيـن ذلـك الـذي قتـل أبي؟ وهـل ارتعـادي عنـدما أفكـر في هـذا ناشـئ عـن فـزع أو عـن استفظاع"؟

ثم يساور فكري: "أيعلم هو أني هنا"؟ ثم يطير هذا الفزع صـوابي فأتـساءل: "هل قد يتنكر هذا القاتل في شكل تلميذ ليقتلني أنا الآخر"؟ ثم أسـلم نفـسي إلى الـلـه وعلى هذه الأفكار والتخيلات الفظيعة أنام متأخرًا فأسـتيقظ فجـأة مرتجفًـا في الساعة الخامـسة والنـصف صـباحًا متعـب الـرأس متـوتر الأعـصاب مـضطرب النفس مصابًا بمرض لا يشفى.

(6)

صور أخرى. مضت ثلاث سنين منذ تلك الليلة التي فيها حملتنا عربة أجرة حيث أنزلتنا، زوج أمي وأنا، في زاوية من زوايا أحد شوارع فرساي القديمة التي يزيد في كآبتها سور المدرسة. فلقد كان عليَّ أن أمضي في هذه المدرسة عشرة أشهر فقط وهي المدة التي تمضيها والدتي في إيطاليا.

كانت تلك الليالي من ليالي خريف عام 1866 ها نحن أولاء في شتاء عام 1870 ولا زلت داخليًّا بهذه المدرسة بحجة جودة الهواء وانكبابي على دروسي باجتهاد وهو السببان اللذان تذرعت بهما والدتي لكيلا ترجعني عندها! ولا غرابة في تذرعها هذا لأنها من السذاجة وحسن النية بحيث تؤمن بوحي السيد "ترموند" فتقوله وتكرره. ومع ذلك أما استشارتني؟ أما استشارتني فأجبتها أنا أيضًا بأني قد أفضل أن أكون داخليًّا بالمدرسة؟

قد أبانت لي تجربة بضع أسابيع من العطلة المدرسية عند رجوعهما من سياحتهما أنه قد يدمي قلبي كثيرًا أن أراها تحب زوجها هذا الحب. لأن عينيَّ الحادتين بصفتي طفلًا غيورًا قوي الذاكرة تفاجئنان كثيرًا من دلائل هذا الحب، فهي تضع كالسابق يديها

الناعمتين على رأسي لتداعبني لكن هذا التلطف لم يعد طريفًا عندي منذ لمع خاتم زواجها الثاني في أحد أصابعها خصوصًا وقد جاء يوم أصبح فيه هذا الخاتم الوحيد الذي تحمله.

لمَّا كان والدي يقترب منها ليقبلها كانت أول حركة تصدر منها أن تبعده بذراعها أو تحوِّل وجهها عنه، أمَّا الآن فما أشد خضوعها وانقيادها! تضع رأسها على كتف السيد ترموند فيحيطه بذراعيه، دون أن تتمنع، ذلك القد الذي احتفظت به أغيد فيضع قبلة على ذلك الجبين الذي لا يتحول، ذلك الجبين الذي تحيط به خصل الشعر المرتبة بدلًا من تلك العصابة التي كانت تروق لأبي!

في كل دالة لها مع هذا الغريب تعذيب لنفسي فماذا كانت تفكر هي من جهة هذه الخواطر التي تمر بمخيلتي، وهذه المشاعر التي سكنت فؤادي؟

كنا اعتزمنا الخروج في أصيل يوم للتنزه طول المدة الأولى من العطلة المدرسية ولم تكن الخادم موجودة فرأيت السيد "ترموند" يزرر لها حذاءها، رأيته وقد أمسك رجلها بعد أن خلع حذاءها وكان صغيرًا مكشوفًا ووضع بشكل صبياني قبلة على هذه الرجل التي يكسوها جورب من الحرير بنفسجي اللون. فتولاني أقصى أنواع الغيظ من هذا المشهد التافه حتى أني لأفضل المدرسة التي لا تذكرني على الأقل بهذا الزواج الثاني موضع مقتي ولا بوالدي المسكين الذي محيت ذكراه محوًا من قلبها وكنت أتمنى أن تحيا!

فأجبت في الحال بالإيجاب تحقيقًا لرغبة زوج والـدتي وارتـضيت الانتظـام في سلك الطلبة الداخليين. لماذا إذن تعود فتثور في مخيلتي ذكرى هذا الـشتاء، شـتاء عام 1869ـ 1870؟ ليس هذا لأنه يميزه أقل حـادث جديـد ولكـن لأن لـدي أمـام عيني صورة من نفسي قد عملت في هـذا التـاريخ أجـد فيهـا عنـدما أراهـا أقـوى الآثار حياة مما كنت عليه فيه.

أتراءى لنفسي كأنما أنا طيف هذا العهد بـرأسي المقـصوص الـشعر ونحـوفتي نحوفة طفل كبر كثيراً. كان ذلك العهد عهد محادثات تخطت قيود الحريـة حتـى كادت تبلغ الإباحية، عهد مطالعات مشوشة ليس للتفكير فيها أقل قسط، عهد ذلك الإلحاد الباكر المهين. وفي الوقت نفسه تتراءى أمامي وجوه رفاقي في ظـلام ذلك الماضي البعيد، فأتمثل "روكان" أشد شحوبًا مما كـان، بأنفـه الأحمـر، أنـف ممثل كوميدي، مغنيًا أغنية القهـاوي مـدخنًا لفافـات التبـغ في بـؤر ينـدى لهـا الجبين خجلًا عند ذكرها، عاكفًا على جمـع صـور الممـثلات... و"جـرفيس" ذلـك الأشقر، أجعد الشعر في شغفه بالسباق يلعب رابحًا وقـد تـصالح معـه "لييرلـو" "المنـتفش" كـما نـسميه، فعـداه بخلتـه الـسيئة. وهـم عاكفـان عـلى اصـطياد الحشرات والديدان والسلاحف. ولم يقفا عند هذا الحد بل اخترعا طريقة رهان اشترك فيها كثير من الطلبة تنحصر في أن توضع أمام معجـم قطـع مـن الورقـة عديدة كتب على كل واحدة اسم حصان ثم يفتح المعجم ويقفل بشدة فقطعة الورق التي يقذف بها الهواء الصادر عن فتحه وإقفاله إلى أبعـد تـربح الجـائزة

ويتقاسم المتراهنون رأس مال اللعب. أما "باريزل" الهائل فقد كبر أيضًا وفي سن السادسة عشرة ظهرت لحيته وأصبح وله خليلات وقد تركه القيم عليه ذات يوم ضالًّا في المتنزه فتعرف ببضعة من الضباط جروه إلى ماخور أرانا طريقه عند ذهابنا إلى المتنزه، ووصفه وصفًا دقيقًا بنوافذه الخشنة وبهوه وما حوى من نساء خليعات بما يرتدين من ملابس كملابس الأطفال وأقمصة بالغة في القصر وبما بأرجلهن من جواربة ملونة وأحذية عالية أزرارها مذهبة، كما وصف لنا ما يحويه هذا الماخور من الغوغاء والسرور وأولئك الجنود الذين يحتسون الخمور بين واقف وجالس وقد علقوا سيوفهم وقبعاتهم على الحوائط وكذلك السلالم وما يسمع فيها من ضوضاء أحذية النازلين الخشنة!

أما أنا فقد اتخذت لي صديقًا جديدًا هو "جوزيف ديديو" الذي توصلت بصداقتي معه إلى حفظ كثير من أشعار "ألفريد موسيه" الذي شغفنا به غاية الشغف. وذلك أن لنا زميلًا بالفصل اسمه "سل" وهو ابن كتبي وكان بليدًا جدًّا كالكركدن بحيث لا يستطيع كتابة واجاباته المنزلية. فاتفق مع "ديديو" اتفاقًا غريبًا، هو أن يكتب له واجباته والأشعار اللاتينية وفي مقابل ذلك ينقل له "سل" أشعارًا من "موسيه". وبهذه الوسيلة يمكننا الحصول على قصيدة "رولا" وعكفنا بشغف وحماس بلغا بنا حد الجنون على استظهارها حتى حفظناها عن ظهر قلب ولم تقف عند هذا الحد بل اتخذنا من أبيات الإلحاد

والفجور التي احتوت عليها تلك القصيدة أغاني وأناشيد نترنم بها ونذيعها بين طلبة المدرسة الذين هم من الرجس الأخلاقي على ما هم فيه جميع طلبة المدارس الداخلية اللادينية. وبذلك أصبحنا مرتابين في الدين كارهين لبني الإنسان لأننا نلعب بالإلحاد الذي لا يشفي كما يلعب "بايزل" و"روكان" بالفسق وكما شغف "جيرفيس" بالألعاب الرياضية وآخرون بالمسائل السياسية وغيرهم بمسائل الحب أما الأب "سوربل" فلأنه طُرد من المدرسة نشر رسالة قدح وقعها بإمضاء مستعار هو "لبروس" سمى فيها رئيس المدرسة باسم "بفتيك" سخرية منه. ولا عجب فإن النظام الغريب المتبع في هذه المدارس الداخلية اللادينية الرحبة لا يحقق فكرة إعداد الأبناء لأن يكونوا رجالًا في جبهة الجيوش فرحين مستبسلين في الدفاع عن أوطانهم مضحين في سبيلها بحياتهم لأن اليفعة في تلك المدارس إنما يُفسدون لسوء ذلك النظام سني طفولتهم الطاهرة البريئة بانغماسهم قبل الأوان في شهواتهم، تلك الشهوات التي سيأتي يوم يتولاهم بسببها أفظع الآلام. أما أنا فلسوء حظي قد انتهى زمن اللعب قبل الأوان بالنسبة إليَّ. أقول لسوء حظي لأن هذه المدرسة على ما فيها من مفاسد أخلاقية كانت الملجأ الوحيد الذي كنت أشعر وأنا فيه أني حقًّا في منزلي! نعم، هذه المدرسة المشئومة بما احتوت من باحات قاحلة وغرف دراسة مقفلة وقاعة طعام مسممة بما ينبعث في جوها من روائح أواني المائدة وغرف الدروس المشوهة الأدراج

بأسنة المطاوي وغرف نومها ذات المغاسل التي لا تؤمن من الوجهة الصحية، هذه المدرسة المكتئبة الموبوءة كانت خير ملجأ لي. حقًّا، كان هذا الليمان الذي هو قطعة من ثكنة أو مستشفى أحب إليّ لأني لم أكن أصادف فيه على الأقل البرهان العتيد على كارثتي المضاعفة. فقد كنت أتمدد فيه على فراشي في سذاجة سني السابعة فأنقطع عن تنويم نفسي تنويمًا اصطناعيًّا لشدة سلطان تلك الفكرة الثابتة في مخيلتي عن قاتل أبي الذي يجب اكتشافه وعن زوج أمي الذي يجب احتقاره.

لذلك كانت أيام العطلة التي أبارح فيها المدرسة أيام عذاب قد تخيفني من حلول اليوم الذي سينقضي فيه عهدي بالدراسة لولا أني سأضع يدي على ثروتي غداة اليوم الذي أنال فيه شهادتي الدراسية وقد أستطيع إذ ذاك أن أنذر نفسي إلى البحث الوحيد الذي يجب أن يكون أسمى غرض لي في الحياة، فقد كنت أقسمت أن أصل بنفسي إلى القبض على ذلك القاتل الخفي الذي عجزت العدالة عن اكتشافه. وكنت آنس فيَّ هذا العزم الذي كنت أسرّه في أعماق نفسي، قوة أدبية خارقة. على أن ذلك لم يكن ليحميني من التألم لسفاسف كانت تساورني وكانت دلائل في نفسي بأني يتيم يتمًا مضاعفًا... ما أشد ما ينتابني من العذاب كلما تجددت في مخيلتي ذكريات أيام العطلة المدرسية! عندما كان الخادم المكلف باستصحابي إلى والدتي يحضر ليأخذني من المدرسة في أيام الآحاد حوالي الساعة

الثامنة، كنت أتحقق من استهتاره بي أني لست قط ابن المنـزل، ذلـك الابـن الـذي ترضيه عبودية الخدم فإن هذا الخادم المتوحش المسمى "فرانسوا" بوجهه الحليق ونظراته الوقحـة لم يكـن يرفـع قبعتـه احترامًـا لي عنـدما كنـت أوافيـه في حجـرة المدرسة حيث ينتظرني. وكان في بعض الأحيان وعـلى الأخـص عنـدما يـسوء الجـو يسمح لنفسه بالتذمر. ليس هذا فقط بل وكان يذكي غليونه في عربة القطـار دون أن يستأذنني ولا أن يحسب حسابًا لما يسببه لي الدخان مـن الـصداع والانقبـاض. ومع ذلك فقد كنت أفضل الموت على أن ألفتـه أو أبـدي لـه أقـل ملاحظـة، فقـد حصل مرة أن شكوت من خادم حجرة زوج والدتي وهو رجل خليع فـبرروا خطتـه ولم يأبهوا بشكايتي فقررت من ذلك الحين ألا أعرض نفسي قط لمثـل هـذا الخـزي وإن تألمت كثيرًا والتألم ظلمًا يعلم الإنسان الاحتقار والمقت...

وكان القطار يسير بنا دون أن أفوه إلا بالنذر من الكلمات مـع هـذا الأخـرق السمج.

لا أنكر أني متعجرف جاف ولكني وقد فطرت منذ الطفولة على الحرَد أحـب ألا أكون موضع حب من لا أحب...

خلال هذا السكون وغيوم الدخان التي كان ينشرها في جو العربـة ذلك السمج كنا نـصل إلى محطـة "مونبارنـاس". فـلا أجـد تلـك العربـة التي كانت تنتظـرني في حيـاة أبي. فكنـا نـذهب سـائرين عـلى الأقـدام

حتى نصل إلى شارع "لا تور موبور" مخترقين طرقًا مملوءة بالخرائب والأطلال وملاجئ العجزة ومحال بيع الأشياء القديمة. كذلك كنا نمر بحذاء كنيسة "سان فرانسوا جرافييه" ذات البرجين الشنيعين ثم نخترق ميدان "ألانفاليد" حتى نصل إلى منزلنا. إني أمقت هذا المنزل كما أمقت حارسه الذي هو صورة أخرى من السيد "ترموند" بوجهه الطويل الذي أقرأ فيه حقدًا ليس إلا استهتارًا كاملًا بي. حقًّا، ينقلب كل شيء في نظري إلى حقد سواءً في ذلك المنزل ووجوه الخدم حتى الحجرة التي خصصت لي فقد سلبني السيد "ترموند" حجرتي السابقة الجميلة التي تنتشر داخلها أشعة الشمس الساطعة، والتي تشرف نوافذها على الحديقة وبابها على حجرة والدتي، وبذلك أصبحت أشغل حجرة أخرى ضيقة لا تشرف إلا على معمل أخشاب. فعندما كنت أصل إلى المنزل في صبيحة أيام الآحاد كان عليَّ أن أصعد حالًا إلى هذه الحجرة فأبقى بها حتى تستيقظ والدتي وتوافيني. فلما أجد أنهم لم يكلفوا أنفسهم ولا مؤونة تدفئتها أطلب منهم ذلك، وبينما يجلس الخادم القرفصاء لينفخ على حزم الأحطاب أجلس أنا فيقع نظري على صورة أبي وقد نفيت إلى حجرتي بعد أن أقامت زمنًا طويلًا على حمالة مغطاة بالجوخ الأسود في بهو والدتي الصغير.

إذ ذاك تختلط رائحة الخشب الرطب الذي يلتهب حادًّا لاذعًا برائحة هذه الحجرة التي لم يجدد هواؤها منذ الأسبوع الماضي، فأتحمل في هذه الحجرة عناء البقاء بضع دقائق كارهًا.

كـم تـؤلمني هـذه المـضايقات الحقـيرة فأشـعر بـالإهمال الأدبي الـذي أصـبح نصيبي بينما أجد أن والدتي على قيد الحياة وأنها تعيش عـلى مقربـة منـي. ومـع ذلك فهي تحبني!

إني في هذه اللحظة التي ألقي فيها نظرة جلية على تلـك الـشبوبية التاعـسة أعترف أن سوء التفاهم قد داخلني بأكبر قسط حيال هذه الأم المسكينة.

نعم، كانت تحبني ولكنها في الوقت نفـسه تحـب زوجهـا فكـان عـليَّ أنـا أن أشرح لها ما كانت تسبب لي من ألم بجمعهـا حبـين في قلبهـا، بـضمها عـاطفتين في فؤادها.

إنها لو فهمت مشاعري لوفرت عليَّ أحزاني البسيطة الصامتة التي انتهت بأن جعلت كل تفاهم بيننا مستحيلًا.

فـإني عنـدما كنـت أجـدها في أيـام الآحـاد حـوالي الـساعة الحاديـة عـشرة قبل تناول الطعام كنت ألاحـظ أنهـا تنتظـر منـي أن ألقـي بنفـسي بـشغف بـين أحضانها. لكن كيف كان يتسنى لها أن تعرف أن وجود الخـصم كـان يـشل إرادتي كما شل هذه الإرادة من قبـل حيـنما ودعنـا بعـضنا، أنـا وهـي، عنـد سـفرها إلى إيطاليا؟ حقًّا، كان من أشد الأسرار غموضًا لـديها انعـدام مقـدرتي انعـدامًا مطلقًـا بحيث لم أستطع أن أكشف لها عن نفسي وذلك الضعف الـذي اسـتولى عـليَّ منـذ أصبح بيننا ثالث فقد عز علينا أنا وهي أن نكون وحيدين معًـا بعـد دخـول هـذا

الدخيل في حياتنا. نعم، فقد انقطعت تقريبًا زيارتها لفرساي. ولم تكن تحضر إلا مرة في الأسبوع يوم الأربعاء. وما حضرت لزيارتي مرة إلا وكان هذا الرجل معها. ولم أكن أكتب لها خطابًا إلا وتطلعه عليه كما تفعل بالخطابات الأخرى. كنت أعرف عادتها وأنها لا بد قائلة له: "أرسل لي أندريه خطابًا" ثم تقدم له ذلك الخطاب الذي لم أكن أستطيع أن أسطر فيه كلمة صادقة، حارة، مطمئنة ليقيني الثابت بأن نظراته ستجول فيه فتقرأ ما أكتب. كم من خطابات مزقتُ كنت أحاول فيها أن أقص على والدتي تفصيلات ما أنا نهب له من الاضطرابات الفظيعة! نعم، كان حقًّا عليَّ أن أكشف لها بالرغم من ذلك عما يكنه فؤادي وأن أشرح لها ما أنا تحت إصره من فظيع الشكوك والاضطرابات النفسانية، كان يجب أن أعترف لها بآلامي، بغيرتي الجنونية، بكآبتي البالغة، باحتياجي إلى أن أتلمس في زاوية من فكرها أو في ناحية من قلبها ملجأ لي دون سواي أو عاطفة من عواطف شفقتها... لكني لم أكن أجرؤ. ولقد شاء القدر مرة أن أردت مدفوعًا بفطرتي أن أسبر غور الألم الذي قد أسببه لها إذا كاشفتها بكل هذا لكني وجدت نفسي غير قادر على احتمال تعذيبها بهذا الألم. فإن الاضطرابات المتباينة التي تعذب قلبي قد أوصلتني إلى استكناه صمتها الموحش وضيقها الشديد اللذين كانا يستوليان عليها أمامي. فلقد كانت ككثير من الناس عاجزة عن فهم خلق يختلف عن خلقها وشاعرية مباينة لشاعريتها. كانت هنيئة في زواجها الثاني لأنها كانت

محبة محبوبة. وجدتْ في شخص السيد "ترموند" رجلًا منحته جميع ما في حياتها فمنحتني إليه ببساطة وكرم، فإني ابنها وقد بد لها، وهو طبيعي، أن من تحبه يحب ولدها أيضًا. وفي الحقيقة ألم يكن السيد "ترموند" بالنسبة إليَّ حاميًا يقظًا لا غبار عليه؟ ألم يُعن شديد العناية بأقل أمر من أمور تربيتي وتثقيفي؟ مما لا شك فيه أنه قد ألحف في إلحاقي بالمدرسة بصفة داخلية لكني كنت أنا أيضًا من هذا الرأي. على أنه قد عهد بي إلى أساتذة في مختلف العلوم والفنون فدرست لعب السيف والفروسية والرقص والموسيقا واللغات الأجنبية.

نعم، قد عُني وكان دائب العناية بجميع ما يتعلق بي من الأمور جليلها وحقيرها، من هدية رأس السنة التي كان يختارها لي جميلة، إلى مرتبي الذي كان يصرفه لي كل يوم خميس، أعني مرتبي الأسبوعي كما كنا نسميه نحن الطلبة والذي كان يصل إلى أقصى حد قانوني.

لم يكن هذا الرجل يرفع قط صوته حين يكلمني مع صلفه وغطرسته. لم يحد ولا مرة عن واجب اللياقة والادب الجم معي منذ تزوج بوالدتي حتى ليقال إن امرأة محبة تجد في هذه المعاملة أعظم دليل على العطف بل على الإخلاص... فهل كان لي أن أجرؤ بعد هذا على توجيه تهم ضده؟ كلا، لم أكن لأستطيع لأن هذه التهم قد تستدعي أن أقدمها تحت ألوان قوية من الإثبات وأنا عاجز عن النطق بها بصفة جلية محددة، ولذلك كنت ألازم الصمت.

ولكن بماذا كانت والدتي تفسر هذا الـصمت الـذي كنـت ألازمـه وتعنتـي في عدم إظهار ارتياحي لزوجها وتحفظي معها، بم كانت تفسر هذه الطبـاع الغريبـة إن لم يكن بأنانيتي وجفائي؟

إنها كانت في الواقع تظنني أنانيًّا خشنًا. وأنا، بما أنا عليه من استعداد مرضي، كنت أشعر في حضرتها بأني أصبحت على ما تظن فيَّ وأنه لعل لها عـذرًا لأني كنـت أقطب أسارير وجهي وأتبرم كحيوان نفور.

ولكن لماذا لم تكن لتتفادى هي تلك المحن التـي قـد تقـضي بتوسـيع الـشقة بيننا؟ لماذا لم تكن تقصر علينا معًـا، دون أن يكـون بيننـا ذلـك الـدخيل، الخمـس دقائق التي نرى بعضنا فيها كل صباح يوم أحد فأتمكن خلالها لا من الإفضاء إليها بما يفعم قلبي فإني لا أطلب هذا الكثير ولكن لأقبلها بقدر ما كنت أبحها؟

كنت أحل هذه الحجرة التي كانت نوعًا من معمل صغير فحوَّلتها والدتي إلى بهو خاص فكنت لذلك أعلم العلم اليقين بزواياها وخباياها لأني طالما لعبت فيهـا مطلق الحرية حينما كنت السيد، حينما كنت الابن المـدلل الـذي تعـد كـل رغبـة تبدو منه أمرًا.

كان السيد "ترموند" يجلس في هذا البهـو في ثـوب الـصباح يـدخن وهو يقرأ الجرائد لم يكن يسمع سوى حفيفها حين يقلبها وغنـة صـوته حينما يرد عليَّ تحية الصباح كما لم يكن بينـي وبينـه سـوى لمـس يـده

التي لم يكن يسمح بأن يعطيني منها سوى أطراف الأصابع. وكنت في هذه الحـال أخفي عواطفي.

كانت كراهتـي إليـه بالغـة حتـى لأذكـر أني لم يـسبق لي أن تناولـت الطعـام بشهية طالما جلست إلى المائدة التي يجلس عليها لذلك كان تناول طعـام الإفطـار والغداء في أيام الآحاد على مائدة يجلـس إليهـا يبلـغ بي مـن الـضيق والاضـطراب أقصى حد.

آه! إني لأمقت كل حركة من حركاته، عينيـه الـزائغتين بعـض الـشيء واللتـين كانتا أحيانًا تتسلطان وأحيانًا تجولان في محجريهما وجبينه البارز الذي يحـيط بـه شعر تخلله الشيب قبل الأوان ووجهه الخبيـث ووضـاحة خـصاله وحركاتـه التـي كانت تتباين مع رزانة فطرتي. كنت أمقت في شخصه كل شيء حتى تقوس رجلـه في حذائه! وإنه ليبدو لي أني حتى في هذه اللحظة قد أستطيع تعرف كل رداء مـن الأردية العديدة التي كان يرتديها لكثرة ما مقت هذا الرجل في حياته!

لقـد كانـت غريـزتي تـدرك تمـام الإدراك أن هـذا الرجـل النحيـل الـسنوري الحركـات ذا الـصوت الـساحر بأرسـتقراطيته الغريزيـة والمكتـسبة كـان الـزوج الحقيقي لتلك المخلوقة الوديعة التي تعد تقريبًا رمز الجمال والعذوبـة، والتـي لم أكن قط أشبهها وأنا ابنها والتي لم يشبهها قط والـدي المـسكين، ربـاه يـا لهـا مـن مشاعر قاسية!

كم كنت وأنا متردٍ في مهاوي هذا الصمت السحيقة أتتبع بمزيد من الـشغف في أيام الآحاد وكانت كئيبة، ما كان يدور أمـامي وعـلى مـسمعي مـن المحادثـات وعلى الأخص ونحن جلوس إلى مائدتي الإفطار والغداء، وقد تغـير ميعـادهما عـما كان عليه في حياة أبي، في حجرة الطعام وقـد بـدلت أمتعتهـا كـما جـددت جميـع أمتعة المنزل! إن تغيير الأمتعـة كـان الدلالـة عـلى التبـدل الـذي طـرأ عـلى حيـاة والـدتي. لأن الـسيد "ترمونـد" وهـو ابـن سمـسار أوراق، قـد دخـل ميـدان "الدبلوماسية" فأصاب منها علاقات تختلف عظيم الاخـتلاف عـما كـان لنـا منهـا. لذلك ألقى بنفسه ومعه والدتي في أحضان تلك الجامعـة الجوالـة المختلطـة التـي أطلق عليها منذ ذلك الحين اسم "الجامعة الرشيقة" فماذا كان حظ أولئـك الـذين كانوا معتادين زيارتنا في تلك الليالي النادرة التي كان والدي يحييها بمنزلنا بـشارع "ترونشيت" نعم، ماذا كان حظ أولئـك، ولم يكونـوا يتجـاوزون ثلاثـة أشـخاص أو أربعة لا أكثر، وكانوا يجلسون إلى مائدة الطعام معنا وهم بـين سـيدات مرتـديات ملابس طويلة ورجـال مرتـدين ملابـسهم الرسـمية؟ كـانوا يتحـدثون في الـسياسة والأعمال وبينهم وزير قديم من وزراء الملك "لويس فيليـب" دخـل بعـد ذلـك في المحاماة، كان يعد الوحي الذي يستوحون منـه آراءهـم. فكـانوا إذ ذاك يتنـاولون الطعام في الساعة السادسة والنصف بدلًا مـن الـساعة الـسابعة لأن ذلـك الـوزير كان ينسحب في الساعة العاشرة تمامًا. وكانت تعد في عرف ذلك المجتمع الحـضري البسيط مشاهدة التمثيل حادثًا وإحياء ليلة راقصة تذكارًا.

هذا هو ما كـان يحـصل إذ ذاك، في حيـاة أبي، أو عـلى الأقـل هكـذا تـستيقظ الذكريات في مخيلتي. أما الآن فقد انقطعت زيارة ذلك الوزير الشيخ كما انقطعـت زيارة السيدة "لارجلس" أرملة المهنـدس وكـان والـدي يتغنـى بـذكرها كنمـوذج إلى والدتي وكانت تسميها مسايرة "حماتها العجوز". حقًّا، قد مضى كل ذلـك وأصـبحت والدتي تخرج مع زوجها كل مساء كـما أصـبح لهـما عربـات عديـدة بـدلًا مـن تلـك العربة المقفلة التي كانت بها قانعة زوجُ المحـامي الـشهير. وقـد أصـبحتُ لا أرى في الرجال الذين يحـضرون بعـد تنـاول الطعـام وفي النـساء الـلاتي كنـت أصـادفهن في الساعة العاشرة عند والدتي إلا وجوهًا عليها نضرة الـشباب والمـرح! ولم أعـد أسـمع إلا أحاديـث التـسلية والـسرور والروايـات الكوميديـة الجديـدة والمـراقص المقنعـة والسباق والزينة. ووالـدي وقـد أشرب أفكـار الحكومـة الملوكيـة مثـل وزيـر مـولاه القديم كان يتغنى بجد بذكر النظام الملكي. أما الآن فقد أصبحت والـدتي تـدعى إلى الحفلات الكبرى التي تقام في حديقة "التويليري" احتفالًا بذكرى الجمهورية. فكيـف أجرؤ إذن على التحدث إليها بأحاديث حيـاتي الـشقية في المدرسـة، تلـك الأحاديـث التي كنت أراها حقيرة حيال ما هي فيه من بهجة الحياة ونعيمها؟

كنت أقص عليها فيا مضى، أيـام دراسـتي بمدرسـة بونـابرت، بمزيـد الدقة أبسط الأحوال وحركات رفاقي. أما اليوم فقد يتولاني الخجل مـن إملالهـا بحـديث "روكـان" و"جيرفـيس" و"ليبرلـو" وغـيرهم. فقـد كـان

يلوح لي أنها قد لا تهتم قط بحادث "جوزيف" ذلك الحادث الذي كان يعد في عرفي مفجعًا والذي فضحت سره ابنة عمه "سيسيل" الخائنة التي تزوجت صيدليًّا من بلدة "أفرانش" بالرغم مما أعطت من خصل الشعر ومما قبلت من طاقات الورد ومن قبلة فوجئت فيها. وقد انتقم "ديديو" لنفسه بأن كتب على مصيبته قصيدتين حض فيهما على عدم الاستسلام لشيطان الحب. نعم، كيف كان يتاح لي أن أتحدث عن هذا العالم الصغير وعن صوالحه البسيطة وأهوائه التافهة إلى امرأة تتناول طعام الغداء لدى "دوقة أركول" ومن صديقاتها الحميمات ماريشالة ومركيزتان والتي كانت الجرائد تذكر ما تقيم من حفلات؟ فقد أصبح اسم والدتي: "السيدة ترموند الجميلة" وحل هذا الاسم محل اسمها السابق الذي لا يتذكره تقريبًا سواي كما أتذكر وحدي أنها كانت أرملة السيد "كورنيليس" الذي أوسعت هذه الجرائد نفسها أعمدتها لتفصيلات آخرته المحزنة.

فهل نسيته هي أيضًا؟ أو ما زالت تتذكره؟

النسيان؟ أهذه حقًّا شريعة العالم؟

هكذا ساءلت نفسي بذلك القلب الصغير الهائج الذي لا يسمح بأحكام المشاعر وأجبت نفسي قائلًا: "كلا"! وذكرت أن هناك إنسانًا مقيمًا إقامتي على ذكرى والدي، إنسانًا لا تزال كارثة والدي المفجعة كابوسًا على قلبه، إنسانًا أستطيع أن أبثه جميع ما يخالج فكري ويتلظى

بناره، ذلك الإنسان هو عمتي الوديعة التقية التي كنت أصادف عنـدها دائمًـا مـا ألفته فيها من حنان لم يتغير.

لما كنت أذهب إلى "كومبيني" في شهر أغسطس لأقضي لديها هزيعًـا مـن أيـام عطلتي المدرسية كنت أجد كل شيء في مكانـه سـواء في منزلهـا أو في قلبهـا. وكنـت أشعر تمام الشعور أنها ما قَبِلت البقاء في علاقتها مع والدتي إلا لأن في ذلك خيرًا لي.

كم أحب عمتي "لـويزه" وأعزهـا! إنهـا كانـت تـسايرني فتـصغي إلى شـكواي بطهارة تشبه طهارة الطفولة ثم لا تلبث أن تلطف ثائرة نفسي بـل تهـدئني تمامًـا تقريبًا فكنت أعود من عندها أكثر إشفاقًا وبرًا بوالدتي بل ومقتنعًا بأني كنت عـلى ضلال في حكمي على السيد "ترموند".

على أني لم أكن أفضي إليها بحفيظتي ضد الرجـل الـذي كنـت أتهمـه بأنـه استلبني قلب أمي. فقد حـصل مـن بـادئ الأمـر أني فاجـأت عنـد هـذا الرجـل أمارات كراهية شبيهة بما تحققت في نفسي من جهته، فإني عندما كنـت أدخـل البهو فجأة بعض الشيء ويتصادف أن يكون في محادثة إما مع والدتي وإما مـع أحد أصدقائه كان ظهوري كافيًا ليصيب صـوته اضـطراب بـسيط قـد لا يدركـه سواي ولكنه لم يكن غالبًا يفوتني، أنا الذي كنت أشعر من جهة أخرى باختناق في حلقي واضطراب في شفتي وانقباض في صدري. ولولا أني ذلك اليـافع البـصير الحقود لما فكـرت في الانتفـاع بمـا لحفيظتـي وحقـدي مـن القـدرة الخارقـة في

إزعاج هذا الرجل الممقوت وغرس الاضطراب في نفسه. وكانت طريقتي تنحصر في أن أفرض عليه تلك الشاعرية الحادة بوجودي أمامه فجأة وأنا صامت أتبع حركاته بأنظاري. وبالرغم مما كان عليه من القدرة في امتلاك نفسه فإني ما سلطت عليه قط نظراتي من قلب الحجرة إلا وفي اللحظة نفسها كان هو الآخر يوجه نظراته نحوي لكن حدقتيه كانتا تتفاديان حدقتيَّ ويستمر في محادثته ثم _وكأن ذلك بالرغم منه_ يعود فينظر إليَّ فتتقابل أنظارنا فتعود تتحول عيناه حتى لقد كنت أظن من تقطب جبينه فجأة أنه على وشك أن يمنعني من تسليط نظري عليه بهذه الصفة لكنه كان لا يلبث أن يمتلك نفسه ويخفي عواطفه وأحيانًا كان يبارح الحجرة. وما كان تنازله _على ما أعلم_ عن الاشتباك معي في أقل عراك إلا بمحض اختياره لأنه رجل قوي متغطرس فُطر على الأخذ بالقوة وبالأخص على عدم احتمال التسامح مع من يقاومه أو يتحداه.

نعم، هكذا خلق هذا الرجل مستبدًّا غطريسًا يتغنى في أحاديثه عن شبوبيته بما هو عليه من قوة وبطش وبأنه عندما كان موظفًا بسفارة "مدريد" قتل ثورًا بتحريض شاب إسباني في حفلة سباق أقامها بعض الهواة. فإذا كان قد أباح لي بوقاحتي الصامتة في تسليطي نظراتي عليه فلا بد أنه آلم نفسه كثيراً بكتمانه غريزته. نعم، كان يسمح لي بهذه الوقاحة، إليَّ أنا، لكني لم أكن أعترف قط بهذا الانتصار الضئيل إلى عمتي "لويزه" لأني، ويجب عليَّ أن أبوح بكل شيء، كنت طفلًا

بائسًا وكنت أعلم عن نفسي هذا البؤس فلم أكن أحب وأنا أتحدث إليها أن أقلل من وقع هذا البؤس على نفسها بل كنت أؤثر التعالي فيه لأكتسب ما كانت تنفجر به من الميل الخالص الشفيق نحوي، ذلك الميل الذي كان يداعب قلبي وتغتبط به نفسي. كذلك كنت أتحدث إليها عن يميني التي أقسمتها، عن ذلك العهد العلني الذي قطعته على نفسي بأن أكتشف قاتل أبي وأثأر له فكانت تضع يدها على فمي. نعم كانت تضع يدها على فمي لأنها تقية، كما كانت تكرر لي كلمة الرسول: "أنا أجازي، يقول الرب".

وكانت تضيف إلى ذلك: تذكر هذه الحكم المقدسة: "سامح تسامح... ولا تقل قط عين بعين وسن بسن". اطرد كل حقد من قلبك حتى ذلك الحقد الذي تضمره. وكانت الدموع تترقرق في عينيها...!

(7)

مسكينة عمتي! كانت تظنني من صدق العزيمة بحيث لا يتولاني الوهن. ولـو كنت عند ظنها لما كانت ثمت حاجة لنصائحها التـي إنما حاولـت بهـا منعـي مـن إتلاف نفسي في سبيل الانصياع لشغف الانتقام الذي كان النجم الثابت لـشبوبيتي الأولى، بل كان المنارة الدموية اللون في ديجور حياتي!

آه! أين عزيمة الشباب، أين أقسام "هانيبال" نقطعها على أنفـسنا، أيـن ذلـك الحلم الجميل الذي وقفنا عليه قوتنا لغرض واحد لا يتزعزع!

إنمـا تعـصف الحيـاة بـذلك جميعًـا فتـذهب بـه شـذر مـذر فتبـدد تهـلـلات الحماس الساذجة والآمال النبيلة!

نعم، فإنه لم تكد تمضي ثماني سنوات بيني وكنت في عام 1870 غلامًـا في سـن الخامسة عشرة بائسًا ولكن أبيًّا وما وجدت عليه نفسي، شابًّا في عام 1878 لم تكد تمضي هذه السنوات الثمانية حتى تغيرت كل التغير وعراني كـل انحطـاط... ولـولا مصادفات كان من المستحيل التنبؤ بها لبقيت عـلى مـا كنـت عليـه ذلـك الـشاب المعلقة صورته فوق مكتبي.

لا أنكر أن الزائرين الذين نظروا إلى هذه الصورة في البهو في تلك السنة بين صور أخرى لم يدُر أنها صورة ابن لأب قتل بحالة مفجعة. على أني أتأمل فيها أنا الآخر، أتأمل في تلك الصورة المبتذلة لباريسي متبذل فأرى ذلك الوجه الذي أشحبه الإسراف في السهر في تلك الحفلات الحمقاء وأرى عينيه اللتين لا تضيء فيهما إرادة قوية وشعره المرتب على آخر زي وهندامه الجميل المحكم فأقف دهشًا، أنا نفسي، عندما أفكر أن تلك كانت حياتي إذ ذاك. ولم لا أدهش؟ ألم تنقضِ حياتي مبتذلة كدِرة كحياة أول قادم بين الكوارث الأولى التي أصابت طفولتي والكوارث الأخيرة التي آلمتني ولا زالت تؤلمني بهزاتها العنيفة؟

فلنثبت أبسط مراحل هذه الحياة:

في النصف الثاني من عام 1870 ثارت الحرب ففاجأني هجوم الجيوش في "كومبيني" حيث كنت أقضي أيام العطلة المدرسية عند عمتي. أما والدتي وزوجها فقد قضيا مدة الحصار في باريس وأما أنا فقد اشتغلت لدى قسيس المدينة الصغيرة وهو الذي علَّم والدي تناول القربان لأول مرة.

وفي خريف عام 1871 درست في "فرساي" علم البيان وفي شهر أغسطس من عام 1873 نلت إجازة التدريس الأولية وعلى أثر ذلك تطوعت في الجندية في "أنجير" في ظروف هنيئة إذ كان الضابط

والد رفيقي القديم "روكان". وفي عام 1874 عوفيت مـن الجنديـة عمـلًا بنـصيحة زوج والدتي.

هـذه هـي الفرصـة التـي كـان يجـب عـليَّ فيهـا أن أبـدأ مهمتـي في القيـام بالتنقيب عن قاتل أبي والاقتصاص منه. لكن مضت على ذلك أربـع سـنين إذ حـلَّ عام 1878 ولم أكُ بعد قد قمت بهذا الانتقام الذي كان مناط حيـاتي المفجـع، بـل الذي شببت عليـه طفـلًا. نعـم، لم أكُ قـد قمـت بعـد بهـذه المهمـة حتـى ولم أكُ منشغلًا بها.

كان هذا الإهمال يخجلني أفظع الخجل لكما فكرت فيه. وإني لأذكـر اليـوم أن هذا الإهمال لم ينجم قط لا عن ضعف فطرتي ولا عن ظروف خارقـة أصـابتني قـد تؤثر كذلك على كل شاب في الظرف الذي أنا فيه، فـإني مـن بـادئ الأمـر عنـدما كنـت أبدأ مهمتي كابن يـسعى إلى الانتقـام كنـت أصـادف عقبـة وعـرة في سـبيلي. إذ مـن السهولة بل من السمو أن أتحمس فأرفع يدي قائلًا: "أقسم أني لن أرجع ولن أهن قبل أن أكون قد عاقبت الجاني". ولكن الواقع يعـترض الإنـسان فيفـرض عليـه ألا يعمـل إلا بعد أن يجتاز عقبات. فماذا كنت أستطيع؟ كان يجب أن أتبع في ذلك طرائـق العدالـة فأبدأ البحث الذي بلغتْ هي فيه غايته دون أن تصل إلى اكتـشاف القاتـل. فتوجهـت إلى القـاضي الـذي حقـق هـذه القـضية وفاوضـته، وهـو الآن مستـشار في الاسـتئناف يناهز هـذا القـاضي الـستين مـن عمـره وهـو دمـث الخلـق يقطـن بجزيـرة "سـانت

لويس" بالطابق الأول مـن منـزل أثـري يـشرف عـلى ميـدان "نـوتردام" وبـاريس الأصلية ونهر "السين" الذي لضيقه في ذلك الموقع كان أشبه بترعة.

تكرم الأستاذ ماسّول، وهذا هو اسمه، فحلل معـي مـن جـدي الـدلائل التـي كانت قد قدمتها الشرطة.

أما عن شخصية القاتل وساعة الجريمة فلم يكن ثم شـك، فقـد قتـل والـدي بين الساعة الثانية عشر والنصف والساعة الثانية دون مقاومـة. وقاتلـه هـو ذلـك الرجل الطويل القامة العريض الكتفين والذي كان إحكامه المدهش في تنكره يـدل في رأي المستشار على أنه من الهواة في التنكر.

من المفروض أن الإفراط في تعقيد كل احتياط دلالة عـلى عـدم التبـصر لأنـه مدعاة إلى الخيبة وعدم النجاح لذلك سألت الأستاذ "ماسّول":

ــ هل تنكر القاتل أن والدي كان يعرفه؟ فأجابني:

ــ كلا، وإلا لعرفه والدك وقد كان نقادًا متبصرًا محترسًا يقظًـا وهـو مـا تـدل عليه كلماته الأخيرة عندما ترككم.

ولما أن كان التنكر مهمًّا أحكـم لا يغـير مـن طـول القامـة ولا مـن عرض الكتفين فإن الأستاذ "ماسّول" كان يفسر هـذا التنكـر بأنـه مجـرد

وسيلة بسيطة لانتهاز فرصة الهرب من فرنسا إذا كانت الجثة قد تستكشف في اليوم نفسه. فإنه بفرض أن الشرطة قد تكون أخطرت بإشارات برقية جميع نواحي فرنسا وضواحيها عن رجل شديد السمرة شديد سواد اللحية، فإن عملها يذهب هباءً لأن القاتل وقد غسل وجهه فأزال تلك الأصباغ الصناعية وخلع ذلك الشعر وتلك اللحية المستعارين وارتدى ملابس أخرى يستطيع تخطي الحدود دون أقل معارضة بل ودون أقل شك.

يدل هذا الاستقراء وغيره إذًا على أن المزعوم "روشدال" كان يقطن جهة أجنبية عن فرنسا وأنه كان يتكلم الإنجليزية عندما كان بالنزل وأن مستخدمي النزل ظنوه حقيقة أمريكيًا. وهذا يدل على أنه إما أمريكي وإما أنه من عادته الإقامة في أمريكا، هذا فضلًا عن أن البيانات القليلة التي أعطاها لوالدي تشهد بأن له معرفة دقيقة بطرائق الأعمال بالولايات المتحدة.

إذن فالقاتل أجنبي سواء أكان أمريكيًّا أو إنجليزيًّا وربما كان فرنسيًّا يقيم في أمريكا. هذا فيما يتعلق بالمجرم، أما الدافع على ارتكاب جريمة غامضة كهذه فقد كان من الصعب أن نفترض أنه السرقة. وقد لفتني قاضي التحقيق قائلًا: "ونحن لا نعرف مع ذلك ما كانت تحويه المحفظة التي أخذها القاتل... لكن الذي يهدم افتراض السرقة هو عناية المزعوم روشدال بتجريد القتيل من ساعته في حين أنه ترك في

أصبعه خاتم ألماس الذي هو أغلى قيمة من الساعة... لذلك أستخلص أن القاتل لم يقصد بهذا إلا إلى احتياط بسيط لتضليل الشرطة. وإني لذلك أفترض أن ذلك الرجل قتل السيد "كورنيليس" انتقامًا...".

ثم قصَّ عليَّ قاضي التحقيق القديم بضعة أمثلة غريبة من تلك الأحقاد التي كانت تثور في قلوب ذويها إما ضد الأطباء الشرعيين وإما ضد المدعين العموميين لدى محاكم الجمهورية وإما ضد رؤساء المحاكم الجنائية. ثم ختم حديثه بأن قال مدللًا على ذلك بأن والدي وكان محاميًا لدى المحكمة الكبرى شهيرًا بواسع علمه وقوة عارضته حتى اكتسب عدة قضايا هامة لا بد وأن يكون قد خلق بقدرته لنفسه أعداء أثار في قلوبهم تلك الأحقاد الوحشية بحكم مهنته، وبالتالي لا بد أن تكون عاقبة إحدى تلك القضايا الهامة ضياع ثروة واحد من الخصوم الذين ترافع فكسب القضية ضدهم فأسرَّها الخصم في نفسه فقتله.

وقد ألفتني الأستاذ "ماسّول" إلى أن القاتل أجنبيًّا كان أو غير أجنبي لا بد أنه كان معروفًا في باريس وإلا فبماذا تعلل عناية ذلك الرجل بعدم الظهور في الطريق؟

كان قد اهتديَ إلى أثر أول مكثٍ له في باريس في المدة التي حصل فيها على الشعر واللحية المستعارين. ففي تلك المرة كان قد حل في شارع أبي قير في نزل صغير، قيَّد نفسه فيه باسم "روشتستر" ولم يكن يخرج منه قط إلا في دوكار.

ثم أضاف القاضي قائلا: "وألفتك أيضًا إلى أنه لازم الحجرة مساء وصبيحة اليوم الذي قتل فيه السيد "كورنيليس" وأنه تناول فيه طعام الإفطار كما تناول فيها بالأمس طعام العشاء مع أنه لما كان في لندن حالًّا بالفندق الذي كان والدك يرسل إليه خطاباته الأولى فيه، كان يذهب ويجيء دون أقل احتياط".

هذا ما استخلصته قريحة القاضي الذي كنت أصغي إليه بشغف. وهو ينحصر في هذه العنوانات الثلاثة عن تلك الثلاثة فنادق وهي _لو صح أن نسميها آثارًا بسيكولوجية يرتكز عليها في اكتشاف المجرم_ فإنها ليست إلا تفصيلات قليلة الإنتاج.

ثم وقف القاضي عند هذا الحد، وقد رسمت على محياه علامات الذكاء البالغ، عيناه اللامعتان في وجهه الذي ما يزال غضًّا بالرغم من تقدم سنه. كان هذا الرجل دائمًا حليق الذقن هادئًا في حديثه فصيحًا مرتبًا في قوله كما كان في مجموع حركاته باردًا مسايرًا بشوشًا حتى ليتخيله الإنسان عند رؤيته أحد تلك العقول الرزينة الراجحة التي تتوخى الدقة فيما تقول مع تنسيق المواضيع، تلك العقول التي لا بد أن تكون مقدرتها في مهنتها عظيمة.

اعترف لي أنه لم يستطع اكتشاف شيء بالرغم من تحليل بلغ غاية الدقة عن حاضر أبي وماضيه، وهنا تنهد قائلًا:

"لقد فكرت في هذا الأمر طويلًا" ثم أضاف قائلًا إنه قبل أن يترك كرسيه كقاضي تحقيق، في سنة 1872 عاد إلى النظر مرة أخرى في

"ملف" القضية وكان لا يزال بين يديه فسأل من جديد بواب الفندق الملكي وبضعة أشخاص آخرين. ثم لما أن عين مستشارًا في الاستئناف ظن أن في مقدوره أن يضع تحت نظر خلفه أثرًا للقضية. وسبب ذلك أن سرقة اقترفها رجل إنجليزي كان قد بلغ غاية الإحكام في تنكره، دعته إلى الظن أن هناك تشابهًا بين هذا السارق والمزعوم "روشدال". ثم لم يعمل شيئًا بعد ذلك لكن ما فعله كان من فائدته ان جدد القضية فلا يسقط الحق فيها أن تلك المدة القانونية كانت على وشك الانتهاء...

فسألته عن الزمن الذي بقي لي للبحث من جهتي فعلمت منه أن آخر محضر تحقيق عمل كان في عام 1873 وإذن فلا يسقط الحق إلا في عام 1883 أي أن لي خلال هذا الزمن حق اكتشاف المجرم وتسليمه إلى القضاء...

يا له من جنون! عشر سنين سبق أن مضت منذ اقتراف الجريمة، وأتخيل أنا الوحيد الضعيف وليس لي ما للشرطة من المورد والقوة أني سأنتصر حيث خاب أمهر الباحثين! على أني كنت مع ذلك أحاول الوصول إلى هذا المبتغى لأني ظننت نفسي في ذلك الحين أكثر حذقًا وأبعد نظرًا إذ ربطت عرى الصداقة مع خليلة أبي القديمة، تلك المرأة المتزوجة والتي قرأت في عينيها جم الشفقة بالنسبة إليَّ كما قرأت فيهما أشعة عطف قديم. وفي ذلك التاريخ أيضًا انصرفت إلى الانكباب على مطالعة أوراق والدي التي كانت والدتي قد عهدت بحفظها إلى زوجها بذلك العطف المطلق نحوه، ذلك العطف الذي طالما آلمني.

وا أسفاه! لماذا تكون قد فهمت من هذه الناحية أكثر مـن النـواحي الأخـرى ما يداعب من التأثرات قلبي الذي كان يمقت أشد المقـت إدمـاج حياتهـا الماضـية بحياتها الحاضرة؟

كان السيد "ترموند" قد عني على الأقل باحترام هذه الملفات احترامًـا دقيقًـا، تلك الخطابات التي اصفر لونها لطول الزمن والتي وجدت فيها كثـيرًا مـن الأمـور من مشاريع الشركات حتى الخطابات الخصوصية وبينها عدد من السيد "ترموند" نفسه أيدت لي مبلـغ الـود والمحبـة اللـذين ربطـا فـيما مـضى زوج والـدتي الثـاني بزوجها الأول. ألم أكُ أعلم بهذا؟ فلماذا إذن أتألم؟

على أني لم أعثر خلال هذه الخطابات على أقل أثر ينير أمامي طريـق البحـث بل ولم أشتم منها أقل شـك... فـأثرت في مخيلتـي صـورة أبي حيًّـا كـما كانـت قـد تراءت لي آخر مرة، حيث سمعته يجيب على سؤال السيد "ترمونـد" بيـنما كنـا في غرفة الطعام بمنزلنا الكائن بشارع "ترونشيت"، وهو يتكلم عن ذلك الذي كـان في انتظاره ليقتله: "رجـل غريـب لا يكـدرني أن أراه عـن كثـب"، ثـم خـرج فـسار في طريق الموت بينما كنت ألعب في البهو الصغير وبينما كانت والدتي تتحدث وهـي تشتغل إلى الصديق الذي جاء يوم أصبح فيها سيدها وسـيدي. يـا لـه مـن مـشهد صداقة ومـودة، بيـنما يـسير والـدي، ذلـك المـسكين، بقلـب لا تخـامره الريبـة إلى موطن الردى! ألا أستطيع حل هذا اللغز الدامي؟

ولكن أين أذهب؟ وماذا أفعل؟ وأي باب أطرق؟

وبينما كان هذا الشعور باستحالة مـأربي يثـبط همتـي كانـت تنبعـث أمـام عيني فجأة ظروف حياتي الجديدة مساعدة على شل قوة إرادتي.

خلال السنين التي قضيتها في المدرسة كانت آلام الغيرة التي شبت في نفسي نحو زوج والدتي وخيبتي في إظهار علامات العطف الذي أكنه لوالدتي وحقارة الأشياء التي كانت محيطة بي وضآلتها، كان كل ذلك قد أبقى في قلبي حرارته القلقة.

لكن هذا أيضًا كان قد تغير. حقًّا إني كنت لا أزال على حبي لوالدتي حبًّا عميقًـا يغشاه الألم الشديد ولكن كان ذلك دون أن أسألها مكانًا لي وحدي في قلبها أو ملجـأ من شفقتها لا ينازعني فيه أحد وهو ما كنـت أعلـم أنهـا لـن تمنحنـي إيـاه. كـذلك كنت أروض نفسي على الرضاء بخلقها بدلًا من أن أغضب ضدها. وما كنـت أنقطـع عن الشعور في سويداء قلبي بأسوأ كراهة نحو زوج والدتي لكني لم أعد بعـد أمقتـه بنفس تلك الشدة الأولى وما ذلـك إلا لأن معاملاتـه لي بعـد خروجـي مـن المدرسـة كانت حسنة لا غبار عليها. إذ أنه فضلًا عن كونه اتخذ لنفسه خطـة شريفـة بعـدم التدخل في أقل شيء مما يتعلق بشئون حياتي بصفتي قد أصبحت رجلًا.

لما أن حزت شهادتي أعلنت إصراري على عدم الاستمرار في تلقي العلوم دون أن أقدم سببًا يـبرر ذلـك وكـان ذلـك في الحقيقـة قـصد

أن أنذر نفسي كلية إلى تنفيذ فكرتي الثانية وهي البحث عن المجرم وتسليمه إلى القصاص. فلم يجد زوج أمي كلمة ينتقد بها هذا الإصرار الغريب بل هو نفسه الذي أراد إعفائي من استتباع الدراسة إذ أوحى إلى والدتي بقبول إصراري.

ولما أن رُدت إليَّ ثروتي وجدت أن والدتي وكانت قيِّمة عليَّ وزوجها وكان مشرفًا، وجدت أنهما كانا متفقين على ألا يمسا مواردي طول مدة تربيتي. فهذه الموارد قد أضيفت إلى رأس المال فلم أرث سبع مئة وخمسين ألف فرنك فحسب بل ورثت ما يربو على المليون. ومهما يكن من شعوري بمضض الشكر لرجل كنت أعده منذ سنين طويلة عدوًّا لي، فإني اضطررت للاعتراف بأنه كان يتصرف نحوي تصرف رجل أمين.

حتى لقد كدت أنسى الفارق الكبير بين أدبه في معاملاته لي وبين تلك القسوة التي بها أدخلني المدرسة كتلميذ داخلي وكان بذلك كمن بعث بي إلى المنفى.

وهكذا كانت علاقاته معي بالغة حد الأدب والكياسة ما دمت لا أُقيم من نفسي شخصًا ثالثًا بينه وبين زوجته. لكن هذا كان يستدعي أن أبقى خارج منزل والدتي التي كان يريد التسلط على قلبها والتحكم في حياتها. فأنَّى لي مناضلته وكنت أعلم أني لو كنت في مكانه وأنا على ما أنا فيه من الغيرة لكانت خطتي معه نفس خطته معي؟

إذن سلمت عجزاً عن مناجزة عطف كان يسعد والدتي وملًلا من الـتمادي في برود علاقاتي معها ومعه، وعلى الأخص رجاء أن أجد نفسي أكـثر مقـدرة وانـصرافًا إلى الانتقام بعد أن أصبحت طليقًا من القيود. شغلى أني، أنا الآخـر، كنـت أطلـب أن يسمح لي بترك المنزل بما أنه كان لي وقد ناهزت الواحدة والعشرين من عمـري حريتي مطلقة ومسكن خاص وإيراد يربو على خمسين ألف فرنك وأمامي أبـواب المجتمعات التي ترتادها والدتي مفتوحة وكذلك أبـواب الملاهـي. فـأنَّى لي ألا أفـتن بعوامل هذه الحياة الساحرة المستقلة التي أنا فيها؟

نعم كنت تخيلت أن أكون المنتقم المنفذ للعدل. لكني تركت نفـسي ألعوبـة لعواصف هذه الحياة، حياة الملذات التي يعجـز مـن ينظـرون إلى ظواهرهـا عـن تقدير هاويتها السحيقة.

إنها لحالة باطلة مفترسة تمزق لحظات حياة المرء كما تمزق نفسه، بل تفقده ثمين وقته كما تشل ما فيه من قوة وذكاء فيصبح جامدًا يعز فيه العلاج.

وهكذا وجدت نفـسي حيـال حـاجتي إلى الانتقـام غـير قـادر عـلى العمل في الحال. ففيم أناضل؟ ومن أناضل؟ لذلك تركت نفـسي ألعوبـة للظـروف التـي قـد تـصادفني فتخـدع جمـودي بـشيء مـن الحركـة. وتتابعت الأيام سراعًا تلو الأيام وأنا فيما أنا فيـه مـن ملـذات تـصبح في نظر الظرفاء مهنة أو شريعة أو فروضًا يجب القيام بهـا. فـأنَّى لي فرصـة

القيام بتنفيذ مشروعي وأنا مقيم على التنـزه في الغابـات كـل صـباح، إلى زيـارات بعد الظهر، إلى ارتياد المسارح وبعد نصف الليل أجـوس خـلال نـوادي اللعـب أو بؤر الفسق؟

أحرزت خيولًا كما اقترفت بضعة دسائس ومبارزة مخزية خرجت منها ظـافرًا بفضل ينبوع الأفكار المفجعة التي أعيش عليها. ولم أقف عند هذا الحد بل صرت خليلًا لامرأة في سن الأربعين أقنعتني أني فتنتها ثـم أقنعـتُ نفـسي أنـا أيـضًا بـأني شغوف بامرأة أخرى، سيدة روسية عظيمة مقيمة بباريس.

أما تلك فمن شهيرات الممثلات اللاتي يجتهدن في إحاطة أنفسهن بلفيف مـن المتعجبين والمتعبدين ومكافأة لهم على ذلك تسرف في اجتذابهم بضروب الغوايـة ظانة أنهم بذلك مأخوذون وما هم في الحقيقة في إعجابهم بهـا وعبـادتهم لهـا إلا مخادعون!

بعد أن قضيت ستة أشهر تقريبًا أسيرًا لأهواء هذه المرأة المبتذلة التي خلـت من جمال العواطف النبيلـة والـشعور الحـي تعزيـت عـن أباطيـل هـذه الممثلـة الدعية الأجنبية بالولع بفتاة فقيرة. لكن هذه أثبتت لي أنهما كلتيهما سواء فإنـه إذا كانت النساء المبتذلات مجبولات على الكذب والعجرفـة فـإن هـذه الفتيـات وإن لم يكنَّ في ابتذال تلك إلا أن لهن عيوبهن من حقارة إلى حماقة إلى نهم قذر بالكـسب. ولذلك عملـت عـلى نـسيان هـذه العلاقـات الحمقـاء بـالانغماس في حـمأة الميـسر

عالمًا بمقدار ما يصيبني من الشقاء من هذه التسلية التي لا بد لمرارتها من الانقلاب إلى ذلك الخلق البشع وهو خلة السعي لجمع المال من غير سبيل العمل الشريف. لكني كنت مدفوعًا بما في نفسي من الجموح والاشمئزاز إلى التغالي في كل شيء وإلى إتلاف مشاعري، على أني لم أكن أستطيع أن أستسلم كلية إلى أي نوع من أنواع الملذات لأني كنت أعود فأشعر في حنايا قلبي بذكرى نكبة والدي التي كانت تسمم ينبوع أفكاري. فإني عندما كنت أخترق المدينة قبيل الفجر مستقلًّا عربة عائدًا إلى مسكني وقد بارحته في الساعة السابعة مرتديًا لباس السهرة واضعًا زهرة في صدري ومحفظتي مكتظة بالأوراق المالية، كنت أتأمل في السماء وما فيها من غيوم تغشى النجوم وذلك القمر الهادئ كما كنت أرى الشوارع السوداء تتخللها أكاليل مصابيح الغاز فينبعث في نفسي شعور غامض بأن الوجود ليس إلا حلمًا ويدخل في روعي أني عرضة لكارثة غامضة إذ كان من الغريب المدهش أن أتمادى في هذه المعيشة وأن أكون إنسانًا يختلف ظاهره عن باطنه! فهل هناك قدَر ينوء بثقله على الكون؟ ثم كنت أقول في نفسي: "فليدفعني هذا القدر ما شاء في حومة الحياة" وأستسلم لما أنا فيه. وهكذا كنت أنام على أفكار فلسفية سوداء وأستيقظ لأسدر في هذه الخطة التي لا كرامة فيها والتي كنت أفقد فيها ليس ضميري وكرامتي فحسب بل وعزيمتي في الانتقام لذلك الشبح الذي لا يفارق مخيلتي. فمن ذلك الذي قد يساعدني على التغلب على هذا التيار؟

والدتي؟ إنها ما كانت ترى من حالتي إلا بهرجًا فتهنئ نفسها بأني أصبحت كما تزعم "أليفًا". أو زوج والدتي؟ إنه كان يحبذ _إرادة أو كرهًا_ هذا الاضطراب في معيشتي. ألم يجعلني حر التصرف في ثروتي وأنا في سن الطفرة والخطر؟ ألم يساعد بمجرد بلوغي هذه السن على اندماجي في النوادي التي كان عضوًا فيها؟ ألم يسهل لي وسائل ارتياد جميع المجتمعات؟ أو عمتي؟ لا أنكر أنها كانت متألمة من خطتي لكن أما كانت تحب بل تفضل هي أيضًا أن أنسى تلك الأحقاد المشئومة الثائرة في قلبي والتي طالما أفزعتها؟ ثم إني لم أكن أراها كثيرًا كما أن زيارتي إلى "كومبيني" كانت تقل حتى أصبحت نادرة. ولا عجب فقد كنت في سن يجد فيها الشاب دافعًا للذاته ولا يجد فيها فرصة لأعظم الفروض اتصالًا بقلبه... فإذا كان هناك صوت داوٍ ضد تبدد قوتي في ملذاتي المبتذلة فهو صوت الميت الثاوي في قبره دون أن يُنتقم له. فلقد كان هذا الصوت يرتفع ويرتفع بغير انقطاع من أعماق تخيلاتي، لكني تعودت بعد ألا أجيب عليه! فهل كان ذلك من خطئي إذ اجتمعت كل الأمور على شل إرادتي من أهم الظروف إلى أتفهها؟

وهكذا كنت أكلُّ وأضنى في خدر مؤلم لم يكن يخرجني منه حتى ولا تنقلي في مختلف ملذاتي الكاذبة الخادعة. لكن صاعقة أيقظتني من جبانتي وركود إرادتي، فإن عمتي "لويزه" أصيبت بشلل وكان ذلك في أواخر عام 1878 المحزن، فقد وجدت عند عودتي

ليلًا أو على الأصح صباحًا، بعد أن كسبت بضعة آلاف من الفرنكات، خطابات وإشارة برقية ففضضت الإشارة مغنيًا مدخنًا دون أن يخامر فكري أني سأدهم بحادث قد يكون بعد ما أصابني من موت والدي وزواج والدتي تاريخًا ثالثًا في حياتي.

هذه البرقية وهي بإمضاء "جوليا" خادمتي العجوز كانت لإخباري بمرض عمتي واستدعائي في الحال وإن كانت نجاتها موضع الرجاء. ثم علمت عرضًا أن هذا الخبر المفاجئ أشد فظاعة، ذلك أنه كان قد ورد لي من المريضة خطاب منذ ثمانية أيام شكت فيه المسكينة كعادتها تقصيري في زيارتها وكان الرد الذي وجب أن أبادر بإرساله لا يزال على مكتبي لم يكمل تحريره بعد ولا يعلم إلا الله لأي سبب تافه أهملت موافاتها به!

هكذا فطر المرء على ألَّا يقدر واجب حبه لمن يستحقون الحب إلا بعد حلول ذلك الزائر المشئوم وهو الموت. وهناك يندم أشد الندم على تفريطه. لذلك كان قلقي من الخطر الذي كانت الفتاة العجوز العزيزة عرضه له يخالطه أقسى أنواع تأنيب الضمير لأني لم أبرهن لها برهنة حقيقية على شدة حبي لها وعلى أنها كان أعز لديَّ من كل مخلوق.

كانت الساعة الثانية صباحًا وأول قطار لا يقوم إلى "كومبيني" إلا في الساعة الخامسة فساورني أنها قد تموت خلال هذه المدة...

كم كانت طويلة مملة تلك الدقائق التي قضيتها في انتظار موعد السفر مستعرضًا أمام مخيلتي وأنا نهْبٌ للأسى البالغ، شناعة إهمالي حيال أخت أبي الوحيدة، قريبتي الحقيقية في هذا العالم!

نعم، فإن احتمال حرماني منها كان يقنعني بأني مسرف في نكران الجميل. ثم ازدادت بلبلة الخاطر التي استولت على رأسي المتعب وأنا في القطار الذي كان يجتاز في ضوء الفجر الضعيف تلك المناظر الطبيعية التي طالما اجتزتها فيما سبق فكنت أعود فأتذكر نفسي عند رؤيتي تفصيلات هذه المناظر مذ كنت طالبًا أذهب هناك مفعم القلب بشفقة لا تروى فيثقل رأسي عبء هذه المهمة الهائلة التي أنا ذاهب لتأديتها.

كانت أفكاري أسرع مرورًا بمخيلتي من القطار بل كنت أرى القطار بطيئًا أمام رغبتي في سرعة الوصول. كما كنت أتخيل أمام عينيَّ هذا الوجه المحبوب الطاهر وذلك الفم ذا الشفتين الكبيرتين وتينك العينين المملوءتين بكثير من ينابيع الطيبة يحيط بهما جفنان أذبلهما طول عهدهما بسكب الدموع!

في أية حال سأراها؟ قد يظن أني لولا ما أصبت طول هذه الليلة من تأنيب الضمير، ذلك الاضطراب النفساني الذي فتل أعصابي وهي سريعة التأثر كما تفتل الحبال، نعم قد يظن أني لولا أني عانيت ذلك لما استطعت أن أتحمل الحقائق التي بلغت من النصوع مبلغًا يطير

له الفؤاد شعاعًا أمام سرير الموت، تلك الحقـائق التـي نـاءت بثقلهـا عـلى نفـسي حتى أودت بي إلى عصيان تقية على أبواب الأبدية تعالج حشرجة المـوت... ولكـن أنَّى لي أن أندم على هذا العصيان وهو الوحيد الذي بلـغ بي سـبيل الحقيقـة؟ كـلا، لن آسف بل إني لأفضل أن أكون قد فعلت ما فعلت.

(8)

وجدت العجوز جوليا في انتظاري بالمحطة وكانت ضعيفة البصر منهوكة القوى وجهها أوسع فرطحة وأكثر تجعدًا وشفتاها أكثر غورًا ولكنها كانت على ما عهدتها، الصالحة الأمينة جوليا كما كانت على عادتها من مخاطبتي بغير تكلف.

وبالرغم من ضعف عينيها، وقد بلغت السبعين، أسرعت نحوي عند نزولي من عربة القطار وأخذت في الحال تكلمني كما كانت تفعل عادة بغير انقطاع بمجرد ركوبنا العربة المكتراة التي كانت عمتي ترسلها إليَّ منذ طفولتي الأولى، فتذكرت تلك العربة العتيقة كما عرفت الحوذي وطالما رأيته وهو رجل ضئيل الجسم بشوش الوجه ذو عينين يرمشهما الخبث كثيرًا لكنه كان بادي الحزن. فأخذت العجوز "جوليا" تقص عليَّ ما ألم بعمتي بينما كانت العربة تنخفض وترتفع بثقل خلال الطرق:

"إنما أصابها ذلك بالأمس، ولكن ذلك كان لا بد آتٍ... وأن المسكينة قد أخذت تتغير منذ أسابيع... تلك المسكينة على ما هي عليه من الائتمان والعذوبة والعدل والشفقة قد تغير خلقها، فأصبحت تعنف وتشكل في كل إنسان... انعكست تصوراتها، ما

هذا؟ لا تسمع منها إلا حديث قطاع الطريق والقتلة... كانت تظـن أن المتعهـدين جان وماربيت وأنا نفسي نريد بها شرًّا... نعم حتى أنا نفسي... كانت تنزل كل يوم إلى الكهف فتعد زجاجات النبيذ وتقيـد عـددها في ورقـة وفي اليـوم الثـاني كانـت تكرر ذلك فتجد الحـساب صـحيحًا ولكنهـا كانـت تؤكـد أن الورقـة لـيست ورقـة الأمس، بل كانت تتجاوز ذلك إلى إنكار كتابتهـا نفـسها... وكنـت أريـد أن أبلغـك ذلك عندما حضرت في المرة الأخيرة لكني لم أكن أجرؤ لأني كنت أخشى أن أكـدرك كما أني كنت أظن أن بها مسًّا مـن الجـن وأن ذلـك سـيزول. وأخـيرًا نزلـت بـالأمس ساعة تناولها الغداء قصد مؤانستها ونزولًا عند إرادتها لأنها في الحقيقة تحبنـي كـما تعلم حتى وهي مريضة... فلم أجـدها، فبحثـت عنهـا أنـا وماربيـت وجـان في كـل مكان فلم نعثر عليها حتى أن ذلك الأخير جاءته فكرة أن يفـك الكلـب الـذي قادنـا مباشرة إلى مخزن الحطب وهناك وجدناها ملقـاة بطولهـا عـلى الأرض... كانـت قـد ذهبت بغير شك للتفتيش على الحطب... فحملنا الآنسة العزيزة المـسكينة فوجـدنا فمهـا ملتويًـا ووجـدنا نـصفها الطـولي لا يتحـرك... وقـد أخـذت تـتكلم... فظننـا في بادئ الأمر أنها قد جُنَّـت، لأنهـا كانـت تنطـق بكلـمات متنـافرة المعـاني بحيـث لم نفهمها لكن الطبيـب يـزعم أنهـا مالكـة قواهـا العقليـة وفقـط تنطـق كلمـة بـدل أخرى... كما لاحظنا أن صبرها ينفد عند عدم إطاعتها... وقد أيقظتها في هذه الليلـة فطلبت إليَّ دبابيس فأحضرت لها بـضعة منهـا فحنقـت... فهـل تتـصور أنهـا كانـت

تسأل عن الساعة؟ وأخيرًا لكثرة ما سألتها أدركت من الحركات التي كانت أدركت من الحركات التي كانت تأتيها بيدها اليسرى التي بقيت طليقة أنها كانت تريد معرفة الساعة لا الدبابيس... آه! لو كنت تعلم كم كانت قلقة مضطربة طول هذه الليلة بسببك؟ فقد نطقتُ باسمك أمامها فلمعت عيناها وهي لا تفتأ تكرر كلمات وكلمات... قد تظنها تهذي، لكنها تناديك... أتعلم لمَ أصابها هذا المرض؟ إنما أصابها بسبب تلك الأفكار التي كانت تخلقها، تلك الأفكار التي تتعلق بوالدك المسكين. والتي لم تكن تتكلم في الأسابيع الأخيرة إلا بها ولم يكن لها شاغل سواها. كانت تقول: "بشرط ألا يقتل أندريه أيضًا. أما أنا فعجوز وأما هو ففي فجر شبابه وهو بالغ غاية الطيبة والدعة"! وكانت تبكي بغير انقطاع أما أنا فكنت أردُّها إلى الصواب إذ أسألها: "ومن ذلك الذي تظنينه يسعى إلى إيذاء أندريه"؟ فكانت تبتعد عني بتحرز لكني كنت مدركة أنها في حالة هذيان لمرضها... "وقد قرر الطبيب أنها تظن نفسها مضطهدة وأن هذا من صفات هذا المرض كما قال إنه سيأتي عليها وقت لا تستطيع فيه الكلام إلا أن شفاءها مستطاع...".

كنت أصغي إلى ثرثرة "جوليا" دون أن أجيب بكلمة. أما إن عمتي "لويزه" قد تكون في بدء مرض عقلي، فهذا لم يكن يدهشني بعد ما عانت من الأكدار والآلام، كما أني كنت أتوقعه من تلك الأحوال الغريبة التي لاحظتها في حالتها نحوي عند زياراتي الأخيرة لها. فقد

سبق أن أدهشتني عندما طالبتني بإلحاف وإصرار شديدين بكتاب من كتب أبي مع أني لم آخذه ولم أفكر قط في أخذه حتى اضطررت للبحث عنه ووجدته تحت نضيد من كتب أخرى كأنها خبئت عمدًا أسفل دولاب. لكن حديث جوليا المسهب كان من أثره أن كشف لي عن حقيقة الحالة التي وقعت فيها هذه الفتاة العجوز الوحيدة التي كنت أظنها في حالة من حالاتها الغريبة التي سببها شدة إمعانها في التدقيق على أني لم أكن أستطيع أن أبحث الأفكار التي كانت تبديها عمتي خاصة بموت أبي بتلك الفلسفة التي تكلمت بها مربيتي العجوز. وما هي هذه الأفكار؟ حدث عدة مرات أن شعرت شعورًا غامضًا أثناء محادثاتي مع عمتي أنها لم تكن توليني مكنون قلبها جميعه. وعنادها الذي حاربت به مشاريعي في البحث بشخصي قد يكون صادرًا عن شفقتها التي تنحصر في التأفف من كل رغبة في الانتقام. لكن هل هذه الشفقة هي كل ما في الأمر؟ شدة اهتمامها بطمأنينتي وإكراهها إياي على حمل سلاح أثناء الليل وتشديدها بألا أبقى في عربة خالية عندما أستقل قطار السكة الحديدية ونصائحها الأخرى التي هي من هذا القبيل فضلًا عن شدة فزعها على حياتي فزعًا يكاد يكون الجبن بعينه، كل ذلك بغير شك أساسه التهيج المرضي. على أنه قد تكون هذه الأخطاء كذلك مرتكزة على أساس أقل إبهامًا مما تصورته. فقد لاحظت مع شيء من الوجل أن هذه المخاوف الغريبة قد اشتدت على أثر الحالة التي أصبحت فيها عاجزة عن السيطرة على أفكارها

وعواطفها. لكني قلت في نفسي: "دعك من هذا. أما قد أشبهها؟ أو ليست هذه الأفكار الثابتة طبيعية عند إنسان متعب الرأس بما أصابه من إساءة وعزلة وجفاء، إنسان فقد شقيقًا محبوبًا إلى حد العبادة في ظروف خفية مفجعة"؟

وبينما كنت أسمع "جوليا" معللًا حديثها بالرغم مني، باحثًا ومنقبًا في ثناياه وإذا بنا قد بلغنا منزل عمتي، منزل الفاجعة الحقيقي، وكان ذلك في صباح يوم من شهر ديسمبر وعدت فرأيت أمامه الغابة المشئومة في الأفق خلال الغيوم التي كانت تغطي السماء بلونها الكامد في تلك المدينة الصغيرة التي كان يخيم عليها أشد أنواع السكون اكتئابًا، سكون البادية في الشتاء.

فلما نزلت من العربة قفز الكلب أمامي، وهو كلب هائل من كلاب "التير نوف" تتخلل لونه الأسود بقع بيضاء كنت قد سميته مزاحًا "الدون جوان" بالرغم ممن سخط عمتي "لويزه" فدفعته بشيء من القسوة لما بي من شدة الضيق مما بلغني عن الحالة التي توقعت أن أجد المسكينة عليها وأخذت أنتهب درجات السلم فلما دخلت حجرتها أوقفتني الخادم الجالسة عند سريرها بحركة وأنا على عتبة الباب وأشارت لي بأن عمتي نائمة فدخلت إذن بخطى خفيفة لكيلا تستيقظ وجلست في مقعد في زاوية أمام المدفأة أنظر المريضة نائمة ووجهها متجه إلى الحائط في وسط ذلك السري القديم ذي الأعمدة

المستقيمة الذي كان سرير جدتي في مدينة "بروفانس" منبت عائلتنا وكانت ستائر سريرها تخفي عني نصفها. فكنت أسمع أنفاسها القصيرة السريعة وأنظر إلى تلك الحجرة التي اعتدت دخولها والتي كتبت فيها خطاب التهنئة لزوج والدتي وقت زواجه. وقد أصبح لون هذه الستر ذابلًا ذبول ألوان جميع ما كان موجودًا في هذه الحجرة من الأثاثات التي جمعتها الآنسة العجوز التقية وبالغت في العناية بها.

كان الفرق واضحًا بين مسكني بصفتي رجلًا من الطراز الحديث وهذه العزلة الهادئة. على أني لم أطل التفكير في هذا كثيرًا بل انصرفت عنه فجأة إلى التفكير في سواه لكيلا أشعر بذلك الفارق وبذلك التأنيب الصامت الذي كان يبدو أمامي من حجرة المريضة التي أصبح جوها تفهًا برائحة الأعشاب المغلية بدلًا من أن تحييه الروائح العطرية الغضة التي تعزها عمتي.

كم أنبني ضميري خلال نصف الساعة التي أمضيتها على هذه الحال أسمع أنفاسها وهي نائمة وأفكر في حياتها وحيدًا بجانب المدفأة التي كانت تشتعل فأسمع حركة اشتعالها الخفيفة! كم أصررت على الحضور هنا لأقضي بجانبها أسابيع طويلة عندما تتحسن حالها! لم أكن أستطيع، بل لم أكن أريد أن أرضى أن تكون في خطر الموت منتظرًا بفارغ الصبر الدقيقة التي تستيقظ فيها لأستغفرها وأظهر لها كم حبها وإذا بها تنهدت فجأة تنهدًا أشد من تنهداتها الأولى ورأيتها

وقد رفعت ذراعها السليم وحركته عدة مرات من الأسفل إلى الأعلى بحركة يـشتم منها شيء من اليأس. فقالت لي "جوليا" وكانت قد حلت لدى سرير المريضة محل الخادم الشابة: "ها هـي قـد اسـتيقظت" فاقتربـت مـن عمتـي وناديتهـا باسـمها ورأيت وجهها المسكين وقد أتلفه الشلل فالتوى إلى الجهة اليـسرى فعرفتنـي ولما انحنيت عليها لأقبلها لمست بيدها السليمة خـدي. داعبتنـي تلـك المداعبـة التـي كانت من عادتها عدة مرات ببطء. فأرحتها على ظهرهـا بمـساعدة "جوليـا" لأنهـا كانت تصادف عظيم المشقة في الالتفات إلى الجهـة اليمنـى بنفـسها. فاسـتطاعت أن تراني وجهًا لوجه فنظرتْ إليَّ طويلًا فانحدرت دمعتان من عينيها اللتـين قـرأت فيهما حنانًا بالغًا وقلقًا عظيمًا وشفقة يعجز اللسان عـن وصـفها فكانـت إجـابتي دموعًا غزيرة مسحتها بيدها.

أرادت أن تكلمني فلم تستطع إلا أن تقول جملة مرتبكة انشق لهـا فـؤادي. فأدركت أني لم أفهمها فجاهدت جهادًا لتجد من الكلمات مـا تـترجم بـه أفكارهـا وكانت قبلُ واضحة القـول فـصيحة ثـم عـادت فنطقـت جملـة لا يـدرك مغزاهـا وإذ ذاك أدركتها حركة الضعف المشوب بالألم عـلى أنهـا قـد بـدا عليهـا التـشجيع عندما سألتها قائلًا: "ماذا تريدين مني يا عمتي العزيزة"؟ فأشـارت لي بمـا أدركـت منـه أنهـا تريـد خـروج "جوليـا" ومـا كـدنا نبقـى وحيـدين حتـى تغـير وجههـا واستطاعت بمساعدتي أن تدخل يـدها تحـت وسـادتها فأخرجـت حلقـة المفـاتيح فعزلت منهـا واحـدًا وأشـارت إليَّ بحركـة أن أفـتح قفـلًا فتـذكرت تلـك المخـاوف

الخيالية التي كانت تساورها فتجعلها تظن أنها سرقت فسألتها ما إذا كانت تريد أن أفتح بهذا المفتاح الصندوقة الصغيرة ذات القفل المضمون فأبرقت عيناها واستطاعت ان تقول: "نعم"، فسألتها مرة أخرى عن موضع هذه الصندوقة فأجابتني بكلمات عجزت عن إدراك معناها ولما أن رأيتها قد عاد إليها تهيج أعصابها المؤلم توسلت إليها أن تسمح لي بالاستفهام منها وأن تكون إجاباتها بحركة لا بكلمات فبعد بضعة دقائق توصلت بمشقة إلى تكييف هذه الإشارات واستكناه مرماها، أدركت أنها تقصد خزانة صغيرة مخبوءة داخل أحد الدولابين الكبيرين الموجودين في الطابق الأرضي وأن تلك الخزانة تفتح بمفتاح أيضًا في حلقة المفاتيح فنزلت تاركًا عمتي وحيدة كما رغبتْ فلم أصادف نصبًا في استكشاف الخزانة الصغيرة التي وجدت أن المفتاح يفتحها كما وجدتها مخبوءة بعظيم العناية خلف علبة القبعات وأكياس تحوي أواني فضية وهي مصنوعة من خشب عطري مستطيلة الشكل منقوش علها بحروف من الذهب الأبيض والأحمر هذان الحرفان: ج.ك.! جوستان كورنيليس...! إذن هذه العلبة كانت لأبي، فافترضت أن هذه الخزانة الصغيرة، التي وإن كانت في صنعها دقيقة إلا أن صانعها لم يبلغ غاية المهارة، كانت قد أهديت إلى والدي مقابل خزانة تشابهها منقوشة عليها الحروف المبدوء بها اسم من أهديت إليه وأن مهديتها إلى والدي صديقة كانت قد طلبت إليه أن يودع فيها خرائد عطف قلبي كبطاقات معطرة وخُمُر كان الصديقان يغطيان بها

وجهيهما أثناء كانا يتنزهان سعيدين في البادية وطاقات ورد جفت وصور فوتوغرافية أعدمت زجاجاتها السلبية لتبقى سرًّا عند حائزيها. فهل هذه الصديقة هي تلك المرأة التي توهمت ضلالًا بأنها شريكة في جناية النزل الملكي؟ كذلك افترضت أن أبي وقد تزوج لم يرد لا إعدام ولا الاحتفاظ عنده بهذا التذكار الذي يتعلق بماضٍ قطع صلته به إلى الأبد ولذلك أودعه عناية عمتي به... على أني لم أتطوح في هذا التعليل طويلًا بل عالجت فتح الخزانة لأتأكد أن المفتاح مفتاحها ورفعت الغطاء متوقعًا بل مقتنعًا بأني سأجد أضابير من الأسهم المالية وبضعة من الجواهر ومقادير من الدنانير أي كنزًا صغيرًا خبأته المسكينة في هذه الخزانة خشية تقلبات الزمن. لكني بدلًا من هذا وجدت حزمًا ملفوفة بعناية فأخذت منها واحدة فرأيت مكتوبًا على غلافها: "خطابات من جوستان..." وألفيت مثبوتًا عليها تاريخ العام. ثم ألفيت نفس هذه العبارة على الحزمة الثانية والثالثة والرابعة.

هذه هي مراسلات أبي وقد حفظتها عمتي بتلك العناية وذلك الإيمان لكيلا يضيع أو يتلف أقل شيء لمن كان موضع أعمق عطف في قلبها طول حياتها. فلماذا إذن لم تكلمني قط عن هذا الكنز وهو أغلى عندي من كل ما سواه؟

ناجيت نفسي بهذا السؤال وأنا أغلق الخزانة. ثم ساورني أنها قد أرادت ألا تعترف بهذه الخطابات إلا في آخر دقيقة من حياتها.

وصعدت حاملًا هذه الصندوقة إليها. وما كدت أتخطى عتبة حجرتها حتى قابلت نظراتي نظراتها فقرأت في عينيها مللًا وقلقًا مهلكين. وما كادت تجد الصندوقة على سريرها حتى فتحتها وأخرجت منها الحزم واحدة بعد أخرى حتى انتهت بأن عزلت حزمة واحدة وأرجعت تلك مكانها وأقفلت الصندوقة وأشارت لي بوضعها عل خزانة الملابس.

وبينما كنت أهيئ مكانًا أضع فيه الصندوقة بين الأشياء التافهة المكدسة على الدولاب تنفيذًا لإشارتها لمحت المريضة في المرآة وقد اتجهت بجهد خارق إلى الجهة الأخرى وعالجت بيدها الطليقة من الشلل قذف الحزمة التي استبقتها في المدفأة الكائنة إلى يمين سريرها من جهة رأس السرير على بعد متر تقريبًا. لكنها ما كادت تستطيع بعظيم الجهد أن ترتفع قليلًا حتى خارت قوتها فلم تصل الحزمة إلى النار بل سقطت على الأرض فأسرعت نحوها لأريح رأسها كما كانت على الوسادات وجسمها في وسط السرير فبدأت بذراعها الطليق الضعيف تحول إبداء حركة محزنة جاهدت فيها جهادًا عنيفًا مدخلة أصابعها النحيلة في غطاء السرير لتستطيع رفع نصفها الأعلى ولكنها وقد عجزت سالت الدموع من جديد غزيرة من عينيها المسكينتين.

ما أشد خجلي لما سأسجل هنا على نفسي! على أني سأسجله إذ أقسمت لنفسي أن أكون صادقًا في تسجيل كل الأمور حتى ما كان

منها أشد من هذا خطرًا خصوصًا ولم يتعذر عليَّ إدراك ما كان قد مرَّ برأسي المريض التاعس:

فمن الجلي أن الحزمة الصغيرة التي سقطت على البساط بين المدفأة والمنضدة الصغيرة كانت تحوي خطابات كانت تريد أن تعفي آثارها إلى الأبد حتى لا أقرأها فأقع تحت سلطانها المشئوم لولا ما أعلم من عظيم حبها وتقديسها لجميع الأشياء الخاصة بأبي. ألم أرها تحتفظ حتى بالنشافة التي كان يستعملها أبي عند زيارته "كومبيني" كما كانت تحتفظ بالمظاريف التي كانت موجودة وقت زيارته الأخيرة؟ نعم لا بد أنها انتظرت وانتظرت قبل أن تفارق، إلى الأبد، هذه الخطابات العزيزة الخطرة لكن المرض فاجأها فساورها شديد القلق من خطر بقاء هذه الخطابات تحت يدي. ثم إني قدرت أن ارتيابًا لا يسوغه العقل سببته حالتها في دقائق حياتها الأخيرة منعها من تكليف "جان" أو "جوليا" بمهمة إحضار هذه الخزنة لذلك أدركت في تلك اللحظة نفسها كنه ما استولى على هذه المرأة المسكينة من رغبة بالغة في حضوري، رغبة بلغت أقصى حدود الملل كما أدركت سر الاضطراب الذي ألفيتها فيه. والآن قد خانت قواها. عندما حاولت عبثًا أن تلقي بالخطابات في النار، تلك النار التي كانت تسمع زفيرها دون أن تستطيع الجلوس أمامها حتى ولا رؤية استعارها الذي طالما رغبت في الاصطلاء به.

انتهـت هـذه الاسـتنتاجات التـي بـدت في مخيلتـي فجـأة إلى أن تكونـت فتحولت عاطفة قوية من الشفقة أمام ما أصاب هـذه المـرأة التاعـسة مـن الآلام المفترسة فقلت لها باسطًا عليها غطاءها حتى بلغ كتفيها: "لا تنزعجـي ولا تحـزني يا عمتي العزيزة، إني سأحرق هذه الخطابات".

فنظرت إليَّ بعينين ملؤهما التوسل المشوب، بالقلق فأقفلت حدقتيها بشفتيَّ مقبلًا هاتين العينين، وانحنيت لالتقط الحزمة الصغيرة فقرأت بوضوح على الورقة التي غلفت بها: "عام 1864ـ خطابات جوستان".

عام 1864! إن هذا العام هو آخر أعوام حياة أبي!

إني لأشعر ببشاعة ما أتيته في تلك اللحظة، أشعر أنـه مـن أفظـع الأمـور لأن رغبات الموتى الأخيرة فروض مقدسة مهما كانت. حقًّا، ما كان يجمـل بي أن أخـدع تلك التي كانت تعاني نزاع المـوت وكنـت أسـمع زفراتهـا وأنفاسـها تـشتد بـسرعة واضطرابًا.

لكن ما حيلتي وقد تكدست الهواجس في رأسي بأشد مما أحتمـل... فإنـه مـا دامت عمتي متمسكة بشغف، بل بجنون بإحراق هذه الخطابـات فـما ذلـك بـلا ريب إلا لأنها قد تفتح أمام عيني سبيل الانتقام...

إنها مراسلات أبي في السنة الأخيرة من حياته ولم يسبق لهـا هـي أن كلمتنـي عنها!

هكذا تكدست، بل هجمت، بل استولت تلك الأفكار والتعليلات على رأسي المسكين فلم أعقل ولم أتردد، مرت برأسي كالبرق خاطرة هي أني قد تيسر لي أن أدرك...

أدرك ماذا؟ لم أكن أدري، ولكني أدرك...

"وبدلًا من أن ألقي بهذه الخطابات في النار ألقيت بها بجانب المدفأة تحت مقعد" وجئت فانحنيت على المريضة وبصوت عالجت أن يكون ثابتًا هادئًا قلت لها: "إن رغبتك قد نفذت وها هي الخطابات تحترق في النار". فأمسكت يدي وقبلتها!

ما أشد ما آلمتني هذه المداعبة! فقد جلست إلى سريرها مخبئًا وجهي في أغطيته لكيلا تقابل نظراتها نظراتي. لكن وا أسفاه! لم يطل بي زمن الخوف من تسلط نظرها عليَّ. فقد عاد إليها في الظهر اضطرابها شديدًا وجاء القسيس في الساعة الثانية فباركها بعد أن لقنها الأسرار المقدسة الأخيرة ثم أصابتها نوبة أخرى عنيفة حوالي المساء أفقدتها كل إدراك وأسلمت الروح ليلًا...

أيتها الفقيدة العزيزة، هل ستغفرين لي إن كذبتك الحقيقة في ساعتك الأخيرة وقد كنت تريدين ألا أقرأ قط هذه الخطابات المشئومة التي بدأت فأنارت لي الماضي، بنور هائل، وقد كنت تؤملين أن تحولي دوني وشكوك أمعنت في تعذيبك أنت نفسك زمنًا طويلًا.

ما أعظم عطفك وحنانك، أيتها العزيزة، فإنك حتى وأنت على سرير موتك لم تكوني تفكرين إلا في هنائي وطمأنينتي!

أيتها العزيزة، هل ستغفرين لي أن أذهبت هباءً بكذبي نتيجة ما دفعك إليه بعد نظرك حتى في ساعة النزع التي كنت تتجرعين فيها كأس الموت مريرًا؟

أيتها الفقيدة الوديعة الشفيقة، إنه لفرض عليَّ أن أناجيك وأستغفرك وإن كنت لا أعلم إذا كنت تستطيعين أن ترينني اليوم أو تسمعينني أو على الأقل تشعرين بما يعذب قلبي من التأثر والحب لك ولذكراك.

انظري إليَّ إني لفي منتهى الخجل من أن كذبتك في حين أنك، أنت، لم تفكري إلا في أن تكوني أبرَّ مخلوق بي، في حين أنك قد أغدقت عليَّ من حنانك وحبك ما لم يمن عليَّ به سواك.

نعم، إني لمدين بأن أناجيك معترفًا بذلك، أيتها الشفيقة التي ثوت تقية بيضاء في أكفان بيضاء.

فإذا فكرت فيك فلن يخالجني نحوك سوى ندامتي على تقصيري في إعزازك كل الإعزاز حينما كنت على قيد الحياة، وعلى خيانتي لآخر عهد تعهدت به إلى روحك الطاهرة.

إني لأراك بعينيك اللتين تشهدان بطهارة قلبك، بخلو هذا القلب الشريف من كل شائبة ولكن ما أكثر ما تشهد به تانك العينان من قروح في هذا القلب المكلوم!

نعم، كنت تصفحين عني وبيدك اليمنى تداعبين خدي، تلك

المداعبة الحزينة بل أشد تلك المداعبات حزنًا وهي التـي تعطفـت عـليَّ بهـا قبـل ذهابك في تلك الظلـمات التـي تعجـز الأصـابع فيهـا عـن الحركـة، والـدموع عـن الانسكاب.

لو لم يداهمك الموت ولو لم أعـصِ رغبتـك القـصوى لحملـت معـك في حنايـا الأرض سر ما طالما عذبك من ريب!

أيها الشبح المسكين، أحقًّـا إنـك لـن تـستطيع منـذ الآن أن تلـومني لـشغفي الشديد باكتشاف السر ولا لما استولى على نفسي من آلام؟

إن على نفوسنا لقدرًا متسلطًا يريد أن يبدد الضوءُ حالـك الجريمـة وأن تنـال العدالة قسطها وأن يأتي المنتقم!

ولكن بأية طريق؟

إن قوة القـدر لهـي بهـا عليمـة تتخـذ في عملهـا للقـصاص أسـلحة بالغـة في الغرابة.

لقد قضي يا شقيقة والدي التقيـة أن إخلاصـك لـذكراه العزيـزة إخلاصًـا هـو العبادة يوقظ في نفسي رغبة كادت تخمد.

أيتها الـروح المخلـصة، أيتهـا الـروح القلقـة، لا تـؤنبيني لمـا مـزق قلبـي مـن تعذيب، ولا لإخلاصي المفجع الذي فيه أفنيـت شـبوبيتي! واسـتريحي! اسـتريحي! وليبسط السلام ظله الوارف على القبر الذي تنوين فيه أنت وأبي في هـذه المقـبرة، مقبرة "كومبيني" التي لا بد ستضمني أنا الآخر. وربما كان ذلك غدًا!

(9)

كانت وفـاة عمتـي حـوالي الـساعة التاسـعة مـساء وقـد أقفلـت لهـا عينيهـا ومكثت مدة طويلة أسكب الدموع سخينة. وفي الـساعة الحاديـة عـشرة جـاءتني العجوز "جوليا" وأكرهتني على النزول إلى غرفة الطعام لأتناول ما أسـد بـه رمقـي لعلمها أني لم أتناول منذ الصباح إلا فنجانًا من القهوة.

ما أشأمه طعامًا تناولته في تلك الحجـرة ذات الحـوائط المزينـة بالأطبـاق القديمة والتي كثيرًا ما جلـست فيهـا أمـام فقيـدتي المـسكينة المحبوبـة! وكـان أمامي على المائدة مصباح يضيء الخوان دون أن يبـدد ضـوؤه ظلمـة الحجـرة بأكملها. وكنت أسمع زفير النار المشتعلة في المدفأة فأتذكر أيام طفـولتي التـي كنت فيها أشوي الكستناء في النار بعد أن أشققها خشية أن تفرقـع. ثـم كنـت أنظـر إلى "جوليـا" وهــي تكفكــف بطــرفي مئزرهــا الأزرق وابــل الــدموع التي كانت تغطي خديها المتجعدين. وإني وإن مـرت عـليَّ في حيـاتي سـاعات أفظـع إلا أني لم أصـادف مـا صـادفته في هـذه اللحظـة مـن الآلام المفجعـة. لذلك أستطيع أن أعترف لنفسي بعـدل، بـأن الأسى الـذي حـلَّ بقلبـي المكلـوم بموت عمتي بدأ يمحو مـن ذاكـرتي كـل مـا سـواه مـن مـشاغلي. فـإني لم أفكـر

لحظة طول هذه الليلة المأتمية في فض حزمة الخطابات التي تملكتها بأكذوبة بالغة في الحقارة، بل قد نسيت حتى وجودها بالرغم من أني قد عنيت بعد الظهر بالتقاطها ووضعها في حجرتي. وماذا يهمني الآن شغفي الشديد بمعرفة أسرار هذه الخطابات بعد أن فقدت إلى الأبد المخلوق الوحيد الذي كان يحبني حبًّا لا تشوبه أقل شائبة؟ إن الأسى لموت عمتي كان يكاد يقطع نياط قلبي. وقد أردت أن أسهر عليها هزيعًا من الليل فقد عزَّ عليَّ أن أفارق هذا الوجه الساكن الذي طالما قرأت فيه الشفقة المطلقة ولم أعد أرى فيه إلا تقاطيع يابسة وشفتين مضمومتين وحدقتين منخفضتين ونوعًا من كآبة محزنة لم أرها على وجه ميت آخر! فإن الأفكار المحزنة والهواجس الشديدة التي سممت قلبها وهي صامتة صابرة قد ارتسمت على هذا المحيًّا فأظهرته على حقيقته. لذلك دفعني ما قرأته في هذا الوجه من آلام مبرحة إلى البحث والتنقيب منذ تلك اللحظة عن سببها الخفي في الخطابات التي شغلت فكرها وهي على حافة الظلمات الخالدة. ولكن كيف أستطيع أن أتلمس في نفسي قوة التدليل والتكييف أمام هذا الوجه الآلم! ناجيت نفسي أن هذا الفم لم يسمعني إلا كلمات عذبة وإنه لن يفوه ببنت شفة بعد الآن. وأن تينك اليدين لم تمتدا نحوي إلا مداعبتين وأن هذه العزيزة لن تعانقني وتحتضنني. وهكذا تجمعت عوامل اليأس في نفسي لدرجة أثارت فيَّ دهشة ممزوجة بعظيم الفزع. فإننا أمام ميت كان موضع حبنا وإعزازنا، نلاقي عظيم

المشقة في الإيقان بأنه مات حقًّا وأصبح في عـالم الفنـاء أنـه كـان ذا قلـب بنـبض وعقل يتلألأ وروح تحب!

كانت إحدى الراهبات ساهرة على عمتي، بالقرب مني، تقرأ صلوات فتركـت نفسي أكرر معها صـيغًا لم أكـن قـط أؤمـن بهـا. وكنـت أتـذكر كـم مـرة اضـطرت الفقيدة المسكينة أن تنطق بهذه الصلوات راجية لي من الـلـه السلم والهناء.

وعند الساعة الثالثة صباحًا جاءت "جوليا" لتحل محلي عنـد سريـر الفقيـدة. فدخلت حجرتي وكانت بنفس الطابق الذي فيـه حجـرة عمتـي، فألقيـت بنفـسي على سريري منهوك القوى. لكن الطبيعة تغلبـت عـلى آلامـي فنمـت ذلـك النـوم الذي يعقب فقدان القوى العصبية فيستيقظ الإنسان بعـده مـستردًّا قـواه قـادرًا على الحياة من جديد وتحمل ما كان يظنه مستحيل التحمل.

عندما استيقظت وجدت نفسي في رائعة النهار وكانت السماء عابسة كـسماء الأمس بل أشد عبوسة، تخيم بغيومها الحالكة على الحديقة القاحلة. فـذهبت إلى النافذة وتأملت طويلًا في ذلك المنظر الطبيعي المشئوم الذي كانت تحده الغابة.

إني أدون هـذه الأمـور التافهـة ليتيـسر لي أن أسـترجع شـعوري الـصحيح في تلـك الآونـة. ولمـا أن عـدت إلى المـدفأة لأدفـئ يـدي وقع نظري عـلى حزمـة الخطابـات التـي سرقتهـا مـن عمتـي، أقـول

"سرقتها" لأنها كلمة حق... وكانت هذه الحزمة ما تزال في مكانها حيث وضعتها بالأمس مسرعًا على رخامة المدفأة بين محفظة نقودي وحلقة مفاتيحي وعلبة سجائري. فأمسكتها مضطرب القلب مدركًا من تفكك ثنيات رباطها أنها كثيرًا ما فضت وحزمت.

كنت أستطيع حتى تلك اللحظة إصلاح كذبي الأثيم الذي خدعت به الفقيدة وهي على أبواب الأبدية فأمد ذراعي نحو المدفأة فتصبح تلك الأوراق طعامًا للنار فأحقق آخر رغبة للفقيدة لكني جلست فسلطت نظري بضع دقائق على تلك النار التي كانت تتأجج صفراء ثم رُزْتُ في يدي تلك الحزمة فحكمت من ثقلها أنها لا بد تحوي كثيرًا من الخطابات فوقفت فريسة أفظع تردد!

لا أحاول تبرير ثاني خيبة أصابتني في أمانتي لكني أحاول فهم كنهها...

كلَّا، لم تكن قط هذه الخطابات لي فلم يكن لي إذن حق امتلاكها بل كان فرضًا محتمًا إعدامها دون فضها وعلى الأخص بعد أن زال ذلك الشغف وتلك الهواجس التي استولت عليَّ فجأة في اللحظات الأولى دون طاعتي لتوسلات عمتي القلقة.

لكن لماذا كان يشوب القلق توسلاتها؟ ساءلت نفسي من جديد هذا السؤال بينما كنت أعود فأقرأ ما سطرته عمتي على غلاف الحزمة وهو "خطابات جوستان ـ عام 1864".

ما أشأم هذه الحجرة التي ترديت فيها حائرًا بين واجب التقوى المحتم وبـين شغف الاطلاع!

كانت هذه الحجرة فيم سبق حجرة أبي ولم يتغير أثاثها بالرغم من أن الـزمن قد أشحب ألوان الأقمشة الزاهية التي كانت وضعتها عمتي بها ليمتع والدي بهـا ناظريه، فقد تدفأ والدي بهذه بهذه المدفأة في صـبيحات الـشتاء وهـي في بـرودة هذه الأيام وسوادها وجلس مفكرًا عـلى المقعـد العتيـق الـذي كنـت جالـسًا فيـه وسمع دقات هذه الساعة الثاويـة في صـندوقها المرمـري الأبـيض التـي أسـمع أنـا الآخر دقاتها في لحظة اضطرابي هـذه وفي هـذا الكهـف، عـلى هـذا الـسرير الـذي كنت نائمًا به الليلة، نام أبي طفلًا ورجلًا وعلى هذا المكتب كان يشتغل!

كلا، إن هذه الحجرة لم تتركني حر التصرف بل كانت تعيد إلى مخيلتي صورة أبي أكثر حياة. كنت أتصور كأنما شبح القتيـل قـد خـرج مـن قـبره ليتوسـل إليَّ أن أبقى على العهد الذي قطعته على نفسي وأقسمت عليه مرارًا بالانتقـام لـه إحيـاء لذكراه. فإذا لم أنل من هذه الخطابات سوى معرفة ظروف أبي في حياته الخاصـة، لما كان في استطاعتي حيال ذلك أن أتردد لحظـة. ومـاذا تهمنـي تلـك الخـزعبلات التافهـة التـي تنحـصر في احـترام مـا لم يكـن بغـير شـك إلا آخـر خطـرات خياليـة لمريضة!

هكذا أرصدت هذا البرهان الدنس لأدمر به ما بقي في نفسي من تقوى على أني لم أكن في حاجة إلى براهين لأخضع إلى حمى رغبة كانت تشتد ازديادًا في نفسي أن هذه الخطابات هي آخر ما خطته يده والتي قد تكشف لي حقيقة حياته الشخصية حتى أمس الجناية الدامية التي وقعت عليه. فكيف تقع تحت يدي ولا أقرؤها؟

إن هذا ليكونن مدهشًا! كفى ما أنا فيه من تردد جدير بالأطفال!

وهكذا اقتحمت حزمة الخطابات ففضضتها فاضطربت الأوراق بين أصابعي!

وجدتها قد اصفرَّ لونها وبهتت كتابتها لطول الزمن. لكني عرفت كتابة والدي، وهي بحروف مربعة واضحة، ووجدت أنه كان قد أهمل تواريخ تحريرها فأثبتتها عمتي.

مسكينة تلك العمة التي يدل إيمانها بهذه العناية على مبلغ عطفها وحبها لأخيها والتي لم يدر بخلدي في حالة التهيج الجنوني الذي انتابني أني كنت على قيد خطوتين من حجرتها المأتمية!

وأتتني "جوليا" في هذه اللحظة طالبة أن أمدها بالتعليمات الخاصة بشؤون الجنازة فأجبتها أني في شدة الإعياء وأريد أن أترك وحيدًا في هذه الصبيحة ولها أن تفعل من الترتيب ما تشاء. ثم انهمكت في المطالعة انهماكًا أنساني الوقت وما كان يدور حولي من الحوادث، بل وأنساني تناول طعامي وارتداء ملابسي حتى فرض الذهاب لرؤية فقيدتي بينما كان في استطاعتي أن أمتع ناظري بمحياها...

نعم، مسكينة أيتها العمة التي بلغت حيالها غاية الجحود بل واقترفت أفظع خيانة!

وما كدت أقرأ الصفحات الأولى حتى أدركت السبب الـذي مـن أجلـه أرادت عمتي أن تحول دوني وتجرع السم الذي كان يقطر من كل جملة فيمتـصه قلبـي كما امتصه قلبها.

حقًّا، يا لها من خطابات هائلة مفزعة! إذ تخيلت منها أن شبح أبي قـد ظهـر أمامي يكلمني بـذلك اللـسان الـصامت، لـسان مـن يكـشفون عـن قلـوبهم عنـد اعترافهم ولحظت حادثة مفجعة تمثلـت أمـامي وكانـت بعـد مخبـوءة، حادثـة لم أكن أتصور مبلغ ما تحوي في طياتها من ألم وفظاعة.

كنت طفلًا عندما جرت الحوادث البسيطة التي أوقفتني هذه الخطابـات عـلى تفصيلاتها فلم يكن في مقدور عقلي الصغير حلُّ معمى الحالة التي كان عليها والـدي إذ ذاك. فإن الشخص الوحيد الذي كان يـستطيع اطلاعـي عـلى خفايـا هـذا التـاريخ القاتم هو بالتأكيد تلك التي تمادت في الكتمان حتى بلـغ بهـا الأمـر أن أخفـت عـليَّ جميع ظروف حياة أبي وخطاباته الجلية، تلك التـي فكـرت في هنائهـا الأبـدي والتـي كانت بغير شك تتهم نفـسها بجنايـة لإرجائهـا مـن يـوم لآخـر أحـراق هـذه الأوراق المشئومة فلما أن اعتزمت تنفيذ ذلك كانت الفرصة قد ضاعت وحمَّ القضاء.

أول خطاب مؤرخ في يناير عام 1864، وهـو مبـدوء بالـشكر لعمتـي للهديـة التي نفحتني بها في عيد ذلك العام وهي قلعـة بهـا جنـود صـنعت مـن الرصـاص كانت قد سرتني كثيراً كما يقـول الخطـاب إذ جـاء فيـه: "إن الفرسـان كـانوا عـلى قطعتين وأن الرجل كان ينفصل عن الحصان، إلخ".

ثم تحولت فجأة، جمل الشكر المعتادة إلى سيل منهمر مـن شـفقة يخالجهـا مزيد الألم. فإن النغمة التي كان يتحدث الشقيق بها إلى شـقيقته كاشـفًا لهـا عـن مزيد أسفه على طفولتهما الماضية وحيـاتهما المـشتركة، لتـشعر وحـدها بـأن روح هذا الشقيق كانت قلقة مضطربة عطشى إلى العطف ناقمة على ما كانت فيـه إذ ذاك. تفوح حقًّا من ذلك الخطـاب الأول رائحـة شـكوى مكظومـة أدهـشتني لأني كثيراً ما كنت أظن أن والـدي ووالـدتي كـان سـعيدين أحـدهما بـالآخر. لكـن، للأسف، لم تكن هـذه الـشكوى إلا لتتزايـد وتتحـدد مراميهـا أيـضًا. فقـد كـان والدي يراسل عمتي كل يوم أحد حتى ولو رآها خلال الأسـبوع. وكـما يحـصل في المراسلات الكثيرة المتواصلة كانت أقل الحوادث مـسجلة بظروفهـا الدقيقـة في هذه الخطابـات. لـذلك تـراءت لي مـن مطالعتهـا جميـع عاداتنـا وظروفنـا مشفوعة بتحليل مبعثه اضطراب الخاطر ينم عن كثير من سوء تفاهم متواصـل يعز إصلاحه بين ذينك اللذين كنت أظنهما على أتم وئام. وإني لأرى والـدي كـما كـان يـستقبلني في الـساعة الـسابعة مـن كـل صـباح بلبـاس الحجـرة الـذي

كان يرتديه عند تناوله طعام الإفطار معي فأقرأ أمامه دروسي بإيجـاز ثـم نجلـس إلى المائدة عارية فتقدم "جوليا" لكل منا كأسًا من الكاكاو ممزوجًا بالسكر وكانت رائحته تلذ أنف الطفل الشره الذي هو أنا. ثم أبرح المنزل إلى المدرسة. أما والـدتي فكانت تستيقظ متأخرة بعد ذلك بكثير، وأما والـدي فكـان يقـيم بغرفـة منعزلـة عن غرفتها لكيلا يوقظها مبكرة".

كم كنت شديد الاغتباط بطعام الإفطار حيث أثرثـر خلالـه بحريتـي مـتكلمًا عن واجباتي التي سـأؤديها ومطالعـاتي ومطالعـات رفـاقي، إني لأحفـظ حتـى الآن ذكرى تلك الدقائق السعيدة التي تمتعت فيها بذلك الحنـو الأبـوي الخـاص خاليًـا مما أنا فيه من متاعب وآلام!

وقد ذكر والدي أيضًا في خطاباته إفطارنا معًا كل صباح ولكنه، بصفته رجـلًا، كان يتألم إذ يستشف من محادثاتنا أن والدتي كانت قليلة الاهتمام بي وأني لم أكـن أشغل المقدار الذي أستحقه في حياتهـا كـامرأة، تلـك الحيـاة التـي كانـت تقـضيها مهتمة بالخيالي التافه من الأمور.

وكتب جملًا كان من شأن المستقبل أن جعلها نبوءة وهو مـا يحـزن إذ قـال: "تُرى ماذا يكون لو حُرِمَتْني؟".

كنت أعود من المدرسة في الساعة العاشرة فأجد والدي منهمكًـا في مزاولة أعماله ولأن عليَّ أنا أيضًا واجبًـا مدرسـيًّا أؤديـه فلـم أكـن

أقابله إلا في الساعة الحادية عشرة والنصف عند تناولنا الإفطار الثاني. وأما والـدتي فتكون في هذه المرة منشغلة بزينتها التي كانت تتقنها كل الإتقان حتى تتفق مع جمالها. ثم إنه فيما خلا ذلك وأثناء سني يفاعتي كانت هذه المائدة العائلية تبدو لي كأنما يسود عليها مودة خالصة وما كان ذلك إلا سرابًا.

أما ظل الحنين إلى ذلـك العهـد يـداعبني كلـما جلـست بـين والـدتي والـسيد ترموند عند تناولنا طعام الإفطار في العطلة المدرسية؟

والآن وجدت في خطابات أبي البرهان الدالَّ على أن الطلاق بين القلـوب كـان واقعًا منذ ذلك الحين بين والدي ووالدتي اللذين كانت محبتهما لي بـصفتي ابـنهما تربط قلبيهما بنوع واحد من العطف. حقًّا، تبينت أن ذلك الطلاق كـان موجـودًا فعلًا لا معنى بين قلبيهما أثناء تناولنا الطعام وسهراتنا نحن الثلاثة!

كان أبي هائمًا بحب زوجه شاعرًا أنها لا تشاطره حبه وهو مبعث آلامـه التـي لم يكن ينقطـع عـن الإفـضاء بهـا في هـذه الخطابـات ولكـن بغـير تلـك الطريقـة الوحشية الحاسمة المألوفة. وكف لا أدرك هذا التلميح من أقل الجمل وقد مررت في يفاعتي بظروف مدهشة في تشابهها بظروف ذلك الرجل؟

كان والـدي مـثلي صـموتًا بـل أشـد صـمتًا. وبـذلك أتـاح لـسوء التفاهم أن يتأصل بينه وبين والدتي. فما مثلـه إلا كمثـل ابـن قـروي

أصبح مهندسًا بقوة عبقريته لكنه كان غير درب يكاد يخنقـه الخجـل أمـام امـرأة هام بها وهي أرستقراطية متعجرفة تختلف كل الاختلاف عنه بيئة وشعورًا. مثلـه كمثل ذلك الابن عاميّ مثلي، لا أكثر، فعانى عذاب تلك الظـروف الخادعـة التـي لم يكن ينير ظلامها غير كلمات يقولها وهو عييٌّ لم يؤتَ شجاعة القول.

يا لها من حال تبعث إلى الإشفاق، أن يعـود القـدر فيقـضي أن تتجـسم عنـد الابن تلك الاستعدادات النفسية التي تجسمت عند الأب لتكون مـصيبة أحـدهما كمصيبة الآخر!

يا لسوء حظ هذا الوالد الـذي يـشبهني عظـيم الـشبه فـإن خطاباتـه كانـت مفعمة بحسرات وأنات لم تشعر قـط والـدتي لاسـتحالة اتـصال قلبـيهما، حـسرات وزفرات سداها الإخـلاص والـشفقة عـلى اسـتحالة هنـاء المـشاطرة في الحـب، بـل تأوهات وأنات صادرة من قلب يائس بسبب ذلك الانفصال القلبي الحاسم الـذي لم يكن مبعثه أخطاء متبادلة _والحب يغفر كل شيء_ ولكن منشأه ذلـك التبـاين العتيد بين طبيعتين متضادتين!

لم يكن يروقها شيء من صفاته بل كانت تعافه وهـو يعبـدها... ولقد خـبرت عـن كثـبٍ ظـروف عـائلات كثـيرة ضرب الخـلاف فيهـا بمعوله ولذلك أستطيع أن أدرك مبلغ الجحيم الخفي الذي كـان فيـه والدي ووالدتي فكنت أتمثل وجهيهما عـلى حقيقـتهما فـأرى التبـاين

العظيم بيـنهما، فوالـدتي بحركاتهـا التـي فطـرت عـلى شيء مـن التكلـف ورشـاقة أعضائها وشحوبها وصوتها المنخفض عن رغبة وجميـع مـا لا أحـيط بـه مـما هـو مجرد عن المادة في شخصها، وعينيها النجلاوين اللتين كانتـا تـستطيعان أن تظهـرا بروداً واستهتاراً. وأبي، ذلك المُجد ذو الكتفـين العريـضين القـويين وقـد فطـر عـلى الإغراق في الضحك عندما ينقاد لتأثير السرور، وذلـك الخلـق الـذي درج عليـه ذو المهنة، والذي هو به من عامة الشعب أفكاراً وخصالاً وحركات ولساناً. لكـن هـذا العامي كان مثال النبل والرقي بمشاعره الكريمة وما جريمته إلا عِيُّه في إظهار تلـك المشاعر.

ما أحقر تلك الأسباب التي ترتكز عليها السعادة المطلقة أو سـوء الحـظ العتيد! فقد وجدت خـلال الخطابـات الأولى اسـم الـسيد "ترمونـد" يـسطره مراراً قلم والدي وهاك الخطاب الحادي عشر أو الثاني عشر، لا أتـذكر أيهـما، تنفجر منه صرخة الألم الحادة التي وثب لشدة وقعها قلبي وارتعدت لهولهـا فرائصي وانهمرت لمرارتها دموعي. نعم، فإن ذلـك الـزوج، الـذي هـو والـدي، وقد نفد صـبره بعـد طـول الكـتمان، اضـطر إلى الإفـضاء لـشقيقته الوديعـة الوفية كاتمة سره ونجيته الوحيدة بما تسلط على قلبه من سلطان الغيرة وإن كتابتـه نفـسها بمـا هـي عليـه مـن اضـطراب لتـشعر بـأن التـأثر والألم كانـا متغلغلين في فؤاده.

إذن، كان غيورًا وممن؟ من ذلك المدعو "ترموند" نفسه الذي جاء يومٌ حل فيه محله في منزله فسمى باسمه تلك التي كانت تسمى "السيدة كورنيليس". كان غيورًا من ذلك الرجل السنوري المسلك باهت الحدقتين والذي أوحى إلى غريزتي مذ كنت طفلًا بحقد أصيل قبل أن أعرف الحقد! نعم، كان غيورًا من "جاك ترموند"! نعم، كان يذكرها تلك الغيرة بذلك الاعتراف الفجائي، بتلك اللهجة المريرة التي تخفف عن القلب آلامًا طال به زمن إخفائها! ففي هذا الخطاب بدء سلسلة طويلة من الظروف لولا الموت لما قطعت. فقد ذكر والدي تاريخ هذه الغيرة البعيدة وكيف أتيح له أن يفاجئ نظرة من ترموند شمل بها والدتي. كذلك قال إنه كان يظن منذ تلك اللحظة أن غرامًا ناشئًا دب في قلب ذلك الرجل. ثم قال إن "ترموند" كان قد سافر في سياحة طويلة وأنه، أي والدي، عزا هذه الغيبة إلى شريف خلق صديق مخلص، إلى جهد نبيل أراد به ذلك الصديق أن يقضي على ميله الإجرامي في مهده. إلا أن "ترموند" كان قد رجع وعادت زياراته إلى المنزل رويدًا رويدًا حتى أصبحت متواترة ولا بدع فقد سمح كل شيء لذلك الرجل بتلك الزيارات المتواترة! إذ تخذه أبي زميلًا ودودًا منذ كانا يتلقيان دروس الحقوق وربما اختاره شاهدًا في زواجه لو لم يكن غائبًا خارج فرنسا في تلك الحقبة في وظيفته السياسية. كذلك قد اعترف والدي في ذلك الخطاب وفي الخطابات التالية بأنه أحبه حبًّا صادقًا لدرجة أنه عدَّ غيرته منه عيبًا أو خيانة.

وكثيرًا ما يوبخ الإنسان نفسه لألم يساور فؤاده بينما يمزقه ذلك الألم ويُفنيه بالرغم من هذا التوبيخ!

ازدادت الغيرة في قلب أبي منذ عودة "ترموند" كما ازداد معها وثوقه بأن حب باعث هذه الغيرة كان يزداد أيضًا. لكن أبي البائس لم يكن يظن أن له حق إقفال الباب في وجه صديقه. أو ليست زوجه أنقى النساء وأشرفهن؟ أما كان يعد مبالغتها في التصوف وحماستها للدين ضمانة تقيها من تلويث ضميرها مع أنه كان فيما مضى يعيبهما عليها؟ على أن إدمان "ترموند" على زيارتنا كان مشفوعًا باحترام مطلق بحيث لم يكن ليشم منه أقل دافع للوم. فما العمل إذن؟ أيتفاهم مع زوجه وهو الذي كان يكاد يختنق من اضطراب قلبه لأقل خاطرة تدفعه إلى مناقشتها ضد طهارتها؟ أيطالبها بالكف عن مقابلة صديقه هو؟ إنها إذا خضعت لإرادته فإنه يكون قد حرمها سلوى حقيقية. وإذ ذاك فلن يسامح نفسه لهذا الحرمان. وإذا لم تخضع؟

وهكذا فضل أبي البائس أن يجاهد في احتمال آلام الضعف والتردد، اللذين يتمرغ في وهدتهما إلى الأبد من جبلوا على الصمت والخجل، على أن ينفذ ما سولت له به نفسه من التفاهم مع والدتي ومطالبتها بصد صديقه. لكنه كان يفصل نواحي بؤسه تفصيلًا إلى عمتي مسرفًا من شرح مشاعره الضعيفة متوسلًا إليها أن تمده بنصيحة أو أن تمنحه قبسًا من شفقتها، مقرًا بأن غيرته إنما هي صبيانية مستهزئًا

بهذه الغيرة مع أنه نهب لآلامها عاجز عن إخفاء هذا القرح الدامي في فؤاده أو التغلب عليه، يتلمس قوة الاحتمال التي قد يكون فيها شفاؤه فلا يجدها.

ثم ازدادت حالته النفسية حزنا في خطاباته التالية. وكما يصيب من لم يبادر بوضع حد لحالة خادعة، اشتد أنين والدي لأخته من نتائج ضعفه الذي كان ينمو ويشتد خطره دون أن يتخذ فيه خطة حاسمة خشية الوقوع في مشادات عنيفة فظيعة. فإنه بعد أن تسامح في أن يكثر صديقه زياراته تولاه شديد الغم لأنه تحقق أن زوجه قد تأثرت إذ كان يراها مستمدة نصائح "ترموند" في أتفه الأمور كما أنه كان يجد أثر هذا الرجل في جميع ما طرأ على ذوقها من التغيرات كالموسيقا مثلًا فإنه كان يحب عندما نكون وحدنا مساءً أن تجلس إلى البيانو وأن تعزف طويلًا ما تشاء من الأنغام، لكن والدتي أصبحت لا تعزف إلا ما أرشدها إليه "ترموند" الذي أحرز معلومات عميقة عن الموسيقيين الألمان بخلاف أبي الذي نشأ وتعلم في الأقاليم بجانب أخته، فكان أمينًا على احترام الموسيقيين الإيطاليين. ثم إن والدتي كانت من طبقة تختلف عن التي أوجدها فيها والدي فأسفت بادئ الأمر على اندماجها في هذه الطبقة مع عذوبتها الغريزية وجمالها الباهر الذي أيد لها مركزًا ساميًا فيها، لكن الأمر قد تحول بسبب مودتها مع "ترموند" الذي كان ينتسب إلى طبقة أكثر لباقة إذ جددت لديها هذه المودة جميع عوائد المتأنقين. فقد رأى أبي أنها تملُّ وهي في بهوها الخاص

وأنها كانت تقابل فيه الزائرين مـشتتة الفكـر. كـما أنهـا كانـت تهـزأ بـدهاء مـن جميع ما بقي في أفكار أبي من تلك النظم الخيالية الحرة. كما أنـه كـان يستـشف وراء مشاعرها الفنية الجديدة شـبح "ترمونـد" أيـضًا. فكـان يـصمت صـابرًا لكـن خجله الدائم أمام والدتي، ذلك الخجل الذي كان هو فريسته، كان يهتاج في نفسه الملتهبة غيرة. وكلما اشتد بؤسه ضعف عن إظهار ألمه. فهناك نفـوس تـشلها الآلام فتمنعها من العمل لأنها هكذا خلقت. ثم إن أبي كان يرجـع إلى نفـسه فيـسائلها: "ما العمل وبأية محاولة يبدأ بالتفاهم ما دام لا يجـد شـيئًا ثابتًـا يقولـه ولا لومًـا حقيقيًا يستطيع توجيهه؟ وهـل في الاسـتطاعة توجيـه اتهـام عـلى أمـور لا يمكـن إثباتها بأسانيد معينة"؟ ثم إنه كان مقيمًا على ثقتـه بطهـارة زوجـه وكـان في كـل صحيفة مـن صـحف خطاباتـه يؤكـد احترامـه الكامـل لهـا متوسـلًا إلى عمتـي ألا تسحب فتيلًا من محبتها إلى عزيزته "ماري" وألا تظهر أمامها أقـل تلمـيح إلى آلام يخجل هو نفسه من الجهر بها. وكان يكثر مـن القـول عـن أخطائـه هـو، ويـتهم نفسه بأنه لم يؤتَ من الشفقة القسط الكافي فلـم يـستطع أن يـستميلها. وهكـذا ترى صورًا من آلامه القلبية تبدو من خلال كلماته مع خضوع محزن.

كذلك كان يشرح لأخته حالته النفسية أثناء وجوده مـع والـدتي في المساء وهو ينظر إليها فيراها مضطجعة بين الوسـائد الـصغيرة المطـرزة في مقعد ذي مساند وهي في زينـة واضـحة مـسندة رجليهـا إلى مقعـد هزاز تقرأ على ضوء مصباح. مـاذا تقـرأ؟ روايـة اقترضـتها مـن ترمونـد!

وأنها أثناء قراءتها تداعب شعرها ذاهلة منصرفة عن أبي بمقطع ورق من الصدف المموه بالذهب مقدم إليها هدية في رأس السنة من "ترموند"!

فكان أبي يضع المجلة التي تكون بيمينه ويحاول أن يجد جملة تصله بهذا المخلوق الذي كان يشعر بأنه بعيد عنه، بل غريب مع أنه كان يحبه من أعماق قلبه. لكن هذه الجمل التي يتلمسها أبي فلا يجدها لا تلقى مفاجأة ولا في حالة برود كهذه فالرجل الذي أوتي رقة العاطفة مع عزة النفس لا يجد من شعوره قوة تساعده على أن يكشف عما بقلبه من عذاب إلا والقلب على القلب والأيدي متضامه بين مداعبات الحب وأن يكون ذلك المحب غير مستجد شفقة ولا عطفًا، تلك هي الغيرة مع حفظ المكانة.

أما الآخرون، أولئك المتوحشون الذين حرموا دقة المشاعر فلا يقيمون لمثل هذه الوساوس وزنًا بل يجهر كل منهم "بأنه غيور" دون أن يخامره أقل ريب في أن كان ذلك مهينًا أو غير مهين ثم هم يغلقون أبوابهم في وجوه من لا يروقونهم ثم يوجه كل منهم لزوجه هذا السؤال: "أو لست أنا السيد"؟ هذا السؤال الإنكاري الذي ينطقه مرحًا دون أن يدرك وقعه السيئ في نفسها فهل أولئك محقون؟

لم تكن هذه الوحشية، على كل حال، من خلق أبي. فإنه كان يأنس في نفسه الكفاية من القوة ليظهر إلى "ترموند" بوجه عابس ولا

يكلمه إلا بملل ولا يمد لـه يـده إلا بـذلك الأدب المـصطنع الـذي يحفـر هـوة بـين صديقين مخلصين. وبالرغم من تجاهل "ترموند" فإن والدي لم يكن يريد الاصـطدام معه في خصام قد ينشأ عنه خصام آخر مـع والـدتي، بـالرغم مـن ذلـك كـان والـدي يتمادى في معاملته بمثـل هـذه الإهانـات التـي لا يـشعر بهـا سـواهما. لـذلك كـان "ترموند" في حل من الحضور في الساعات التي كان فيها رجل الأعمال رهين مكتبه.

كذلك قص أبي على عمتي ما كان فيه من جنون الـسخط الـذي يكـاد يقتلـه من أن زوجه وذلك الذي كان هو منه غيورًا كانا يتحدثان معًا وحيدين بين أزاهير البهو الصغير، بيـنما هـو، ذلـك البـائس يفنـي صـحته في أشـق عمـل لا لـشيء إلا ليحقق ويديم سلطان الزينة والسؤدد للتي لن تحبه وإن كانت تحمل اسمه وهو مؤمن بأنها أمينة على عهده. لكن هذا الأب المسكين لم يكن ظـمآن لأمانـة بـاردة كهذه لا تحييها حرارة الحـب إذ اختـتم خطابـه الأخـير بهـذه الجمـل التـي طالمـا كررتُ قراءتها: "إنه لمؤلم جد الألم أن يشعر المرء أنه غريب في منزله وأن له امـرأة بجميع الحقوق تقوم نحوه بجميـع مـا فرضـته عليهـا واجبـات الزوجيـة دون أن تمنحه قلبها الذي منحتـه إلى غـيره. وقـد يكـون ذلـك دون أن تـشعر. ذلـك إذا لم تكن... وإني كما ترين يا شقيقتي تمـر بي سـاعات فظيعـة تحـدثني فيهـا نفـسي بـأني أبله، جبان وأنه عشيقها وأنهـا خليلتـه وأنهـما معًـا يـسخران منـي ومـن غبـاوتي في ائتماني وما أنا فيه من العمى... لا تلومينني أيتها المسكينة "لويز" إني أعترف بأنه شك

خائن ولذلك أطرده من مخيلتي بالتجائي إليك، إليك أنت التي ليس لك سواي في هذا العالم".

إذا لم تكن؟ وكان هذا الخطاب مؤرخًا في أول يوم أحد من شهر يونية عام 1864 وبعد هذا اليوم بأربعة كان ذلك الذي خطه بيمينه وتحمل تلك الآلام سائرًا إلى ذلك الموعد الذي قدِّر أن يلاقي فيه حتفه، وأن تنتظره فيه منيته الخفية التي أتاحت لأرملته الزواج بصديقه الخائن...

لكن يا له من شك فظيع بل خائن كالشك الذي كان والدي في خطبه الأخير الهائل يتهم به نفسه، قد ثار في نفسي على أثر قراءتي هذه الخطابات!

وضعت على المدفأة حزمة هذه الأوراق التي كشفت لي عن حقيقة ما بنفسه وأمسكت رأسي بيديَّ وإذا بعاصفة من التصورات الفظيعة قد مرت بهذا الرأس الذي كنت أشعر فيه بتطاحن غليان الدم مع الحمى.

آه! ما أشنعه بل ما أشأمه بل ما أحطه أمرًا! فإني ما كدت أتخيله حتى ارتميت إلى الوراء...

وا أسفاه! ألم تعاني عمتي انقضاض هذا الشك البشع عليها؟ على أنه قد جرأني على ترك هذا الشك الممقوت يخامرني بالرغم مني ظروف تافهة ثارت ذكرياتها بمخيلتي مظهرة عمتي فريسة.

كـم مـن أمـور غريبـة أدركتهـا فجـأة ولم أكُ أدركهـا قبـل مطـالعتي لهـذه الخطابات! وإلا فلماذا، عندما أعلمتني عمتي بزواج والدتي، ونطقتُ إذ ذاك فجأة بهذا الاسم الملعـون، اسـم "ترمونـد"، دُهـشت وسـألتني بـصوت مـضطرب يكـاد يخامره الفزع: "ما مبلغ علمك"؟ ماذا كانت تخشى إذن من تنبئي؟ ما هذا الـشيء المخيف الـذي كانـت تريـد أن تستـشفه مـن وراء ملاحظتـي البريئـة الـصبيانية؟ وأخـيرًا، عنـدما كانـت تـستحلفني ألا أعنـى بالانتقـام لفقيـدنا العزيـز مكـررة لي الكلمات المقدسة: "أنا أجازي، يقول الرب"، من هو ذلك المجرم الذي كانت تظـن إذن أني سأصادفه؟

وعندما كانت تتوسل إليَّ بمحاسن زوج أمي وألا أتخذ منـه عـدوًّا، فهـل كانـت تريد بهذه النصائح مجرد تيسير معاملاتي اليومية أو كانت تظن خطرًا قـد يتهـددني من تلك الجهة؟ ولمَّا كانت تتكاثر المخاوف في رأسها وقد أضعفه المرض فتـدفعها إلى تكرار النصيحة إليَّ أن أحترس عند خروجي كل مساء، أي وهم مخيـف كـان يخـالج ذلك الرأس فيظهر له في جنح الليل يدًا أثيمة قادرة على الـبطش بي هـي تلـك اليـد التي انتزعت حياة أبي؟ ولما كانت في أخريـات دقـائق حياتهـا تجمـع قواهـا لإعـدام هذه المراسلات، ما هو ذلك الأثر الذي كانت تظن أنها سترشدني إليه؟

لقد وضح كل شيء فجأة وضـوحًا رائعًـا... إن مـا أدركتـه عمتـي من هذه الخطابات قد أدركته أنا منها. آه، لم أخـشَ أن يـساورني مـا

ساورها وإني لخجل الآن أن أكتب ما خامرني. ولكن كيف كنت أستطيع تفادي منطق يوحي به ذلك الظرف؟

لو عهدت عمتي بهذه الخطابات إلى القاضي، أما كان قد يتاح له أن يرى في الحال ما لم أستطع إلا افتراضه ومرتكني فيه الدليل المنطقي لظرف الجريمة؟

قتل رجل لا أعداء له ولزوجه عشيق وبعد القتل حالًا تقريبًا تزوجت بذلك العشيق. فلو قرأ القاضي هذه الخطابات وعلم أن الزواج حصل حالًا لما تردد لحظة لا هو ولا غيره في الحكم بأن السرقة ليست الباعث على الجريمة وأن الزوجة والعشيق هما القاتلان. فلماذا إذن لم تقدم عمتي هذه الخطابات _وكانت بين يديها_ إلى العدالة؟

لقد فهمت السبب، إنها لم ترد أن يساورني من جهة والدتي ما ساورني بعد قراءتي هذه الخطابات. نعم لم ترد أن أدرك أن والدتي خدعت أبي وأنها كانت خليلة "جاك ترموند" وأن هذا سر جريمة القتل. إذ أن في إدراكي بأن ذلك مستطاع قتلًا أدبيًّا لأمي وخطيئة لا تغتفر نحو تلك التي أخرجتني من أحشائها وأرضعتني لبنها.

لقد أحببت أمي كثيرًا بل أحبها دائمًا بشفقة وحزن! كلا! كلا! لن أحكم عليها هذا الحكم. فكم من مرة جلست بجانبها ولا ثالث بيننا دون أن أستطيع الإفضاء إليها بما يضني قلبي. وكم ساورني أن

العقبة بيننا لن تفصلنا إلى الأبد! وإني قد أصبح يوما ما سندها الوحيد فتدرك إذ ذاك كم بقيتْ عزيزة عليَّ فلم تنقص آلامي شيئًا من شفقتي عليها. وبفرض أنها قد تضن عليَّ بعطفها فأصبح بائسًا فلن أقتص منها لإغداقها هذا العطف على آخر. فإن هناك فارقًا في وقع الألم الذي يصيب الآلم من مخلوق يحبه في حالي الخير والشر وتفاوتًا عظيمًا بين الشعور بأن ذلك المخلوق شريف أو سافل فيما ينفذ فينا من الآلام.

وأخيرًا، قبل أن تنفذ هذه الخطابات المشئومة فيَّ عملها الساحر، ساءلت نفسي بماذا أجرمتْ هذه الأم في نظري؟ أبأنها تزوجت؟ أو بأنها أرادت، وقد ترملت ولمَّا تبلغ الثلاثين ربيعًا، أن تعيد شباب حياتها؟ ليس في هذا إلا ما هو مشروع.

أأجرمت لأنها لم تدرك إلا رابطة بين الطفل الذي بقي لها وبين الرجل الذي اختارته زوجًا؟ ليس هذا إلا طبيعيًّا.

كانت زوجة أكثر منها أمًّا، ومن الناس من هم مثلها أسراء الوهم ضعاف يخشون معارك الحياة ويؤثرون عليها تجاهل الواقع الذي قد يفرض عليهم أن يتسلحوا بالقوة للثبات في تلك المعارك كل لحظة. لذلك قبلت بدافع من غريزتي أولًا وبعد التفكير ثانيًا هذه التعليلات المختلفة مبررة لموقف أمي حيالي. فيا له ينبوع من الرحمة ينبثق فينا حارًّا لا ينضب نحو من نحبهم حبًّا متأصلًا في أعماق قلوبنا! نعم، كاد

هذا الينبوع العذب السائغ ينضب وتحل محله أمواج شديدة مرة المذاق تتـدفق في نفسي مسممة بـأحقر أنـواع الـشكوك... لـولا أن غـارة هـذه الفكـرة الفظيعـة المفاجئة لم تدم طويلًا. وإلا لما استطعت مقاومتها. بل لو تأصلت في نفـسي بهـذه الوضاحة بحيث يعز عليَّ دفعها لصوبت على نفسي غـدارة فقـضيت مـرة واحـدة على ألم يتجاوز مدى التعذيب.

على أني مكثت نهبًا لهذا العذاب طوال اللحظات التي تلت قراءتي للخطابات ثم خفت وطأة النوبة فاستطعت أن أتبصر وفي الحال كافحت شفقتي نحـو أمـي ذلك الكابوس الفظيع فقد قاومت هجوم هذه التخيلات المعيبة ببراهـين غايـة في الدقة، إذ تذكرت بجلاء تلك اللحظات التي رأيت فيهـا والـدتي أمـام والـدي لآخـر مرة وكانا جالسين إلى المائدة يتناولان طعام الإفطار حيث وقف أبي ليذهب هناك نحو القاتل. ألم تكن أمي في ذلك الصباح ضاحكة كعادتها؟ ألم يكن "جاك ترموند" قد أفطر معنا؟ ألم يبق بعد ذهاب والدي يتحـدث إلى والـدتي حـين كنـت ألعـب، بينما كان المجهول "روشدال" في هذه اللحظة عينها بين الساعة الواحدة والـساعة الثانية، يقترف الجريمة.

وبدهي أن "ترموند" لم يكن ليـستطيع أن يكـون في الوقـت نفـسه في منزلنـا وفي النزل الملكي كذلك لم تكن والدتي لتستطيع _وأعرفها دقيقة الإحـساس سريعـة التأثر_ أن تتحدث مطمئنة سعيدة، لو كانت تعلم أن زوجهـا قتـل غيلـة في تلـك الساعة...

لقد كنت مجنونًا حقًّا إذ تركت شبح هذا الشك الممقوت يرتسم أمـام عينـيَّ لحظة، بل كنـت خائنًـا إذ تجـاوزت في لحظـة أشـد وسـاوس أبي إهانـة دون أقـل برهان غير ما بنفسي من غيرة لا يبررها العقل. حقًّا لقد جاوزت حدًّا لم يجرؤ ذلك الوالد المحب التعس على تجاوزه وبذلك بلغت في إهـانتي لوالـدتي أقـصى حـد إذ ظننت أنها كانت خليلة "ترموند"! وهب أن قد داعب قلب ذلك الرجل _في حياة أبي_ حب لها فهل يتحتم الحكم بأنها شاطرته إياه؟ وهب أن هـذا صـحيح، فهـل يؤيد أنها خضعت لتأثير هذا الحب لدرجة التفريط في شخصها؟

لا ريب في أن النساء اللاتي هن كوالدتي دقيقات الشعور عائـشات في ميـدان الحياة الحقيقية، يداعبهن _عـن رغبـة_ سراب العواطـف الخياليـة موقنـات أنهـا طاهرة لخلوها من كل عمـل خـاطئ. فلـماذا إذن لا تكـون قـد أحبـت "ترمونـد" بإحدى تلك العواطف مع بقائها شريفـة وفيـة لفـروض الزوجيـة وإن استـسلمت بفكرها فقط لمودة كان طبيعيًّا أن تثـير غـيرة زوج بقـي مـع ذلـك ضـنينًا بـشرف زوجه أن يلطخ؟

وهكذا برأتها، لـيس مـن تهمـة الاشـتراك في الجريمـة فحـسب، بـل ومـن أي تقصير في فروضها موقنًا بأنها لو كان لها خليل لباد حبها من قلبي...

ثم عـادت أفكـاري فتغـيرت إذ ذكـرت صرختهـا أمـام جثـة أبي قائلـة: "ليعاقبني اللــه..."، ولم أفـترض كرمًـا أن هـذه الـصرخة قـد تكـون بريئـة

ويكون مبعثها وساوس إنسانة حانقةٍ تؤنب نفسها حتى على ما يخامر رأسها. كما تذكرت عيني "ترموند" وكانتا لامعتين ويديه وكانتا مضطربتين عند كلامه مع والدتي عن اختفاء أبي. فقلت في نفسي: "لعلهما شريكان في قتل أبي يمثلان أمامي دور المواربة، وأنا ذلك الشاهد البريء، ليثيرا كلامي عند الفرصة كطفل أن لهما في ذلك صالحًا مشتركًا قويًّا".

وهكذا عاد إليَّ الشك بهجومه مفجعًا حتى كاد يقذف بي في وهدة التهلكة! لكني أرصدت في سبيله الحوائل فجمعت عوامل التفنيد التي عرضت لي من وجود "ترموند" بمنزلنا وقت وقوع الجريمة ومن أن اشتراكه إذن غير معقول. وكذلك غير معقول ما اتهمت به والدتي حتى قررت بأنه من المستحيل أن يكون لهما أقل دخل في جناية القتل، نعم مستحيل، مستحيل، مستحيل... وأخذت أكرر هذه الكلمة بجنون فعادت إليَّ الأوهام أشد فزعًا! ولا غرابة فقد تمر بالنفس وهي تحت إصر ما استولى عليها لحظات تفقد فيها مهارة التغلب على أوهام توقن هي أنها كاذبة فيختلط فيها الخيالي بالحقيقي فتعجز عن التمييز بينهما كأنما هي رازحه تحت كابوس أو في حالة فزع لا مبرر له.

فمن ذلك الذي تولته الغيرة ولم يشعر بعجزه عن الحكم؟

ما أشد ما عانيت من الآلام بقراءتي هذه الخطابات! فقد كنت أجول خلال المنزل مصعوقًا بحالة خُيِّل لمن حولي أنها بسبب فرط

حزني على عمتي. وقد حاولت مرارًا الجلوس إلى سرير الفقيدة فلم أستطع لأني خفت أن تتجدد في نفسي تلك الشكوك السافلة عند رؤيتي وجهها وقد زاده الموت أسًى وحزنًا... لكن وافتني عند الساعة الرابعة إشارة برقية من والدتي بأنها ستصل بقطار المساء. فهدأ قلقي لحظة فناجيت نفسي: "إنها لآتية! عُنيت بآلامي! إنها لآتية!" وأخذ الاطمئنان يبدد شكوكي. ثم عدت فقلت في نفسي: "إني سأراها! فهل ستقرأ في محياي تلك الشكوك الخاطئة"؟

لكن تلك الأوهام الحمقاء الساقطة ما لبثت أن عاودتني فأخذت أقول في نفسي: "إنها وترموند"، إذا كانا مجرمين، فلا بد أنهما حسبا لبعد نظر عمتي حسابًا، فجاءت هي لأخذ المراسلات والدي قبل أن تقع في يدي ولتعرف ما أفضت به إليّ عمتي وهي على سرير موتها. وإني وإن كنت عظيم البؤس في طفولتي، إلا أني وددت لو أعود فأصبح ذلك التلميذ الذي كان كثير التأمل طول مدة الدراسة في برود زوج أمه. نعم قد كنت أوثر ذلك على أن أكون ذلك الشاب الذي كان يمشي بعد قراءته تلك الخطابات في محطة "كومبيني" الواسعة في انتظار أم تحوم حولها شكوكه!

ألم أكُ خليقًا بالمغفرة بعد ما عانيت من عذاب على الأقل في تلك اللحظة تكفيرًا عن ذنبي؟

(10)

كان قطار باريس يقترب فأسمع ضوضاءه المكتومة وأرى دخانه يعقد في الجو غيومًا تحجب النظر حتى تخطى المكان الذي كنت فيه ثم وقف وصاح عامل "الفرملة" باسم المحطة ورقم ساعة الوصول وبعد أن انتهى من فتح أبواب العربات وكنت لشدة مللي أراه بطيئًا، بحثت عبثًا عن والدتي متنقلًا من عربة لأخرى فناجيت نفسي: "ألم تكن أصرت حتى آخر لحظة على الحضور"؟ يا لها من محنة أجتازها إذا كان هذا صحيحًا! ويا لها من ليلة سأقضيها فريسة لهذه الشكوك المرهقة التي لا يبددها سوى حضورها! لكني سمعتها تناديني فألفيتها مرتدية ملابس قاتمة فألقيت بنفسي بين أحضانها مع كوننا في محل عام وهو ما لم يسبق لي، ناسيًا كل شيء حتى سبب حضورها، مغتبطًا، فرحًا بما كنت أشعر به من أن وساوسي الممقوتة أخذت تتبدد أمام هذا الكائن الذي أحبه إلى حد العبادة، بالرغم من صنوف سوء التفاهم، وعلى الأخص الآن إذ فقدت شقيقة أبي.

بعد هذه الحركة التي تكاد تكون صبيانية والتي تشبه تعلق الغريق بالغواص الذي يتقدم لنجاته، نظرت لوالدتي دون أن أنبس بكلمة ممسكًا بيديها فرفعت خمارها فرأيتها شديدة الشحوب تذرف الدموع غزيرة فأدركت أني بوساوسي كنت ضالًّا معتوهًا.

نعم، تحققت مـن ضـلالتي وحماقتـي وعـلى الأخـص عنـد مجـرد اسـتماعي للجمل الأولى التي نطقتها واصفة بها شدة ألمها بحنو بالغ قائلة إنها عنـدما طـرق آذانها الخبر المشئوم اعترمت الحضور في الحال بالرغم من مرض زوجهـا _والـسيد "ترموند" صار منـذ عـامين هـدفًا لنوبـات حـادة ناشـئة عـن التهـاب الكبـد_ إلا أن المـسكينة لم يمنعهـا لا مـا عانتـه مـن حـزن بـسبب الفاجعـة التـي أنبأتهـا بهـا ولا اهتمامها بصحة زوجها من أن تحضر معها في هذا السفر قصير الأمد تلـك المعـدات البسيطة التي اعتادت أخذها معهـا في كـل سـفرة ضـمانًا لرفاهيتهـا وزينتهـا. فقـد كانت خادمتها ومعها حمَّال يحملان حقائب مختلفة الحجوم مـصنوعة مـن الجلـد الإنجليزي محكمة الإغلاق في أكياس مـن قـماش وهـي صـندوق وصـندوقة صـغيرة تحوي أدوات الكتابة وخرج صغير لكيس الـدراهم والمنـديل والكتـاب والخـمار ثـم إناء الماء الساخن لتدفئة الرجلين ووسادتان للرأس وساعة حـائط صـغيرة في جرابهـا. ثم قالت: "أنت تعرف خصالي" كذلك قالت مشيرة لثوبها وكان من الصوف كستنائي اللـون بـه نقـوش سـوداء: "لـن تـصلني ملابـس الحـداد إلا غـدًا في أول سـاعة مـن النهار... لأن الوقت لم يكفِ لإعدادها قبـل سـفري" ولمَّـا كنـت أجلـسها في العربـة أضافت: "توجد أيضًا علبة قبعات وصندوق..." وكانت تبتـسم لي قلـيلًا لأبتـسم أنـا الآخر. فجددت هذه الحقائب التي لم تكن ثمة حاجة إليها مـا كـان يثـور بيننـا مـن معاندات لطيفة فيما مضى. ولـولا أني كنـت مـضطرب الفكـر لآلمنـي أن أجـد فيهـا،

بجانب علامة العطف التي منحتني إياها بحضورها، الأثر الثابت لما هي عليه من الخفة التي جبلت النساء عليها. أما كانت هذه الخفة من أسباب مصائبي؟ على أني كنت _بعكس ما مضى_ أتلذذ في تلك اللحظة بمراقبتها في طيشها قائلًا في نفسي: "أهذه هي تلك التي كنت أتخيلها منذ لحظات مقبلة نحوي تحمل في رأسها تلك النية السوداء، نية التنقيب عن أوراق المتوفاة وسرقة ما قد تجده فيها مثبتًا للتهمة وإدانته؟ أهذه هي تلك التي كنت في الصباح أظنها مجرمة تحمل وزر أشد جنايات القتل سفالة؟ حقًّا، إني كنت ضالًّا مجنونًا وما كان مثلي إلا كمثل حصان هائج يجري وراء ظله. لكن ما أعظم غبطتي براحة سريرتي حتى كدت أنسى تلك الفقيدة العزيزة! فإني مع حزني العميق لوفاة عمتي كنت سعيدًا بوجودي مع والدتي بتلك العربة القديمة التي كانت تقلنا مخترقة شوارع المدينة التي كانت نوافذ منازلها المضاءة ترسل أنوارها في دُجنة الليل. فلقد كانت والدتي تعزو شدة تأثري لمصيبتي بفقد عمتي فتواسيني بعطفها الجم وأنا ممسك يدها شغوفًا بأن أستميحها الغفران مكررًا عظيم حبي وإجلالي لها. ولا غرو فكان جد نادر أن أشعر بها هكذا لي وحدي وهي من الحنو والحب عليَّ ما كانت تتمناه مشاعري المريضة.

كنت أمرت أن تعد لها الحجرة الكائنة بالطابق الأرضي الملاصقة للبهو لأنها حلت بها مع والدي بعد قرانهما بأيام قلائل إذ حدثتني نفسي بأن ما يحدثه فيها من التأثير منظر المنزل أولًا ومنظر الحجرة ثانيًا

قد يساعدني على تبديد شكوكي. كذلك كنت أقسمت أن أدون بمزيد من الدقة أبسط الاضطرابات التي قد تعتريها عندما تثور في مخيلتها ذكرى ماضٍ يعود من جديد بمناظر الأشياء التي لا تتغير بسرعة تغير قلب المرأة. لكنني تولاني أفظع خجل لتجسسي على والدتي وظني بها السوء غير محترم ما هي عليه من إخلاص وإيمان لا ريب فيهما.

حقًّا لقد أصبحت أشعر بضلالتي آسفًا على ما فرط مني ضد بريئة ألفيتها أقل مراقبة لنفسها وهو عكس ما جرتني إليه الوساوس، فقد دخلت الحجرة هادئة لم يعرها أقل اضطراب فجلست أمام المدفأة باسطة رجليها الناعمتين نحو اللهيب الذي كان يكسو خديها الشاحبين بلون وردي. وكانت ما تزال بما هي عليه من شعر ظل أسود وقامة بقيت شابة حافظة بهاء تينك الرقة والأرستقراطية اللتين كان يتكلم عنهما أبي في خطاباته.

نظرت طويلًا حولها وهي عالمة بأغلب الأثاثات التي أبقتها شفقة عمتي في أماكنها ثم قالت بصوت حزين: "ما أجملها ذكريات"! لكن التأثر الذي ارتسم على محياها لم يكن مرًّا. كلا! لم يكن يقرأ في عينيها ولا في محياها أنها امرأة خانت زوجها وأوعزت فقتل غيلة بعد أن عاشت في هذه الحجرة عشرين عامًا بجانبه!

وهكذا لم يمر بي طول هذه الليلة من أحقر الأمور إلى أجلِّها إلا ما أيَّد لي أني بتخيلاتي الصبيانية المخدشة للشرف قد وشيت بقحة

ضد من كان من أوجب فروضي تقديسها. وكانـت "جوليـا" قـد أعـدت لنـا خوانًـا للعشاء كالذي أعدته لي بالأمس مصرة على القيام بخـدمتنا معًـا كـما قامـت عـلى خدمتي بالأمس. فكنت أنظر إليهما وهما أمام بعضهما، الخادم العجـوز ومولاتهـا القديمة. ومع أنهما كانتا فيما مضى متنافرتين في الطباع فقد شعرتا بغبطة عظيمـة بتلاقيهما وعلى الأخـص المـسكينة "جوليـا" الـساذجة فقـد كـان سرورهـا بالغًـا إذ انتبذت بي مكانًا خلال بضع دقائق قبل تناولنا الطعـام لتكـشف لي عـن مبلـغ مـا شعرت به من التأسي في حزنها بسبب رؤيتها والدتي الشفيقة وبقيامهـا هـي عـلى خدمتنا ونحن جالسان معًا إلى مائدة واحدة كما كنا نجلس فيما مضى.

فلو كان في صحيفة والدتي شيء من تلك الأسرار الأثيمة التي يتنبأ بها الخـدم المخلصون أكثر من غيرهم لما جهلته تلك الخادم الشريفة التي ربتنا، والـدي وأنـا، ولما تغاضت أو صفحت.

حقًّا، فقد كان في استطاعتي مفاجأة أثر ذلك عـلى محيَّـا هـذه الخـادم التـي تنم تجاعيد وجهها عما يكنه فؤادهما.

هذا فضلا عن أنه لو كانت والدتي خاطئة لما نظرت بعين الارتيـاح إلى وجودها ولخانتها حركاتها فانكشف ما تعاني من ضـيق، شـأن مـن يقاوم سلفًا ما يظنه موجهًا إليه من تأنيب من هو أقل منه قدرًا. فإن محيَّا "جوليـا" كـان يـدخل بالنـسبة لوالـدتي في سلـسلة الأشـياء التـي تذكرها بزواجها الأول. فسواء أكان موت عمتي المفاجئ قـد أثـر فيهـا

كثيراً أو أن هذا الشعور بالماضي أرضى ما عرف في فطرتها من حب الخيال فإنها بدلًا من أن تطرد هذه الذكريات استسلمت لسلطانها. فكنت أباركها في سريرتي إذ هدمت بموقفها هذا آخر آثار وشاياتي الصامتة. بل ما أعظم شكري الخالص لها إذ طلبت إليَّ بعد ذلك، أن ترى الفقيدة لتقول لها كلمة الوداع الأخيرة!

دخلنا معًا في الحجرة التي اضطجعت فيها الفقيدة ضجعتها الأخيرة بعد أن عانت أقصى مشقة من الأمر الذي كان شاغلها الوحيد أخيرًا والذي استنتجت منه أفظع النتائج، فاقتربت والدتي من سريرها... وكأن الموت، بغرائبه المفجعة، قد غالى في إظهار ما بين وجه عمتي قبل موتها ووجه والدي من الشبه. فإن هذا الوجه الساكن الشاحب وعلى الأخص بسبب رباط الذقن الذي وضع ليبقى الفم مقفلًا كان يذكرني حقًّا بذلك الوجه الذي احتفظت ذاكرتي برسمه والذي قبلتني أمامه والدتي واحتضنتني بجميع ما أوتيت من عطف. وهكذا وجدنا كلانا مرة أخرى أمام شبح مأتمي، لكني لم أعد بعد ذلك الطفل كما لم تعد هي تلك الشابة.

يا لها من سنين قد انقضت بين وفاتي هذين الفقيدين! فإن هذه المقارنة قد مرت بخاطر والدتي كما مرت بخاطري. إذ بقيت هي بادئ الأمر صامتة ثم قالت لي: " ما أشدها به شبهًا"! ثم اقتربت من عمتي ووضعت قبلة على هذا الجبين الذي فارقته الحياة. ثم جثت عند السرير وأخذت تصلي.

فهذا البرهان الذي لم أكن أحلم به سبقتني هـي بنفـسها إلى تحقيقـه بحالـة صادقة لا أثر فيها للتصنع فيها... ولقد حصلت بعد ذلك عـلى أدلـة أخـرى تثبـت نقاء قلب والدتي نقاء مطلقًا كما سمعت مـن فـم مـدبِّر الجريمـة كلـمات تـشهد بطهارة هذه المسكينة من الدنايا. على أني لم أعد في حاجة إلى مثل هذه الـشواهد فإن النظر إليها جاثية أمام المتوفاة، شـقيقة أبي المتـوفى، كـافٍ وحـده ليطـرد مـن نفسي أشباح تلك الشكوك البشعة.

ولما أن انتهت من صلاتها شاءت أن تبقى ساهرة بجانب هذا السرير المحـزن فمنعتها لأني خشيت عليها تـأثير المكـث في هـذه الحـال مـن الحـزن ليلـة كاملـة وأكرهتها على النزول لكنها كانت شـديدة الاضـطراب فطلبـت إليَّ أن أبقـى معهـا برهةً من الزمن فقبلت فرحًا لأني كنت أخاف أن تعود إليَّ، وأنا بعيـد عنهـا، تلـك الأضغاث التي بددتها بوجودها وحركاتها تبديدًا.

فإني كنت أشعر تمام الشعور أني ابنها حقًّا طول هذه الساعات التـي قـضيتها بجانبها حتى كانت أقل حركة منها تسحرني سـحرها فـيما مـضى مـذ كنـت طفـلًا وقد أعجبـت بحـسن ذوقهـا إذ حوَّلـت في الحـال زاويـة مـدفأة البهـو الـذي كنـا جالسين فيه إلى ملجإٍ صغير منعـزل لمحادثتنـا دون سـوانا ثـم بإشـاراتها أحـضرتُ "البارافان" بالقرب من المقعـد الطويـل ووضـعت عـلى منـضدة متحركـة سـاعتها التي تحملها في أسفارها وزجاجة الأملاح وعلبـة سـجائري وارتـدت معطفًـا أبـيض

وغطت كتفيها بشال أسود وساقيها بغطاء من الصوف وردي اللون ثم أراحت خدها على إحدى الوسادتين الصغيرتين اللتين أحضرتهما معها. وكانت رائحة البنفسج، وقد زينت به "جوليا" إناءً صغيرًا يختلط عبيرها بذلك العبير الذي كانت والدتي تنثرها حولها. وكنت أحبها على هذه الحال إذ قد ذكرتني بدقتها في تجملها بما أوتيت من مشاعر رقيقة، كما كنت أحب منها، على الأخص، حديثها العذب وقد كشفت لي عن مكنون قلبها تاركة هذا القلب يفضي بكثير من الذكريات، فقد بدأت بسؤالي عن مرض عمتي ثم استمرت تتحدث عن أبي وهو ما لم يكن يحصل منها إلا نادرًا. كم كان نادرًا وجودنا معًا هكذا ولا ثالث بيننا! ففي هذا البهو وقد ملئ بخرائد المتوفى وبالذكرى الثائرة بمخيلتي وبالخطابات التي قرأتها في نفس هذا اليوم، قد تولاني شعور غريب من سماعها تسرد بدورها تاريخ زواجها. فقد قصت عليَّ ما كنت أعلمه، كما قصت عليَّ ما كنت أجهله من ظروف زواجها بأبي وأنها كانت قابلته في حفلة رقص عند محامٍ عظيم، وما كانت عليه من الزينة في تلك الحفلة، ثم وصفت لي صورة أبي وأنه كان أخنس العنق في ثوبه الأسود ورباط رقبته الأبيض وكان غير محكم، وقفازه الطويل... ثم أضافت: "عندما تكون الواحدة منا فتاة، تكون كثيرة النزق..." ثم استتبعت قائلة: "إنه طلب الاقتران بي مرتين فرفضت لفكرة صبيانية هي أن قفازه طويل... وفي ثالث مرة أراد أن يكلمني وحيدين... وكانت والدتي شديدة الشغف بهذا الزواج بالرغم من

بضعة اختلافات بيننا في البيئة والتربية... لأن والدك كان جم الشرف والنبل، كفؤًا، مجدًّا ثم إنه كان معجبًا بوالدتي بكثير من السذاجة كأنما هي معبود... وأخيرًا قبلت أن تقع بيني وبينه هذه المحادثة... فقابلت والدك مصرة إصرارًا على الرفض، لكنه كلمني بلطف بالغ ودربة رشيقة وفصاحة ساحرة... فتحققت أنه يحبني... فقبلت".

يا له من حديث يشرح لي مراسلات أبي، حديث الدخول في الزواج، بل الرمز السابق على جميع السنين التي قد تلته. فإنهما حتى آخر طعام تناولاه معًا، قبل حدوث الجريمة، كانا قد عاشا هكذا: هي وقد تركت نفسها تُحَبُّ مع تلك العزة الرحيمة، عزة امرأة تعرف نفسها أكثر مدنية واحترامًا. وهو بما كان عليه من فطرة رجل الأعمال المجد الذي _وهو قريب من الشعب، مفطور على الديمقراطية_ يحب هذه المرأة الرقيقة ذات الجمال النادر الساحر مع ولعه بشعوره الجم بتفوقه عليها وسذاجة بالغة في إنكار عوامل تفوقها عليه.

"لكن أفعل سم في القلوب منشؤه السكوت". ولقد شعرت بذلك، أنا نفسي، ولا زلت أشعر به لحساب من أنا ابنه وعنه ورثت تلك الروح المتريبة المنقبضة. ثم استمرت والدتي متحدثة إليَّ بغير تحيز مكثرة من شرح صفات أبي، كاستقامته، وقوة مراسه إلى أن تكلمت عما بقي من خلقه غامضًا فلم تستطع إدراكه إذ قالت: "بعد كارثته المفجعة ساءلت نفسي هل أسعدته بقدر ما كان يعد نفسه به سعيدًا؟

كنت في ريعان الشباب إذ ذاك ولم يكن بيننا غالبًا مشاطرة في الميول... فإني فطرت من نشأتي على معاشرة الناس وأما هو فلم يكن يرتاح إلى ذلك... كنت عظيمة التقى وأما هو فكان جاحدًا وكان يظن غيره من الرجال في طيبته وأن في الاستطاعة الاستغناء عن الدين... وقد رأينا فيما بعد إلى أية طريق يسوقنا هذا التفاوت... لم تداخله الغيرة قط بدليل أنه لم يوجه إليَّ أقل ملاحظة بسبب المعرفة التي كانت لي مع بعض الرجال الأصدقاء. ولكن كانت في نفسه خميرة قلق! فإنه عندما كانت تضطره أعماله إلى مبارحة باريس بضعة أيام وتأخرت لحظة عن موافاته بخطابي اليومي كان يبادر ببرقية يسألني فيها بقلق عن صحتي... وفي المساء إذا عدت بعد موعدي الاعتيادي ببرهة يسيرة كنت أجده قلقًا مقتنعًا بأن قد صادفتني مصيبة... ثم كانت تستولي عليه أحزان وأكدار بلا سبب كما كانت تمر به لحظات وهو في سكون عميق فلم أكن أجرؤ على الاستفهام منه... وأنت قد رثت عنه هذا الخلق يا ولدي "أندريه المسكين"!

ثم تحدثت إليَّ عن وفاته الخفية إذ قالت:

"قد بكيته طويلًا ثم فكرت في الأمر بعد ذلك طويلًا... لم يكن لأبيك قط أعداء خصوصً وقد أدى فروض مهنته نقيًّا شريفًا... لذلك أنا مقتنعة بأن القاتل كان يظنه يحمل مبلغًا من المال كبيرًا... ولا تنسَ أننا نجهل ما كان يحمله أبوك في محفظة نقوده... آه! لو كنت

تعلم، يا ولدي "أندريه" أية أيام قضيتها فريسة للهموم والأحزان! إنما في تلك اللحظات فقط استطعت أن أعرف أصدقائي الأوفياء...".

ثم سمت لي السيد "ترموند" وأطالت في البرهنة على إخلاصه لكني لا ألومها على أنها لم تدرك في الساعة التي كنا فيها أنها لا تنطق بهذا الاسم دون أن تؤلمني بذكره.

لكن، لماذا وقفت عند هذا الحد بعد اندفاعها في سرد هذه الذكريات؟ أي وسواس قد يكون منعها من التحدث إليَّ عن زواجها الثاني وعما آنست فيه من مواساة؟ أكان ذلك لأنها تخيلت حالتي الحقيقية حيال زوجها مع عدم إدراكها فيما مضى مشاعر أبي حيال الشخص نفسه؟ حقًّا، كنت أشعر باكتئاب فظيع لدى استماعي لهذه النجوى التي هي تكذيب قاسٍ للأخرى، أعني لنجوى أبي التي كان يبثها إلى عمتي في خطاباته. ولكن مهما عظم اكتئابي لمبلغ سوء التفاهم الذي فصل ذينك المخلوقين، والدي ووالدتي، فهل يعد ذلك شيئًا بجانب ذلك الكابوس المفجع الذي كان منقضًّا عليَّ بوطأته؟ على أني كنت أصغي طول هذه الليلة الشاتية لحديث والدتي سكِرًا بخمر هذا الإيمان الساحر المريح الذي لن تعود فتشوبه تلك الشكوك المفزعة! فلقد وضح كل غامض من خطابات أبي، كان حقًّا غيورًا على زوجه ولم يجرؤ على الإباحة بهذه الغيرة التي أساسها تأثير أدبي ربما كان مجهولًا من تلك التي كانت تقص عليَّ ذلك الماضي

بصراحة في العينين وعذوبة في الصوت وطهارة ينم عليها جهلها بفعل ما تعترف به وصدق لا يقبل التفنيد، تلك المخلوقة ليست بعد ما ناجتني به إلا بريئة حتى من الآلام التي آلمت بها والدي عن غير قصد، وإلا لكانت شيطان الخبث والرياء.

أيتها الأم، حاشاي أن أظن بك سوءًا، أيتها الأم التي وإن كانت ضعيفة إلا أنها خالصة الطوية، أيتها الأم التي لولا جهلها مبلغ الألم لما أثارته، أيتها الأم الرؤوم، ثقي أني ما صدقت فيك وساوسي. حقًّا أيتها الأم، لم يعد ضميري منذ تلك اللحظة تصمه حيالك أية وصمة، فقد نجوت من شكوكي الطاغية.

وإني لأستطيع إذن أن أعترف لنفسي عدلًا بأني منذ تلك اللحظ لم أتعرض لأقل نوبة شك حيال والدتي. ولم أعد أسمع ذلك الصوت المخزي الذي كان ينبعث قويًّا في ضميري ضد تلك التي كان يجب أن أكون آخر من تعتضد به كما كنت أول من حكم عليها بالإثم ضلالة. لكني حيال زوجها لم أكن على ما أصبحت عليه حيالها. فإنه عندما تستيقظ الريبة في أمر بلغ من الوحشية ما بلغت جناية قتل أبي فإن تلك الريبة تبقى متغلغلة في النفس حتى يبددها اليقين.

لقد وثقت الآن من جهة والدتي. لكن هل تُعدُّ براءتها براءةً لزوجها؟

بعد أن أصبحت وحيدًا عدت فقرأت مليًّا تلك الخطابات المشئومة فتغيرت وجهة نظري. فقد وضح لي أن أبي، بغض النظر

عما عانى ظلمًا من آلام الغيرة التي كان يعد والدتي و"ترموند"، لمودتهما، شريكين في مسئولية اكتوائه بها، كان مع إيمانه بطهارة والدتي، موقنًا بالأمر الذي لا ينكر وهو غرام "ترموند بها". لذلك رأيت أن هناك واجبًا محتمًا هو البحث فيما إذا كان لـ"ترموند" صالح في موت والدي. ولما أن كنت قبل قراءتي للخطابات أستطيع الظن بأن شفقة "ترموند" نحو أمي نشأت مذ أصبحت حرة في الزواج به كما كنت أرى طبعيًّا، بالرغم من غيرتي، أن شابة جميلة تعيسة قد تثير لمواساتها شغف أصدق صديق لزوجها المتوفى فتحول هذا الشغف إلى حب، عدت أيضًا إلى استشفاف مرامي تلك الخطابات أثناء عزلتي في "كومبيني" بحجة ترتيب أعمالي وما كنت في الحقيقة إلا كالحيوان الجريح يدفن نفسه ليتحمل الألم. وإذا بأثر من آثار أبي التي ملأت هذا المنزل قد أيقظ في نفسي، أكثر من سواه شغف الانتقام الذي تولَّاني منذ طفولتي، ذلك هو تقويم من التقاويم التي تقطع منها ورقة كل يوم كان بجانب "نشافة" والدي التي كانت ما تزال تحوي في طيها المظاريف وأوراق الخطابات المطبوع عليها اسمه.

كان هذا التقويم لعام 1864 وقد حفظته عمتي كما هو من تاريخ اليوم الذي أُنبِئت فيه بوقوع الجريمة: "السبت 11 يونية عام 1864".

فاليوم الذي قتل فيه أبي هو إذن "يوم الخميس 9 يونية عام 1864، وكنت إذ ذاك في التاسعة من العمر وها أنا اليوم في الرابعة والعشرين

ولم يُثأر للقتيل بعد! ولماذا؟ لأن الفرصة لم تكن سمحت بدليل. نعم لم أكن استطعت تكوين أقل افتراض يرتكز على اليقين. واليوم ولديَّ واحد من تلك الأدلة، مهما كان موضع شكٍّ فلا مبرر لي في النكوص وكان محتمًا أن أندفع في شكوكي حتى النهاية فناجيت نفسي: أأذهب إلى الأستاذ "ماسُّول" مستشيرًا واضعًا بين يديه تلك الخطابات مع ما في ذلك من كشف داخليتنا وإفشاء مكنونات قلبي المجني عليه وزوج أمي؟ لكن ألا يجوز أن يعدها دليلًا خليقًا بالإهمال؟ كلا! لن أجرؤ على حمل تلك الخطابات إليه وإلا لارتعدت فرقًا من إطلاع رجال الشرطة عليها.

على أني والأستاذ "ماسُّول" سبق أن درسنا الأمر طويلًا لنهتدي إلى من قد يكون له صالح في إتيان هذه الجريمة فلو كانت خامرته فكرة نحو زوج والدتي... لكنه لم يذكره إلا تلميحًا. وأي دليل بين يديه كان يتيح له بلبلة خاطري من هذه الجهة؟ لكني قد حصلت على هذا الدليل وأستطيع تقديمه إليه شاعرًا، بدافع من غريزتي، بأنه _بما ينطوي عليه من دلالة هائلة_ عظيم الخطر! وأنَّى لي ألا أتمسك به وتقليبه مرارًا، منقادًا إلى غريزة التوغل في كشف أسرار المسائل العويصة التي تحوم حولها وتبحث فيها عقولنا بملكتي التخيل والتحليل؟ هذا فضلًا عن أني كنت شغوفًا بالتسلط على أفكاري للتباين بين هذه العاصفة النفسانية والهدوء العميق السائد على منزل الفقيدة، فإني وإن بدا عليَّ الملل في هذا المنزل إلا أن حياتي كانت في الحقيقة حارة تكاد تبلغ الجموح إذ

كنت أستيقظ متأخرًا فأرتب أوراقًا وأعكف على قراءتها حتى ساعة أتناول إفطاري وقد استأثرت "جوليا" بخدمتي ومعي في حجرة الطعام كلب الحراسة "الدون جوان" وقطان كنت أعطيتهما لعمتي وهم من نوع أنقري يلقب أحدهما "بول ده بوال" لطول شعره والثاني "بيبرو" لخبثه وذكائه فأقدم لهذه الحيوانات أكلها لأني كنت أذكر "روبنسن"، محب العزلة الذي طالما أحببته في طفولتي كما كنت أذكر المشاهد التي كنت أراه فيها جالسًا إلى مائدة الطعام بين حيواناته المختلفة.

وا أسفاه! كنت "روبنسن" الذي قلق إذ رأى على الرمال أثر قدم مجهول فلما آثر العزلة لم يفارقه قلقه. فإني في عزلتي شرعت أقدر ما يكون لزوج أمي من النصيب في جريمة قتل أبي فاعترضتني العقبة الكأداء التي قد تعوق كل تحقيق وهي ما هو ثابت من وجوده في غير مكان الجريمة حين وقوعها. لكن هذا وإن عُدَّ دليلًا عمليًّا إلا أنه يوجد في كل تحليل عن تدبير الجريمة، بجانب سلسلة الدلائل العملية، سلسلة الدلائل العقلية فإذا تنافرت تلك الدلائل بنوعيها فهناك الشك، وأكبر قدرة يظهرها قاتل درب ماهر تنحصر بالتأكيد في خلق هذا الشك. فإذا وقف الإنسان عند ظاهرة إيجاد برهان عملي فكم من حقائق تظل في طي الكتمان!

كنت أستيقظ مثقل الرأس بهذه الخواطر فأسير غالبًا نحو الغابة حيث يمتد حولي سكون الشتاء الشامل في تلك الأرجاء قبيل الغروب، فأرى أوراق الأشجار الجافة مغطية أرض الغابة بألوان شقراء بديعة

تتماوج عليها، من لحظة لأخرى، ظلال التيوس البرية التي كانت تفر عند اقترابي وأسمع صرير تلك الأوراق تحت قدميَّ متماديًا في تخيلاتي ومباحثي العقلية متوسعًا في تمحيص كل خاطرة متنقلًا من نظرية لأخرى مناجيًا نفسي: "لنفرض أن السيد "ترموند" مجرم لأنه كان وما يزال مغرمًا لدرجة تدفعه إلى الوحشية، فهذا دليل أول..." "وكان يحب والدتي لدرجة الجنون وهذا دليل ثانٍ" "وأن والدي كان منه غيورًا وهذا دليل ثالث" فلنبحث إذن عن مثار الريبة: "أيكون السيد "ترموند" قد شعر بغيرة أبي"؟ و"هل حصلت بينهما مشادة من تلك المشادات الصامتة فهم أثرها رجل درب مثل "ترموند" أن منزل الصديق الذي كان يغازل زوجه سيغلق في وجهه؟ فإذا صح هذا وذاك فلا مندوحة لي عن افتراض أن هذا الرجل قد ثارت فيه رغبة شديدة في التخلص من عقبة كأداء يشعر أنها تعوقه إلى الأبد وهو فرض وإن كان من المؤلم إدراكه إلا أنه ممكن الحدوث..." لكني في اللحظة التي أنا فيها مشتغل بتلك التحليلات، اصطدمت بما كنت أسميه أدلة الإثبات العملية فإن المزعوم "روشدال" ما يزال حيًّا وهو دليل جديد، وكان قد رآه أناس وسمعوه وكلموه إذ أنه كان بالنزل الملكي بينما كان "ترموند" بمنزلنا يتحدث إلينا. فلاعتبار "ترموند" مجرمًا ألا يتعين التسليم بوجود اشتراك إجراميٍّ بين هذين الرجلين، وبأن أحدهما المزعوم "روشدال"، كان آلة أو نوعًا من أولئك الأشرار مكلفًا بالقتل لحساب الآخر؟ إن ظاهرة الاستثناء الذي امتازت به هذه النظرية كانت من عظيم الجلاء بحيث أسرتني. على أني حين

ساورتني هذه الفكرة، أول مرة، سخرت أفظع سخرية من نفسي وذكرت أوهامي المفزعة لما كنت طفلًا، والبراهين الغريبة التي كان يسهل عليَّ بها خلط الوهمي بالحقيقي. فقد صادفني كثيراً بين السابعة والعاشرة من عمري أن أستيقظ ليلًا، وهناك وحيدًا في الظلام، تحدثني نفسي بأني قد أكون في النهار وأني عميت. فأحملق محاولًا النظر في الظلام الذي كان كلما ازداد حلوكة ازدادت أوهامي تجسمًا فأضطر، للاطمئنان على سلامة نظري، للتحسس حتى أعثر على ثقاب فأشعلها فأرى لهبها فيزول عني ذلك الكابوس. فأنا الآن إذن شبيه بي في طفولتي، عاجز عن كبح الأوهام التي ثارت فجأة بمخيلتي بعد أن رأيت البرهان على كذبها بمناسبة والدتي عندما وقعت فريسة ذلولًا لما يشبه هذه الأوهام... لذلك حاولت عبثًا الاقتناع بأني ما زلت ذلك الطفل الخاضع لأوهامه وأن من البعيد أن يكون السيد "ترموند" قد أرشى المزعوم "روشدال" على قتل أبي. على أن استحالة هذا الأمر ليست مطلقة. فإنه لما كان أقل تفكير في موضوع الجريمة يظهر أن كل أمر ممكن الوقوع، راقني إذ ذاك أن أتوسع في استذكار الحوادث الغريبة التي عرضت على محكمة الجنايات والتي كانت تثور ذكرياتها في مخيلتي حتى أصبحت هذه المخيلة دموية اللون كالأفق عند غروب الشمس وراء الغابات الصدئة...

فكنت أعود إلى المنزل فأتناول غذائي كما تناولت إفطاري وحيدًا ثم أقضي الليلة جالسًا في المكان الذي جلست فيه والدتي، ولشدة فرقي من تلك العتاهيات التي كانت تتوارد بفكري فأنقاد لها، كنت أرجو جوليا أن توافيني بمجرد

تناولها الطعام فكانت تجلس على مقعد بريتوني عند زاوية المدفأة منشغلة بنسج جورب واضعة على أنفها منظارًا يحيل وجهها المجعد إلى صورة هزلية. وقد يصدف أن تشغل وهي على هذه الحال طول السهرة وفي حجرها صديقها "بول ده بوال" مخرخرًا بينما "بيرو"، وهو منه غيور، يحك رأسه في جسمه مستجديًا مداعبة، فلا تتكلم إلا مجيبة على ما أوجهه إليها من الأسئلة عن ظروف عمتي مكررة ما كنت أعلمه من تفاني تلك المسكينة في الاهتمام بأمري وقلقها عليَّ، أينما كنت، حتى وهي على أبواب الأبدية. مكثرة من ذكر آلامها من زواج أرملة أخيها وما كانت تُسرُّه من الحفيظة للسيد "ترموند"، كانت تقول لي: "إن عمتك كانت كلما اعتزمت زيارة والدتك بسببك تسيء الاضطرابات التي تعتريها إلى صحتها سلفًا. ولما تعود تظل كئيبة ثمانية أيام لدرجة تتلفها...".

ما كنت أجهل هذه التفصيلات البسيطة لكنها تساعدني في الظرف الحاضر على ولوج سبل النظريات والافتراضات البشعة إذ كنت أعود فأحلل أفكاري حيال السيد "ترموند" قائلًا في نفسي: "ليكن مجرمًا، فهل من دليل واحد منذ الحادثة يضيء سبيل إثبات إجرامه"؟ إن فزع عمتي هو مع ذلك، دليل على أني لست أحمق فيما أنقاد إليه من التحليل لأنها غذت مخيتها بوساوس شبيهة بوساوسي... لكنها كانت ترتاب أيضًا من جهة والدتي وإلا لصادقت على هذا الزواج الذي لا بد أنها عدته أفظع دنس... على أن هذا لا يمنع أن تكون مخطئة من جهة والدتي محقة من جهة زوجها. ثم ألا

يكون في كراهته لي، وكنت أقارنها بكراهتي لـه، علامـة أيـضًا؟ أمـا أرى مـن هـذه المقارنة أن هناك ما هو أكبر مـن التنـافر بـين ابـن وزوج أمـه؟ إذن، كـم كـان في الحقيقة يمقتني إذ كنت أثير في مخيلته بوجودي أمامه صورة أبي حيًّـا، ذلـك الأب الذي كنت أشبهه الشبه كله والذي قـد يكـون هـو قاتلـه! ثـم مـا سـبب اضـطراب طباعه واحتياجه المتواتر للعزلة والتلهي عما يخالجه من أفكار مؤلمة وتلك الأحـزان التي عرفت من والدتي أنه كثيرًا ما يقيم فيها؟ كنت قد عللت هذا الخلـق الغريـب بأنه نتيجة مرض الكبد الذي كان منذ بضع سنين يكمـد لونـه ويلزمـه الفـراش مـن وقت لآخر نهبًا لأفظع الآلام حتى يستغيث مع ما فطـر عليـه مـن الاحـتمال. فهـل يكون هذا الخلق الغريب وهذا المرض نفسه رد الفعل الناشـئ مـن ذلـك الحـادث الذي وإن كان غامضًا إلا أنـه حقيقـي يثـير في المخيلـة صـورًا مفزعـة هـي وخـزات الضمير؟ أما أعلم بالاختبار ما بين قوى النفس والجسم من وثيـق العلاقـات ومـضار تسلط الفكرة الثابتة بالصحة وسلطان الفكر العتيد القاتـل وأنـا الـذي أقـع فريـسة الآلام العصبية إذا عراني من التأثر ما فيه شيء من الشدة؟ ثم إني كنت أعود فأشعر بنفسي حانقًا هائجًا من فعل الشك. فما أشقى من تتـولاه الـشكوك لهـذه الدرجـة! إنما يكون رأسه من الاضطراب كـسفينة تلعـب بهـا الأمـواج والمـريض عـلى ظهرهـا يهتز مضطربًا غارقًا في عرقه تتبدد قواه وهو يظن أنه هالك...

(11)

لم أجد حيال ما أنا فيه من قلق لا يـرحم إلا علاجًـا وحـدًا هـو نفـسه الـذي لجأت إليه حيال والدتي. فإنه لما أن كان مفروضًا لكـبح جـماح المخيلـة مقاومتهـا بالحقائق، رأيت أن أواجه الرجل الذي تحوم حوله شـكوكي فأسـلط عليـه نظـراتي وهو على حقيقته لا على ما تصوره مخيلتي فأتبين مـا إذا كنـت فريـسة لكـابوس الوساوس، وكفاني ما أنا فيه من حال قاتلة تزيدني من يوم لآخر، ارتباكًا وعجزًا عن البت فيما يعرض لي من الأدلة _وعلى الأخص بسبب عزلتي_ حتى كدت أصـدقها وأصبحت لديَّ أقل خاطرة برهانًا قويًّا مع أنها قـد تكـن دلـيلًا ضـعيفًا. حقًّـا لقـد حان الوقت لمقاومة هذه الشكوك، ففي ذلك صالح وعلى الأخص للتحقيـق الـذي فرضته على نفسي ولا بـد لي مـن الـتقم فيـه، فـإن لم أفعـل وقـت في تلـك الحـال العصبية التي عانيتها كثيرًا حتى لم أعد معها أتملك عواطفي...

إذن قد أصررت على مبارحة "كومبيني" عائـدًا إلى بـاريس حيـث أرى زوج أمي فأحكم مسترشدًا بأول شعور يرتسم عـلى محيـاه، حـين أواجهه فجأة، بمبلغ ما تستقه شكوكي من التقـدير. فـإن نفـسي كانـت تحدثني بأنه إذا كانـت لـه يـد في قتـل أبي فـلا بـد أنـه خـشي فراسـة

عمتي أكثر من خشيته كل شيء. فلقد قامت علاقاتهما ببعضهما على التكلف وكانت هي تضمر له حقدًا لم يفته بالطبع وهو خبيث. فإذا كان آثمًا أما يخشى أن عمتي قد تكون استودعتني خبايا قلبها وهي على أبواب الأبدية؟ فحالته خلال أول محادثة أداهمه بها _غير تارك له فرصة الاحتياط_ قد تكون حجة دامغة. ومع كل فبما ذا أخاطر في هذه المحاولة التي أرجو بها انتزاع ذلك الدليل؟ لا شيء سوى بقائي أسيرًا لتلك الشكوك، على أني قد أصيب المرمى...

عدت إذن سرًّا إلى باريس واتجهت حالًا نحو شارع "لا تور موبور" وإني لأتمثل نفسي وقد وقفت إلى باب المنزل حوالي الساعة الثانية بعد الظهر موقنًا تقريبًا بأني سأقابل السيد "ترموند" إذ كان من عادته أن يمكث من الساعة الثانية إلى الثالثة في البهو يدخن بعد تناول الطعام ثم ينصرف هو ووالدتي، كل في سبيله، في التنزه أو زيارة الأصدقاء حيث يعودان حوالي السابعة لتناول العشاء معًا. توجهت ماشيًا تهدئة لأعصابي من طريق الحركة ساخرًا أشد سخرية من نفسي لأني كلما اقتربت من الحقيقة تراءت لي تلك الأوهام، التي تجرعت منها المرار في عزلتي، كأنما هي أهواء طفل مريض. إذ كنت أذكر ما انتابني من خجل وخزي حين وصول والدتي إلى "كومبيني" عندما ذهبت لمقابلتها كما ذهب أورست لمقابلة "كليتمنستر" فألفيت امرأة لا هم لها إلا ثوب الحداد وقبعتها وحقائبها وساعتها ووسادتها. فهل ستكون تلك

السخرية عينها نصيبي عند أول محادثة بيني وبين زوج والـدتي؟ قـد يكـون ذلـك فأقتنع مرة أخرى بأني أسير وساوسي.

كان يؤلمني شـديد الألم أن أتحقـق هـذا الـضعف في نفـسي فأقـارن عقليتـي بعقليـة الثـيران التـي رأيتهـا في ملعـب "سـانت سيباسـتيان" في سـياحتي بجبـال "البرنات" أثناء العطلة المدرسية، تلك البهائم الغبية التي كانت تنقض بجنون على قطعة قماش قرمزية لا على المصارع الماهر الحذر الذي كان يستخف بها فيلعـب بغضبها.

دققت الجرس مثقل الـرأس بهـذه الأفكـار المثبطـة وفي برهـة انتظـاري رأيـت العمارة التي أقامها بفن محكم مـن الأحطـاب التـاجر الـذي كـان يـشغل ببـضائعه الأرض المجاورة فتذكرت صبيحات أيام الآحاد التي قضيتها فيما مضى متأملًا في تلـك الأكوام المتسقة وما هي عليه من التعقيد. فهل أنا الآن أوفر عقلًا مني إذ ذاك؟

فتح الباب فعرفت الفناء الضيق والرفرف الزجاجي وبساط السلم الأحمر. أمـا البواب الذي حياني فلم يكن ذلك الذي كنت أتوهم في طفولتي أني موضع احتقـاره وأما الخادم الذي فتح لي البـاب فهـو نفـسه البـارد ذو الوجـه الحليـق الـذي كنـت أتصور أنه كان يرمقني بمهانة، يا لها من طفولة! وما كدت أوجه لهذا الخادم سـؤالًا حتى أجابني بأن والدتي والسيد "ترموند" موجودان ومعهـما صـديقة هـي الـسيدة "برنار" فأدركت ما كان عليه جو المنزل، فإن هـذه الـسيدة الجميلـة ذكيـة مماجنـة

ثرثارة سمجة سريعة الضحك لأقل حركة وكانت مشهورة بعلاقتها مع الكونت "ده كاندال". لذلك أيقنت أني لا بد سامع حديث الأزياء وقضايا الانفصال وشؤون الفسق والتغني بالقبعات فأنزل من سمو أحلام المحقق إلى درك الطيش الباريسي!

أدخلني الخادم البهو وكنت وثيق العلم بما يحوي من أريكة شرقية وأزهار نظرة وأثاث معقد وبسط بهتت قليلًا وصورة للمصور الفرنسي "ميسونييه" مكان صورة أبي وتلك الأواني المزخرفة، غير منظمة والمظلة اليابانية الهائلة مفتوحة وسط السقف وما يغشى الحوائط من صور يابانية حيكت باليد، فرأيت لأول نظرة، والدتي تترجح على مقعد هزاز وأمامها السيدة "برنار" مدخلة إحدى يديها في فراء اليد محركة الأخرى والسيد "ترموند" واقفًا بردائه الرسمي يدخن لفافة مصغيًا لحديثهما وظهره إلى المدفأة مدفئًا رجله اليمنى على حافتها. فلم أكد أدخل حتى صاحت والدتي دهشة فرحة وقد وقفت لتستقبلني، أما السيدة "برنار" فتظاهرت كسيدة جليلة عطوفة آلمة لشخص من معارفها أصابته كارثة جلَّى. أدركت في الحال هذه الأمور البسيطة كما لمحت اضطراب حدقتي السيد "ترموند" الفجائي وما علا وجهه فأسرع بكتمانه من تأثر لظهوري أمامه على غير انتظار.

وبعد؟ ألم يعترني أنا الآخر ما عراه؟ قد أستطيع أن أقسم أنه عانى في تلك البرهة ما عانيت من انقباض وأنه قد ضاق صدره فعلام يدل ذلك؟ على أنه كان يشعر نحوي بما أشعر نحوه من كراهة. فهل هذا يعد دافعًا للبتِّ بأنه القاتل؟

كان هذا الرجل زوج أمي فقط، زوج أم يمقت ابنها، شأنه منذ سنين. ومع كل فهذه البرهة السريعة التي مررت فيها بهذا المنزل كارهًا، قد أثارت في راسي شعورًا غريبًا حينما أمسكت يده، بعد أن قبلت والدتي وأديت فرض التحية للسيدة "برنار". وهل أمسكت يده حقًّا؟ كلا، بل كالعادة أطراف أصابعه وقد اضطربت بين أصابعي، وكم من مرة ارتعدت يدي أنا الآخر ارتعاد يده في مثل هذه الملامسة!

طنطن هذا الرجل بجمل العطف التي سبق أن سطرها لي في الريف ونطقت السيدة "برنار" من مثيلاتها جملًا أخرى ثم عادت المحادثة سيرتها الأولى فقصرت همي على التفرس في وجوههم صامتًا فشعرت شعورًا لم يسبق أن بلغ ما بلغ من الدقة بالفرق العظيم بينها، لا من جهة السن ولكن من حيث الحدة والغموض، كم كان محيا والدتي سهلًا تقرأ فيه كأنك تقرأ صحيفة كتبت بحروف جلية! وكم كانت روح السيدة برنار" وهي طائشة غبية، تتكشف لأول وهلة خلال تقاطيع محياها الدقيقة! وكم كان تكلفهما ضئيلًا تستره عذوبة الأولى الشعرية ودلُّ الثانية الرشيق! وكم كان، على الضد محيا زوج

أمي غامضًا عسوفًا! فإنه بعينيه الزائغتين اللتين كانتا تتفاديان المراقبة وشعره الكثيف الذي وخطه المشيب قبل الأوان وبشرته التي أشحبها المرض، كان محياه غامضًا حادًّا مضطربًا ينم على أن رجل التمدن الذي كان يتحدث إلى تينك السيدتين المتدنتين ليس إلا مخلوقًا من جنس آخر، بل ليس إلا وحشًا!

فأية أهواء أو هواجس أتلفته؟ وهل هذا محيا رجل سعيد ولد وشب في بحبوحة الغنى والنعيم، تغلب على الظروف وتزوج المرأة التي يحبها، رجل لم تضره بلبلة الطمع ولم يذق مشاق جمع الثروة ولا آلام الإهانة في الحب؟

كنت مقتنعًا أن ما به من تلف سببه مرض الكبد، فلماذا أصبحت أرى منذ تلك اللحظة أني كنت في ضلالة الطفل وأن ذلك لا بد لسبب خفي حتى دهشت لإهمالي فحصه من بادئ الأمر؟ ولماذا وجدت نفسي في حضرته فجأة _بعكس ما توقعته وما صادفته مع والدتي_ أكثرترديًّا في وهدة الشكوك التي طالما تمنيت النجاة منها؟ بل لماذا فزعت عندما تقابلت أنظارنا فأسرعت بتحويل أنظاري خجلًا فزعًا حتى أنه لم يستطع قراءة أفكاري؟ كم كنت جبانًا! فإما أن أكون مخطئًا في وساوسي أو مصيبًا ولا بد إذن من البحث عن الحقيقة _مناط آمالي_ لأعرف أعلى هدًى أنا أم على ضلال. لكنني ما لبثت أن وجدت هذا البحث شاقًّا إذ لا بد لي من الارتكاز على أدلة قاطعة،

فـأين هـي وكيـف أجـدها؟ فـإن الغمـوض المحـيط بالجريمـة يحرمنـي الأمـل في اكتشاف حقيقتها حتى ولو كان ذلك التحقيق عمليًّا. فـماذا يجـب؟ يجـب الوثـوق مما إذا كـان الـسيد "ترمونـد" شريكًـا أو غـير شريـك للرجـل الـذي اسـتدرج أبي إلى الكمـين، ولم أعـرف هـذا الرجـل ولا أدلـة ترشـدني إليـه سـوى تفـصيلات تنكـره والافتراضات الغامضة التي افترضها قاضي التحقيق. لو أتيح لي عـلى الأقـل استـشارة هذا القاضي للاستنارة باختباره! كثيرًا ما أصررت على أن أحمـل الخطابـات إليـه وأن أستجديه مشورة أو إرشادًا أو دليلًا لكني ما كنت أبلغ باب منزله حتى تثـور صـورة أمي في مخيلتي فتحـول دون دخـولي قـائلًا في نفـسي: "وإذا ارتابـت فيَّ والـدتي كـما ارتابت عمتي"؟ لذلك كنت أعود أدراجي فأحتبس في منزلي ساعات طويلـة مـسممًا رأسي بلفافات التبغ عاكفًـا عـلى قـراءة الخطابـات المـشئومة التـي حفظتهـا تقريبًـا لأحقق شعوري الأول، بينما أتمنى القضاء عليه، فكان يتزايد كلما تماديت في القـراءة لكني كنت أجني من وراء قراءتها شعورًا بأن ما كنت أتلمسه من اليقين لـن يكـون إلا نفسانيًّا. وبما أن تخيلاتي من حيـث الجريمـة لا ترتكـز إلا عـلى الأدلـة العقليـة لا على الأدلة العملية التي عزَّ عليَّ بلوغها، فقد اضطررت إذن للتعلـق بـشغف بتلـك الأدلة العقلية دون سواها فبدأت أبحث عقليًّا، كما كنت أفعل في كومبيني، فـأقول في نفسي: "ليكن السيد "ترمونـد" مجرمًـا، فـما هـي حالتـه الفكريـة؟ وإذا وضـحت هذه الحالة فماذا أفعل لأنتزع منـه الـدليل عـلى إجرامـه"؟ فأمـا مـن جهـة حالتـه

الفكرية فلا ريب أنه حليف الألم والكآبة معذب النفس. فإذا كان ذلك لذكرى جريمة قتل اقترفها في ماضيه، فهو إذن فريسة أفظع عذاب وخزات الضمير. فالمسألة تنحصر إذن في ابتداع وسيلة تفضح ما يعانيه من عذاب الضمير وذلك بإثارة شبح الجريمة أمام عينيه فجأة وبوحشية. فإذا كان آثمًا، تعذر عليه ألا يضطرب. وإذا كان بريئًا، فلن يعروه أثر هذه التجربة.

ولكن أنَّى لي تحقيق ذلك، ولا يتيسر إلا على المسارح وفي الروايات، أن يبتدع المنتقم حادثة قتل أمام القاتل وهو يراقبه ليعرف ما يرتسم على وجهه في لحظة لا يستطيع امتلاك عواطفه فيها؟ أما في عالم الحقيقة فلا يمكن غالبًا اكتشاف خبيئة قلب أحد إلا بطريق الكلام وهو أداة يشق استعمالها. لأني لم أكن أستطيع الذهاب مباشرة للسيد "ترموند" فأقول له، في وجهه: "أنت قاتل أبي..." فإنه، بريئًا كان أو آثمًا، يطردني كما يطرد المجنون. بعد التفكير مليًّا لم أجد إلا وسيلة منتجة هي أن ألجأ إلى محادثة مع زوج أمي ونحن وحيدان، في لحظة يجهلها، محادثة سداها الكنايات والتوريات تكون كل كلمة فيها كأصبع يوضع على أشد حنايا قلبه تألمًا فيضطر ـإذا كانت وساوسه وساوس قاتلـ أن يسائل نفسه: "ماذا يقصد بما يقول إذا لم يكن يعرف شيئًا؟ أيعرف شيئًا؟ ماذا يعرف؟ كنت أدرك من محياه مبلغ سيطرة تأثيري عليه بل وأدق حركاته وإذن فلن تفوتني أقل حركة اضطراب تعروه مهما كانت خفيفة فإذا لم أصادف فيها الجهة الضعيفة قررت بطلان جميع ما ثار وما يزال ثائرًا في

نفسي من الشكوك منذ وفاة أبي، نعم، أقنع إذ ذاك بهذه الدلالة البسيطة التي لا تكذبها خطابات أبي من أن السيد "ترموند" شغف بوالدتي غير آمل شيئًا أن أبي كان حيًّا فلما مات انتهز فرصة ترمل والدتي الذي قد لا يكون اجترأ على التفكير فيه. أما إذا ألفيته يتخيل وساوسي ويدركها ويتبع مرامي كلماتي وهو قلق، أما إذا لمع في نظره ذلك الضوء الذي يفضح الفزع الغريزي في حيوان هوجم من حيث يظن أنه أكثر أمنًا، وبالاختصار إذا أفلحت هذه التجربة فإذن... إذن؟ ولم أجرؤ على التفكير حتى في جواب "إذن"! حقًّا، لقد اضطربت ايما اضطراب عند هذا الاحتمال إذ أنَّى يكون لي من القوة ما يسمح لي بولوج هذه المحادثة التي ستكون بمثابة مبارزة ينتصر فيها من يتفوق وأنا سريع التأثر والاضطراب! إذن سيكون لعب هذا الدور أشق عليَّ منه على سواي. لأني لا أكاد أفكر فيه حتى تتشنج أعصابي... ولكن ما هذا؟ أتتاح لي هذه الفرصة، وطالما تمنيتها، للعمل، للتفاني في مهمة الانتقام، فأتردد؟

لقد كان لي، لحسن الحظ أو لسوئه، رفيق لمشورته سلطان على ترددي: صورة أبي. فكنت أستيقظ في الليل مثقلًا بهذه الأفكار فأقصد إليها فأتأمل فيها.

ما أعظم ما بيننا من الشبه وإن كنت أقل منه قوة! كم كنت أشعر به أقرب إليَّ ممن سواه! كم أحبه! نعم، كنت أمتع ناظري بملامحه بتأثر يفوق الوصف وعلى الأخص فمه الذي لم يكن في حاجة ليصيح

بي: "أي أندريه، اذكرني"! "كلا أيها الميت المسكين، لن أنفك عن الأخذ بثأرك حتى ولو حاولت المستحيل". هكذا كنت أفعل فتتحول اضطراباتي العصبية إلى إرادة حماسية أو هادئة أو كلتيهما.

وهكذا بعد أن سيطرتُ، بقوة مطلقة تقريبًا على نفسي، حددت موضوع محادثتي مع زوج أمي مستوحيًا خطابات أبي، وقصدت إلى نزل شارع "لا تور موبور" بعد ظهر يوم من أوائل فبراير موقنًا تقريبًا أني سأجده وحيدًا لعلمي أن والدتي ستتناول طعام الإفطار في ذلك اليوم لدى السيدة "برنار". فوجدته وحيدًا فصاح بي صوت الضمير الذي يحول دون الجندي والنكوص: "أي أندريه، هيا وكن رجلًا"! فشعرت بفضل الإقدام في تهدئة النفس. فإنما يتعذب المرء إذا أطال التفكير والرجوع إلى قلبه.

وا أسفاه! لماذا لم أستطع الإقدام من بادئ الأمر؟

وجدت السيد "ترموند" في مكتبه جالسًا على مقعد منخفض بالقرب من المدفأة لسرعة تأثره بالبرد. وكان يدخن لأنه مثلي يعكف على التسمم بالتبغ في أردإ الساعات غير تارك لفافة إلا ليدخن أخرى.

وهذا المكتب حجرة فسيحة أنيقة مؤثثة بغالي الأثاث الذي جلبه "الديبلوماسي" الرشيق من سياحاته وعلى الأخص من الأندلس وبها مكتبة عظيمة تحوي أسفار التاريخ والاقتصاد بتجليداتها الرشيقة وأسفارًا أخرى غير مجلدة وهي الروايات. وبوسط هذه الغرفة مكتب

عريض مرتبة عليه الأدوات الضرورية للكتابة بعناية فائقة. وهناك صور معلقة في إطاراتها من جلد الماعز واحدة لوالدتي واثنتان لوالد السيد "ترموند" ووالدته.

تشف هذه الغرفة بما يتصاعد فيها من سحب لفافات التبغ عن عناية ذلك الرجل بالإتقان. لكن هذه العناية التي كان يشاطره فيها كثير ممن هم في صفه، إنما تخفي وراءها أقصى أنواع الزقاقية والملق.

لم يكُ زوج أمي في مظهر حياته الخارجي ليتظاهر بكتمانه عواطفه دون أن يستطاع معرفة إن كان يخفي أو لا يخفي شيئًا وراء أدبه وأناقته. ولقد ساورتني كثيراً هذه الأفكار في فترة كنت مدفوعًا فيها بشغف اكتشاف خفي خلقه وقد عادت فاستولت عليَّ عنيفة في هذه اللحظة التي أقبلت عليه فيها متسلحًا برغبة صادقة ف معرفة ماضيه. ومع ذلك فقد تبادلنا تحية عليها ظاهرة المودة وجلست إلى الركن الآخر من المدفأة وأشعلت لفافة وسألته مبررًا زيارتي الفجائية:

ــ أليست والدتي هنا؟ فأجابني:

ــ ألم تقل لك في اليوم الماضي إنها ستفطر عند السيدة "برنار"؟ رحلة صغيرة لدى "ميتلاند"، المصور الأمريكي الذي شغفت به "باريس" منذ عامين، لتشاهد صورة "لويس ده كاندال" التي أتمها... ثم زاد بكل بساطة: ألديك ما تريد تبليغها به؟

فهذا النزر من الكلمات كان كافيًا ليظهر لي أنه لاحظ غرابة زيـارتي. فهـل آلمُ لذلك أو أغتبط؟ وجدت إذن أنه علم أني جئـت مـدفوعًا بباعـث خـاص فحولـت مجرى الحديث متكلمًا عن هذا المصور الذي عرفت له لوحـة رقـص النوريـات في فندق ريفي بغرناطة فشرحت له مواقف الراقصات الجريئـة ومـا تحويـه اللوحـة من ألوان باهتة وزهور البنفسج الحمراء في شعور سوداء ووجه المغربي عازفًا على قيثارته. وكنت أسائله عن الأندلس فيجيبني بجلاء وأدب لا تكلف فيهما متشاغلًا بالتدخين وتقليب جـذوات النـار في المـدفأة بـالمقبض. لكنـي تبينـت مـن ارتعـاد أصابعه، وهو الدليل الوحيد الذي لم يستطع التغلب عليه مـن بـين أدل اضـطرابه العديدة، أن وجودي كان كالسابق يُمله. على أنه كان يتحـدث إليَّ برقتـه المعتـادة وصوته العذب الذي آنست فيه تصنعًا، مسلطًا عينيه على لهيب المدفأة ووجهـه على ما عهدت من جهد وكآبة بالغين، فضلًا عن تقلص فمه بما يشعر أنـه فريـسة أفكار مرهقة. فتفرست مليًا في هذا الوجـه الممقـوت، متـنقلًا مـن حـديث لآخـر، حتى دهمته بهذه الكلمات:

ــ أديت هذا الصباح زيارة هامة. فأجابني بغير اكتراث:

ــ هذا ما يميزك عني لأني أضعت الوقت في العناية بمراسلاتي...

فاستتبعت قائلًا:

ــ حقًّا، زيارة جد هامة... أمضيت ساعتين لدى الأستاذ "ماسُّول"...

كنت عظيم الارتكان على تأثير هذا الاسم الذي كـان يجـب أن يـذكره فجـأة بتحقيق جناية "النزل الملكي". لكن وجهه لم يعره أقل تغير بل وضع المقبض جانبًـا واستلقى إلى الوراء وسألني وعليه ظاهرة السهو:

ــ قاضي التحقيق القديم؟ فيم يشتغل الآن؟

فهل كان معقولًا أنه يجهل حاضر ذلك الرجـل الـذي كـان يجـب أن يخـشاه أكثر من سواه، لو كان مجرمًا؟ كيف أستطيع معرفة إن كان هذا الثبات مصطنعًا؟ لكني رأيت فجأة أن الشرك الذي نـصبته لـه لم يكـن إلا ثمـرة مخيلـة طفـل أبلـه. وبفرض أنه كان في تلك اللحظـة مـن شـدة الاضـطراب بحيـث نـاجى نفـسه عـن الغرض الذي قصدت إليه. فإن ذلك ليدفعـه إلى إخفـاء شـعوره... لا يهمنـي فقـد بدأت ولا بد لي من المضي في الضرب بأقصى قوتي. فأجبته:

ــ الأستاذ "ماسُّول" مستشار في الاستئناف الآن ـثم زدت كـذبًاـ: أراه كثـيرًا... وقد تحدثنا هذا الصباح عن المجرمين الذين يفلتون من العقاب. تصور أنه مقتنع أن "ترويمان" كان شريكًا في الجريمة. إنه موقن بذلك من تفـصيلات الجريمـة التـي تشعر في رأيه بأن فيها مجـرمينْ... فـإذا كـان ذلـك صـحيحًا وجـب الاعـتراف بـأن للسادة القتلـة الـشرف، مهـما كـان ذلـك مدهـشًا، بمـا أن قاتـل الأطفـال الـشنيع هذا استسلم لقطـع عنقـه غـير بـائح باسـم شريكـه... عـلى أن الأمـر سـواء فإنـه

لا بد للشريك في الجريمة من معاناة أشق صنوف الفزع، من لحظة اكتشاف الجثث والقبض على زميله... أما أنا فلا أفخر بمثل هذا الشرف إذ أني لو أدَّت بي نزعة إلى الإجرام فسأجرم وحيدًا... ثم أضفت مماجنًا: وأنت؟ وهو سؤال إذا وجه لبريء لعدَّه مجانة تافهة وإذا وجه لمجرم لجمد دمه في عروقه فزعًا. لكن هذا الرجل أصغى إليَّ محتجبًا في غيوم دخان لفافته منخفض الجفنين ولم أعد أرى يده اليسرى إذ تركها مدلاة من الجهة الأخرى كما أخفى يده اليمنى في جيب ردائه ثم صمت برهة قد تكون الفاصل بين سؤالي وجوابه خلتها طويلة. ولم خلتها كذلك ومن فطرته التريث في محادثاته؟ أليس من الطبعي أنه إذا كان بريئًا فلا أهمية لهذا السؤال لديه وإذا كان آثمًا فلا بد له من حسبان مدى إجابته؟

كيف أصل إلى معرفة ذلك؟ قد أقفل عينيه إقفالًا، وهو ما يفعله كثيراً، وأجابني بنغمة واضحة كأنما يبدي رأيًا عامًّا:

ـ من اليقين أن من بين حنايا الضمير ما يبقى سليمًا عند كثير ممن بلغوا حضيض الانحطاط وإن ذلك ليرى على الأخص عند السكنى في البلاد التي خُلُق ساكنيها أصدق من خلقنا وأقرب إلى الفطرة. خذ مثلًا تلك الأندلس التي تهمك كثيراً، لما كنت أنا عائشًا فيها، كانت ما يزال فيها قطاع الطرق... فكانت تُمضى المعاهدات معهم ليمكن اختراق سلسلة جبال في أمنٍ... فلم يكن أولئك الأشرار يخلون بمعاهداتهم.

وسجل أشهر الوقائع يحوي كثيرًا من ذكرى أشرار كانوا أصدق الأحباء وأبر الأبناء وأخلص العشاق... لكني مثلك أظن أنه لا يصح الركون إليهم كثيرًا... ثم ابتسم عندما نطق بهذه الكلمات الأخيرة وأخذ ينظر إليَّ بحدقتيه الزرقاوين الواضحتين بما فيهما من تأثير لا يدرك.

كلا، لم أكن من المقدرة بحيث أستشف هذا القلب ولا بد لذلك من عبقرية أخرى غير عبقريتي وحدة نظر غير حدة نظري وقوة غير قوتي لتقوم أمام هذا الشخص بدور المحقق الذي يخدر بسلطان تأثيره مشاعر المجرم. ولكن، لماذا كانت تتجسم شكوكي فأشعر أنه قد تناهى في إخفاء ما بنفسه؟ أما فطرت نفوس على الإخفاء كما فطرت نفوس على الصراحة؟ هيا ولنتشجع ولنهجم مرة أخرى.

فقلت له مستتبعًا:

ـ فتساءلنا أيضًا: الأستاذ "ماسُّول" وأنا عما تكون عليه حياة شريك "ترويمان" أو ذلك المدعو "روشدال" الذي لم نتنازل، لا هو ولا أنا عن العثور عليه... لأن الأستاذ "ماسُّول" عُني كثيرًا قبل ترك منصبه، بتجديد مدة العقوبة. فأمامنا متسع من الوقت للبحث... فهل ينام أولئك المجرمون في طمأنينة؟ وهل عوقبوا، ولو في أمنهم الوقتي، بالفزع أو بتأنيب الضمير؟ أليس من غريب السخرية أن يكونوا الآن في طائفة الأعيان، هادئين مدخنين لفافاتهم مثلك ومثلي، عاشقين أو معشوقين؟ أتؤمن أنت بعذاب الضمير؟ فأجابني:

ـ بلى، إني لمؤمن.

فهل خفتي المصطنعة في حديثي وجده في كلامه داعية ظني بأن صوته رزين عميق؟ لكن، كلا، لقد خدعت، لأنه احتمل دون اضطراب خبر تجديد مدة العقوبة وهو لا شك مفزعه إذا كان شريكًا، بل أجاب بصوت هادئ غير عابئ بسؤالي إلا من وجهته الفلسفية:

ـ وهل يؤمن الأستاذ "ماسُّول" بعذاب الضمير عند أولئك الأشرار وكثيرًا ما فحص من أحوالهم؟ فأجبته:

ـ لا أستطيع أن أجيبك بالدقة لأن الأستاذ "ماسُّول" من أولئك الفلاسفة السفسطائيين وقد رأى كثيرًا من الحوادث البشعة ولذلك يزعم أن هذا الأمر يرجع لقوة المعدة وتأثير التربية الدينية كما يزعم أن رجلًا تهضم معدته بقوة ولم يطرق أذنيه، وهو طفل، حديث جهنم، قد يستطيع السرقة والقتل صباح مساء دون أن يعرف من توبيخ الضمير سوى الخوف من الشرطة... كذلك يقول هذا المتشائم إنه لا يعلم مبلغ تأثير فكرة الآخرة في حالة الوحدة وأظنه محقًّا لأني كثيرًا ما فكرت في الليل بغير سبب في الموت، أنا الذي لا أؤمن بشيء... فيعروني الخوف... نعم، يعروني الخوف... وأنت؟ أتؤمن بالآخرة؟

فأجابني: نعم.

وأظنني في هذه المرة قد تبينت انزعاجًا في صوته فألحفت في السؤال:

ــ وتؤمن بعدل اللـه؟ فأجابني بنغمة غريبة:

ــ نعم، وبرحمته. فصحت قائلًا:

إنه لعدل غريب يستطيع كـل شيء ولكنـه يتمهـل في العقـاب! ولقـد كانـت المسكينة عمتي تقول عندما كنـت أكلمهـا عـن الانتقـام لأبي: "أنـا أجـازي، يقـول الرب" لكني بالرغم من كلمة الرسول، لو تملكت من القاتل، لو كان القاتل أمامي، لو كنت موقنًا... كلا لن أنتظر أن تحين الساعة ذلك العدل الإلهي...

وكنت قد وقفت عندما نطقت بهذه الكلمات فريسة لتهيج قهري شـعرت في الحال أنه الطفولة لأن السيد "ترموند" كان قد انحنى من جديد على النار يقلبهـا بالمقبض دون أن ينبس بكلمة.

فهل كان حقًّا كما ظننت قد شعر بشيء من الاضطراب عندما سمعني أتكلم عن ذلك اليوم الآخر الذي خشيته اليوم ويداي ملوثتـان بالـدم؟ لم أسـتطع البـت بشيء لأن وجهه كان ما يزال ساكنًا ولكنه حزين إلا أن اضطراب يديه كـان بالغًـا. ثم ساد السكون بيننا فجأة ولكن، كم أمضينا لحظات في مثل هذا السكوت، كلـما وُجدنا ولا ثالث بيننا! ثم بم يجيب أو ماذا يصنع ضد انفجـار ألمـي وحقـدي، أنـا اليتيم؟ وبريئًا كان أو مجرمًا وجب أن يسكت وقد سكت. فعـراني أعظـم القنـوط ووددت في تلـك الدقيقـة لـو يكـون لـديَّ أنـكى آلات العـصور الوسـطى تعـذيبًا كالمركبات الحديدية وقطع الحديد المحماة والرصاص المذاب لأستطيع بهـا جميعًـا انتزاع سر أحكم الأفواه إقفالًا.

يا له من سخط ذاهب سدًى! وكان زوج أمي قد نظر إلى الساعة فوقف وقال لي:

ـ أتريد أن تستقل العربة معي فأنزلك حيث تريد في طريقي؟ ولديَّ ميعاد في النادي لنتفق على الانتخاب الذي سيكون بعد غد، فهل ستحضره؟ فبدلًا من أن أجد أمامي ذلك المجرم المغلوب الذي تخيلته، وجدت رجلًا مدنيًّا يتأهب لتأدية واجباته حيال النادي. فرفضت مكرمته متمتمًا فصحبني حتى البهو باسمًا... ولكن لماذا إذن لمَّا تقابلنا بعد ذلك بربع ساعة صدفة وكنت راجلًا وكان مستقلًّا عربته... نعم، لماذا تراءى لي وجهه شديد الاضطراب قاتمًا بحالة مفجعة؟

لم يرني، فقد كان في زاوية الطريق، أغبر اللون كامدًا... وكانت عيناه تنظران... أين وماذا؟ كان ذلك المار أمامي شبحًا من البؤس يختلف محياه جد الاختلاف عن ذلك المحيا الباسم الذي رأيته منذ هنيهة فوقفت يداعبني شعور خارق، كأنما فزعت لنجاحي، مناجيًا نفسي: "أأكون قد أصبت المرمى"؟

(12)

تولاني الفزع مساء ذلك اليوم والليالي التي تلته. فهناك تفاوت لا حدَّ له بين مخيلاتنا، مهما كانت محددة، وبين أقل ذرة من الحقيقة. حقًّا، فقد أهاجت في نفسي خطابات أبي انفعالات عميقة وأثارت أمام عيني مشاهد مفجعة أن هذا الأمر البسيط _اضطراب زوج أمي بعد محادثتنا_ قد هزني هزة أخرى، مع أني كنت أتمنى من أعماق قلبي بعد قراءتي لتلك الخطابات وتكرارها، أن أكون ضالًّا وأن برهانًا ضئيلًا قد يبدد من مخيلتي شكوكًا ظننتها حمقى، ولعل ذلك لأني كنت أخشى سلفًا ذلك الواجب الهائل الذي قد يتحتم عليَّ، نفاذه عن يقين. حقًّا، كنت كعاشق يأبى احتمال الخيانة، أتاحت له الصدفة اكتشاف خيانة خليلته فعمد إلى تحقيق دقيق، مع رغبة محزنة يكظمها في أن يسفر التحقيق عن براءتها، لأنه إن تحقق خيانتها وجب عليه العمل وهو يعلم ما يجره عليه ذلك. نعم، كنت كذلك العاشق إذ لمحتُ منذ اللحظة الأولى وجوب العمل إذا أيقنت بإجرام زوج الأم.

العمل؟ لم أكن أجرؤ عليه. كلا، لم أكن فكرت في هذا الواجب قبل مقابلتي، هذه المرة، لعدوي المتردي من فعل الألم على وسائد عربته. أما الآن فقد أخاطر بالتفكير فيه. فماذا أتخذ إذا كان مجرمًا؟

عندما عدت إلى ركني، جرؤت على إثارة هذه المسألة واضحة، فرأيت الموقف رهيبًا. نعم، فإني مهما قلبتها، لا أصادف إلا ألمًا يعز التغلب عليه. فناجيت نفسي إذا كنت أترك الأشياء تبقى على ما هي عليه، ولكن كلا، لن أتحمل!

كثيرًا ما كنت أرى والدتي تقترب من السيد "ترموند" فتلمس جبينه بعطف فتضع عليه قبلة فأشعر كأن سهمًا يمزق فؤادي وأسائل نفسي: "أتحبو هذا العطف قاتل أبي"؟ فليكن! لأعملن! ولأتشجعن، لأندفعن نحو والدتي فأقول لها: "إن هذا الرجل القاتل..." وأريها إياه. لكن، هأنذا أعود فأشعر بمبلغ الألم المفجع الذي ستعانيه عند سماعها ذلك إذ أتخيلها، لما سينتابها من تمزيق فؤادها، مجنونة أو صريعة... كل لن أكلمها وإذا ما حصلت على الدليل الحاسم قدمته للعدالة. لكن مشهدًا آخر ثار أمام ناظريَّ، إذ تخيلت ما ستكون عليه أمي في اللحظة التي قد يعتقل فيها زوجها، وقد تكون بالقرب منه، فتسأل عن جرمه ولا بد أن تسمع الجواب الهائل فتسحق وأكون أنا السبب بإرادتي، أنا الذي كتمت منذ طفولتي جميع ما عذب قلبي من حسرات وآلام كان في إفشائها تفريج لبلواي، وما ذلك إلا إشفاقًا عليها لأني كنت موقنًا بأنها سعيدة وبأن السعادة وحدها هي التي أعمتها عن آلامي. كنت أحبها وأوثر أن تعيش هانئة في ظل الجهل بالحقيقة. والآن؟ ما كنت لأستطيع أن صيبك بهذه الضربة أيها المخلوق الضعيف العزيز!

وهكذا رأيت مشهد الـشؤم يـتراءى مفزعًـا في مـستقبلي، إذا صـدقت شـكوكي. فقاومت في الحال بجميع قواي وهمًا لا بد أن يجر إلى نتائج كهذه. وبعكـس عـادتي لجأت إلى الافتراض... فأخذت أقول في نفسي: "زوج أمي كئيب في عربته، فعلام يدل ذلك"؟ الم تكن لديه أسباب معقولة أو لها صحته التي تزداد كل يوم سوءًا؟

إن حدثًا واحدًا قد يتيح لي البرهان المطلق، ذلـك أن يكـون هـذا الرجـل قـد اضطر فوثب وثبة المفزوع بيـنما كنـا نتحـدث، أن يكـون عـم "هملـت"، أخـي في النزع، قد وقف شاحبًا فزعًا أمام شبح جريمته الذي ثـار فجـأة. لكنـه لم يـضطرب شيء في محيا زوج أمي أثناء المحادثة حتى ولم يلمع أقـل بريـق في عينيـه. فلـماذا إذن أعد هذا البرود ملقًا وتصنعًا وأعد اضطراب محياه الذي تحققتـه بعـد سـاعة اعترافًا حقيقيًا؟

كانت هذه الاستدلالات عادلـة أو عـلى الأقـل هكـذا بـدت لي اليـوم، حيـث أكتب هادئًا هـذه الـذكريات. عـلى أنهـا لم تتغلـب عـلى غريـزتي المـشئومة التـي أكرهتني على استتباع التحقيق.

نعم، كان حمقًا، بل جنونًا أن أفترض هـذا الأمـر الهائـل، أن يكـون السيد "ترموند" قد دفع آخر على قتل أبي. ومع ذلـك فهـذا الأمـر مهـم يكـن بعيـدًا فـإني لم أكُ أسـتطيع إلا أن أفـترض أنـه في جميـع الأوقـات ممكن وفي بعضها واقعي. وهكـذا عنـدما يرخـي المـرء العنـان لمخيلتـه فتخالجها أفكار من هـذا القبيـل، يـصبح أسـيرها فـلا يـستطيع الحركـة

حـرًّا. فإمـا أن يكـون الإنـسان جبانًـا وإمـا أن يغـرق أفكـاره في بحـار هـذه الهـواجس. كـان مـن واجبـي حيـال أبي وأمـي ونفـسي أن أعـرف سر الجريمـة. فكنت أجول ساعات طويلـة في مكتبـي، مقلبًـا هـذه الأفكـار المـشئومة. وقـد حصل أكثر من مرة أن تناولـت غـدارة فحـشوتها وناجيـت نفـسي: "إن مجـرد الضغط على هذا الزناد، حركة ضئيلة كهذه... _وكنت أمثل الحركـة_ تـشفيني إلى الأبد من هذا القلق القاتل" ولكني لا أكاد أمسك تلك الغدارة حتـى أذكـر تلك الفاجعة الحقيقية التي كان فريستها أبي، فكنت أذكر بهو "النـزل الملـكي" والرجل المتنكر الـذي كـان ينتظـره ووالـدي عنـدما دخـل فجلـس إلى المائـدة يقلب أوراقه وغدارة مثل هذه مسددة على بعد سنتيمترات من قفـاه. وتلـك الصعقة المفاجئة ورأسـه يقـع عـلى المنـضدة والقاتـل يغطـي بالمناشـف ذلـك العنق المثقوب الذي ينفجر منه الدم ثـم يغـسل يديـه كأنمـا أتـمَّ أمـرًا عاديًّـا بهدوء وطمأنينـة. لا أكـاد أذكـر ذلـك حتـى أسـمع صـوت الانتقـام قاصـفًا في فؤادي فأذهب إلى صورة الميت الذي ينظر إليَّ بعينيه الـساكنتين... فتـداخلني شكوك ضد المحرض على هـذه الجريمـة وقـد أتركهـا دون تحقيـق لأني أخـشى فرض العمل بعد ذلك!

آه! سـأبت في الأمـر بعـد ذلـك. إنمـا يجـب أن أعـرف أولًا، مهـما كانـت العقبات...

قـضيت ثلاثـة أيـام في عـذاب الـتردد بـين وسـائل تخـامرني فأرفـضها لاستحالتها، فأنَّى لي المعرفة؟ لن أستطيع إذن _مهما كان شغفي وتحمـسي_ أن أنتزع سرًّا، إذا كان ثم سر، من قلب هذا الرجـل، زوج أمـي، مـع ضـعفي عـن إخفاء تأثراتي المتضاربة! فإن شعوري المؤلم بقوته وضـعفي كـان يخيفنـي مـن وجوده، بقدر ما أنا فيه راغب، فضلًا عن أن ذلك الشعور كان يجعـل التـنفس عليَّ شاقًّا بجانبه بل يشل فيَّ كل استعداد، فما أنا حياله كتلميـذ شـجاع ثابـت القدم مضطر لمصارعة رجل عليم فمهمتـه مـضاعفة، هـي الـدفاع عـن نفـسه والانتصار. فما العمل الآن وقد رميت أول سهم ولكنه غير حاسـم؟ وإذا كانـت هذه المحادثة قد أثرت فعلًا في ضميره فماذا أتخـذ لأضـاعف تأثيرهـا فأسـحق تلك النفس؟

كنت واقفًا إلى هذه النقطة في أفكاري، أكوِّن خططًا فـأعود فأدهورهـا، وإذا ببطاقة وصلتني من والدتي تشكو فيها عدم رجوعي منذ اليوم الذي لم أقابلها فيه وتخبرني أن زوجها قد أصابته، أول أمس، نوبة من الكبد جد عنيفة...

أول أمس؟ إذن، كان في اليـوم الثـاني لمحادثتنـا، إذن، قـد يظـن أن القدر يسر بمضاعفة إبهام الأدلة التي هي أساس ما يساورني مـن يـأس مفجع. فهل تفسر هذه النوبة العنيفة سر كآبته وهو في عربته؟ أكانت سببًا لتلك الكآبة أو أثرًا بسيطًا للفـزع الهائـل الـذي لا بـد قـد سـحقه

بالرغم من تظاهره بعدم الاكتراث إذا كان آثمًا، عندما كنت أقذف عليه جمل التهديد؟ يا لله، يا له من شك ممقوت!

على أن والدتي قد زادت هذا الشك على أثر ذهابي إليها، إذ قالت: "هذه هي النوبة الثانية منذ شهرين ولم يسبق أن كانت ضربات المرض متقاربة هكذا... إن أشد ما يفزعني لهي تلك المقادير من المورفين التي يضطر لتعاطيها، هربًا من آلامه... لا ينام نومًا طبيعيًّا ولم ينم ليلة منذ سنين دون أن يلجأ إلى العقاقير المنومة. لكن المرض كان متحملًا، أما الآن..." ثم هزت رأسها بحزن بالغ. أما أنا فبدلًا من مؤاساتها، ساءلت نفسي إذا لم يكن ذلك علامة أخرى وإذا لم يكن أرقه ناجمًا عن تعذيب الضمير، أو أن يكون نتيجة لاضطراب جسماني. ثم استتبعت والدتي خجلة تقريبًا: "أتريد أن تراه"؟ ولما أن ترددت، استنتجت أن ذلك لخشيتي أن أتعبه، وما كان إلا لشدة دهشتي من هذا العرض، فقالت: "إنما هو نفسه الذي طلبك... كان يريد أن يسألك تفصيلات عن الانتخاب في النادي...".

فهل كان ذلك حقًّا السبب الحقيقي الذي لم أستطع إلا أن أراه غريبًا أو أنه يريد أن يثبت لي أنه ما يزال غير مكترث بمحادثتنا؟ وهل يجب أن ألمح في هذه المهمة، التي عهد بها إلى والدتي، دلالة بين ألف على شدة اهتمامه بأمور الحياة المدنية؟ أو أنه، وقد خشي شكوكي، أراد أن يختبرها، أو عذبه شغف الاستطلاع فأراد أن يتبين أفكاري من خلال ملامحي؟

لقد عدت فوجدت نفسي عند دخولي هذه الحجرة، التي كانت لي في طفولتي، في الحالة القلقة التي كنت عليها ذلك اليوم. على أن ذلك القلق كان ينقصه رجاء أن أرى السيد "ترموند" وقد أزعجته تورياتي المباشرة عن الجريمة التي كنت أظنه مجرمًا فيها.

كان أول شعور خالجني عندما أغلق الباب فظيعًا، فإني كنت ما أزال أذكر بضعة جمل من خطابات أبي عن سر الهجر الذي حل، رويدًا رويدًا، بينه وبين زوجه، فأراني منظر حجرة نوم زوج أمي هذه برهانًا جديدًا على عظيم الألفة بينها وبين زوجها الثاني، فإن هذه الحجرة على بساطة أثاثها لم زوج أمي ينام فيها إلا مريضًا. أما في الأيام العادية فلم يكن يستعملها إلا لارتداء ملابسه فهي إذن ليست حجرة نومه الدائمة. وهي مضاءة بمصباح صغير يغطيه حجاب وردي اللون بعيد عن السرير، لكيلا يتعب المريض ضوءه وكان بها صورة لوالدتي مدهشة لدقة إحكامها معلقة أمام السرير بحيث يشرف نظر السيد "ترموند" عندما ينام في الليل ويستيقظ في الصباح، على هذا الوجه الذي تمكن المصور الشهير "بونات" فأحسن فيه رسم جمالها.

ألقيت نظرة على هذه الصورة ثم نظرة أخرى على هذا السرير فلمحت زوج أمي، وبين الوسائد رأسه، وقد ابيض شعره وشحب لونه وتضعضع محياه. ورأيت حول عنقه شملة من الحرير لونها أزرق باهت، كنت رأيتها من قبل حول عنق والدتي وعرفت أيضًا الغطاء

الذي صنعته له والدتي وهو شبيه بالذي صنعته لي تتخلله خيوط الحرير ورأيت كثيرًا من النفائس التي قد تجدد فيَّ تلك الانفعالات الهائلة ومبعثها مقاسمته إياي عطف أمي، تلك المقاسمة التي آلمتني زمنًا طويلًا والتي زاد اليوم ألمها بأشد فظاعة، بفعل الشكوك. شعرت أن عيناي تستشفان اضطرابات هذه المشاعر.

ولما أن جلست إلى سريره وسألته عن أحواله بصوت كنت أشعر أنه صوت سواي، حاولت تجنب نظراته. أما والدتي فما كادت تدخلني حتى خرجت لتعنى بالطبع بدقيق أمور مريضها العزيز.

فسألني عن مسألة النادي التي تذرع بها ليراني. وإني وإن لم أرَ وجهه لأني كنت أشعر أنه يتفرس في وجهي فكنت أتعنت في تسليط نظري على غدارة جيب كبيرة كانت داخل درج هذه المنضدة المفتوح، بين ساعة وكيس نقود من الحرير الأسمر من صنع والدتي.

فما هي يا تُرى تلك الشواغل المفجعة التي أوجدت هذا السلاح في متناول اليد وقد يكون وضعه عادةً؟ وهل تنبأ من التفاتي إليه بما يجول بخاطري؟ أو صادفت كذلك نظراته هذه الغدارة فاصطاد من الأفكار التي يوحيها منظرها موضوعًا ليجعل المحادثة بيننا ميسرة؟ فقد سألني كأنما يجيب على ما ناجيت به نفسي:

ــ أراك تتأمل في هذه الغدارة، إنها لجميلة، أليس كذلك؟ ثم أمسك السلاح فقلبه فأعاده مكانه فأغلق الدرج فاستتبع قائلًا: تخذت هذه

العادة الغريبة... قد لا أستطيع النوم دون أن يكون بجانبي سلاح معدٌّ... ومع كل فهذه العادة لا تسيء إلى أحد ولعل لها فائدتها... ولو كان والدك متسلحًا بألعوبة كهذه عندما ذهب إلى النزل الملكي لكانت ظروف القتل أقل سهولة عند القاتل.

فلم أستطع في هذه المرة التغلب على نفسي فرفعت ناظريَّ لأقرأ ما بناظريه إذ كيف جرؤ على إثارة هذه الذكرى بهذه البساطة إذا كان آثمًا؟ ولماذا _إذا لم يكنه_ هذا التصدع ودليله تجنب نظراته نظراتي؟ فهل كان بإلماعه إلى موت أبي مطيعًا لتصورات تكوَّنت في مخيلته أو تعمد إظهار خلو ذهنه خلوًا تامًّا مما كان موضوع محادثتنا الأخيرة؟ أو هل كان ذلك نوعًا من اختبار قصد به إلى قياس مدى شكوكي؟

ثم أضاف بمناسبة ذكرى تلك الجناية الخفية التي سببت يتمي:

ــ وبهذه المناسبة، هل عدت فقابلت الأستاذ "ماسُّول"؟

فأجبته:

ــ كلا، لم أقابله بعد المرة الأخيرة... فاستتبع يقول:

ــ إنه ذكي. وكثيرًا ما تحدثت إليه منذ وقوع ذلك الحادث المروع بصفتي صديقًا حميمًا للفقيد العزيز ولوالدتك... ولو كنت أعلم أنك تقابله لحمَّلتك تحيتي إليه... فأجبته:

ــ إنه ما يزال يذكرك...

وكنت كاذبًا، لأن الأستاذ "ماسُّول" لم يكلمني عن زوج أمي. لكني قد عاودني ذلك التهيُّج البارد الذي اضطرني في المحادثة السابقة لمضاعفة هجماتي بجنون تقريبًا.

ألا أستطيع إذن العثور على ذلك الركن الآلم الذي أتلمسه في هذه النفس المظلمة؟ لم تضعف عيناه في هذه المرة. وجملتي، مع ما كانت عليه من الإبهام، لم تستدرجه إلى استزادة الاستيضاح مني بل بالعكس وضع أصبعه على فمه، أنه وقد اعتاد إرهاف أذنه لأقل الحركات، سمع وقع خطوات تقترب، خطوات أمي. فهل أنا واهم؟ وهل في هذه الحركة التي أرادني بها على السكوت توسل باحترام طمأنينة المرأة البريئة؟ هل عليَّ أن أفسر النظرة التي صحبت هذه الحركة بأنه يقول لي: "لا توقظ شكوكًا في قلب أمك قد تعذبها كثيرًا" أو كان ذلك مجرد اهتمام رجل بألا تعود فتسلط على زوجه ذكريات محزنة؟

دخلت والدتي فألفتنا جالسين إلى المنضدة فأرسلت إلينا معًا تبسمة شملتنا فيها بعطفها. ولا غرو فلقد كان ألذ حلم في حياتها أن نكون معًا بجانبها.

كانت تعزو إلى خلقي المتريب ــوهو ما تحدثت إليَّ بصدده في "كومبيني"ــ المصاعب التي تعانيها في تحقيق هذا الحلم. ثم

إنها ذهبت فعادت، دائمة التبسم، تحمل صينية من الفضة عليها كوبة ملأى من ماء "فيشي" فقدمتها إلى زوجها فشربها وردَّ لها الكوبة مقبلًا يدها. ثم قالت لي:

ـ فلندعه يستريح فإن برأسه حرارة...

فلم أكد ألمس أطراف أصابعه حتى شعرت أنه حقًّا محمومًا. فبماذا أفسر هذا العرض الذي هو غامض كالأعراض الأخرى والذي قد يدل على مرض جسماني كما يدل على اضطراب أدبي؟ قد أقسمت أن أعرف ولكن بأية وسيلة؟

إذا كنت قد دهشت لرغبة زوج أمي أن يراني أثناء مرضه فقد أدهشني أكثر أن سمعت خادمي يبلغني بزيارته لي، ولمَّا يمضِ سوى أسبوعين، وكنت أرتب أوراق والدي الأخرى التي أحضرتها من "كومبيني" بعد أن قضيت فيها ذينك الأسبوعين لأفكر مليًّا فيما أتخذ حيال السيد "ترموند" متظاهرًا بترتيب أعمالي. ولكن ذلك التفكير قد زاد في شكوكي.

فإن والدتي، كطلبي، حررت إليَّ ثلاث مرات عن حالة المريض فعرفت أنه في تحسن وأنه كان يخرج. ولما عدت بالأمس خترت لزيارتهما لحظة وثقت ألَّا أجد فيها أحدًا عندهما لكني وجدت أنه قد حضر لزيارتي ولم يسبق له ذلك إلا نادرًا منذ أقمت في منزلي. فقال لي إن زوجه عهدت إليه بأمر يبلغني به...

كانت والدتي قد أقرضتني عددين من مجلة وكانت في حاجة إليهما لتبعث بجميع الأعداد حيث تجلد. ولما أن كان "ترموند" أمام بابي فقد صعد ليطلبهما مني... فتفرست فيه عندما كان يبلغني سبب زيارته، دون أن أفكر في ما إذا كانت هذه الحجة تستر أو لا تستر سببًا خفيًّا، فألفيته أشد بلبلة واضطرابًا، فأجبته:

ـ هذان العددان ليسا هنا وقد نجدهما في بهو التدخين... وكان هذا تغريرًا لأنهما كانا بالحجرة على المنضدة، لكن توجد في بهو التدخين صورة أبي وقد تملكتني فكرة استدراج السيد "ترموند" أمامها، لأرى مبلغ جلده حين يراها. فلما لم يلمحها بادئ الأمر، اتجهت إليها فصادفتها عيناه وكانتا تتبعان حركاتي، فاضطرب جفناهما وغشي محياه قلق غامض ثم حوَّل ناظريه إلى صورة أخرى. فلم أترك له فرصة يستجمع فيها عواطفه بعد هذه الهزة. وبطريقتي الوحشية قلت له ملحًّا:

ـ ألا ترى أن صورة أبي هذه تشبهني تمام الشبه؟ زعم أحد أصدقائي أنه لو كان لي شعره لكنت به كامل الشبه...

فنظر إليَّ أولًا ثم إلى الصورة طويلًا، حتى ليظن أنه خبير يفحص عملًا فنيًّا لا لشيء إلا ليقدر مدى المطابقة. فلو كان المحرض على قتل الشخص الذي كان يفحص بهذه الدقة صورته، لكان سلطانه على نفسه خارقًا حقًّا، ولكن أما كان تأثير الاختبار عليه حاسمًا، إذ

كان اضطرابه اعترافًا؟ كم وددت أن أعدَّ دقات قلبه في تلك اللحظة! وأخيرًا قال لي:

ـ نعم تشبهه... لكن ليس كل الشبه... أسفل الذقن والأنف والفم على الأخص. لكن ليس لك نظراته ولا حواجبه ولا جبينه ولا خداه... فأجبته:

ـ أتظن هذا الشبه عظيمًا بحيث يفزع القاتل إذا صادفني فجأة هناك؟ وتقدمت محملقًا في وجهه كأنما أمثل مشهدًا مفجعًا. ثم استتبعت قائلًا: نعم، أتكفيني هذه المشابهة في الملامح لأثير في نفسه شبًا وأنا أسأله: "هل تعرف ابن من قتلته"؟

فأجابني دون أن يزداد اضطرابه:

ـ ها نحن نعود إلى مناقشة تلك الليلة. إن هذا لموقوف على مبلغ فعل الضمير في ذلك الشخص، إن كان له ضمير، وعلى مبلغ تحمل أعصابه.

ثم سكتنا وكان وجهه الشاحب الآلم الساكن يسخطني لفقدان كل ما أستطيع قراءته فيه. وفي هذه الدقائق ـوكثيرًا ما لعبنا معًا هذه الأدوار منذ ثارت فيَّ شكوكيـ شعرت أني أكثر قوة وثباتًا مني في وحدتي وخضوعي لهواجسي. كان ثباته يطير صوابي ولذلك لم أقف عند حد هذه المحاولة بل ابتدعت في الحال محاولة ثالثة تقلقه بمقدار ما أقلقته المحاولتان الأوليان إذا كان مجرمًا. لكنني كنت كمن

يضرب عدوه قابضًا على سكين لا مقبض له فيدمي يده هو ويمزق أصابعه، بينما يبحث عن جرح عدوه بسن السكين. لكن كلا، لم أكن بالدقة هذا الرجل، فإني لم أكُ أجهل ما أجره على نفسي من السوء بهذه المحن القاسية. وأما خصمي فكان يخفي بمقدرة تامة جرحه الذي لم أكن أراه داميًا. لا يهم، ما دام جنون معرفة الحقيقة أقوى من ألمي. فقلت له:

ـ ما أغربها مشابهات! فإن حظنا أنا وأبي واحد... انظر... وفتحت الدرج الذي استودعته خطابات أبي لعمتي، فأخرجت منها الأخيرة في التاريخ وكنت وضعتها فوق الخطابات التالية لها وقدمتها إليه وكانت تواريخ إرسالها بختم البريد جلية وهي في شهري إبريل ومايو 1864.

فإذا كان السيد "ترموند" مجرمًا، وجب أن يناجي نفسه بأن هذه الخطابات تفسر الانقلاب المفاجئ في موقفي حياله وجرأتي في تورياتي قوة هجماني. وأن يدرك أني وجدتها بين أوراق عمتي. نعم، كان من المتعذر ألّا يناجي نفسه بقلق قاتل عما تحويه هذه الخطابات، حتى أثارت فيَّ شكوكًا كهذه. فلما أمسك المظاريف بين يديه قطب حاجبيه. فظننت أني سحقت ذلك المظهر الخادع فانكشف وجهه الحقيقي الذي ترتسم عليه مشاعر النفس الحقيقية، لكني كنت واهمًا، فإن ذلك لم يكن إلا مجرد تقلص في العينين وهو مألوف عند من

يـدقق النظـر، إذ أن جبينـه تهلـل فجـأة وردَّ إليَّ الخطابـات دون أن يـسأل عـما تحويه قائلًا:

ـ المشابهة في هذه المرة مدهشة حقًّا.

ثم عاد إلى سبب زيارته فسألني عنـد عـددي المجلـة فاغتظـت حتـى كـدت أبكي لأني شعرت من جديد أني طفـل عـصبي بمبـارزتي رجـلًا عـلى هـدوء مطلـق. فأرجعـت الخطابـات مكانهـا ثـم دفعـت المكتبـة الـصغيرة ثـم الكبـيرة متظـاهرًا بالدهش وبأني وجدت المجلتين على منضدتي بين صحف أخرى. عمل صبياني، فهل خدع به على الأقل؟

أما هو فلما أخذهما ترك المكان الذي كان فيه دائم التأمل في صورة أبي أثناء بحثي في صالون التدخين. فلماذا راق له التأمل في صـورة لم تكـن إلا لتؤلمـه حتـى ولو كان بريئًا؟ ثم قال لي:

ـ أريد أن أستغل أشعة الشمس لأجول جولة في الغاب. أتصحبني؟

فهل كان مخلصًا في دعوتي إلى التنزه معه على عكـس عادتنـا؟ وأي دافـع كـان يطيع، أمجرد تجاهل هجماتي أو إشـفاق مـريض يخـشى الوحـدة... عـلى أني قبلـت لأستتبع مراقبتي. وما كاد يمضي ربع ساعة حتى كنا في طريقنا نحو قـوس النـصر، في هذه العربة نفسها، التي كنت رأيته فيها مسحوقًا على أثر محادثتنا الأولى. لكـن، في هذه المرة، قد يقال إنه رجل آخر، فإنه وهو غارق في معطفه مدخنًا سيجارته، كـان يرد التحية بيده على مـن قابلـه مـن نافـذة العربـة منـدفعًا في التحـدث إليَّ عمـن

كنا نقابلهم، ساردًا أقاصيص ولطائف مختلفة كنت بين عالم ببعضها وجاهل بالبعض الآخر. وكان كمن يتحدث أمامي لا إليَّ، غير مهتم بتكرار ما لم أكن أدركه ولا بتفهيمي ما لم أكن أعلمه. فاستنتجت _لأن في بعض حالات العقل يصبح كل معنى دلالة_ أنه كان يتكلم هكذا ليتفادى هجمة أخرى من جهتي ولكني لم أكُ من القوة بحيث أعود إلى مجهوداتي المؤلمة والتي لا فائدة منها، لأدمي جرح قلبه. فكنت أسمعه وألمح التباين الغريب بين أفكاره الخاصة وبين المبادئ القاسية التي كان يذيعها عادة، حتى ليقال إن تلك الجامعة المحترمة التي كان من عادته الدفاع عن مبادئها لم تكن أمام عينيه إلا مغارة. ولأن الساعة كانت ساعة خروج النساء إلى نزهتهن وزياراتهن، أخذ يعدد لي فضائحهن، إن صدقًا وإن كذبًا، فيقول عن واحدة إنها خليلة أخي زوجها، وعن الأخرى إنها خليلة علنية لرجل "ديبلوماسي" مسن اغتنى هو نفسه من زواج دنس. وعن ثالثة إنها كانت متزوجة بأعزب بليد، ولتضع يدها على ثروته جمعًا قذفت بابنه في مهاوي الدعارة التي قتلته وهو في سن التاسعة عشرة... هكذا كان يقص عليَّ هذه النمائم بفرح فظيع كأنما يلذه أن يرى الإنسانية مرذوله فاحشة. فهل لي أن أستشف منه كراهية رجل عاش طويلًا في ميدان هذه المحادثات المألوفة في النادي وعند الرجوع من السباق والتي يظهر كل منهم خلالها ما فيه من حب الذات ويجاوز الحدَّ عن رغبة في شرح سواد يقظته ليحسن البرهنة على مبلغ اختباره؟ أو سفاهة شرير يحمل وزر أفظع جريمة يسر بأن يقنع نفسه بأن غيره أقل منه قيمة؟ عندما سمعته

يضحك ويتكلم هكذا وقعت في كآبة غريبة وكن قد تجاوزنا آخر فنادق طريق الغاب وجسنا طريقًا إلى اليمين تندر فيها العربات. وكان سماء باريس أزرق باهتًا وجوها صحوًا جميلًا. وكان السيد "ترموند" متماديًا في سخريته وضحكه، وكنت أنا أفكر في أنه قد يكون محقًّا وأن هذا العالم ربما سقط في هاوية هذا الانقلاب الملعون... ولم لا؟ أما كنت أنا معه في نفس هذه العربة مرتابًا بأن المحرض على قتل أبي؟ لقد سحقني حقدي على الحياة... فهل أدرك زوج أمي من سكوتي ومن محياي أن في جذله تعذيبًا لي؟ على أنه انقطع فجأة عن الكلام وكنا قد بلغنا ركنًا قاحلًا من الغاب فنزلنا من العربة لنمشي قليلًا، فهل تعب من إجهاده نفسه؟ كم أذكر تلك الطريق المنعزلة بين الحشائش الضعيفة والأشجار العارية والجو البارد وتلك الطريق التي كانت على قيد خطوات منا وفيها سارت العربة ببطء خاوية يجرها جوادها الأحلس، هازًّا رأسه، وحوذيها بوجهه الساكن، ثم السيد "ترموند" وكان يمشي بقامته العالية، غارقًا في معطفه، وياقته من الفرو الأدكن، تظهر بياض شعره الباكر، ينبش الحصى بعصاه كمن ملكه الملل! لقد عاد فثار في مخيلتي في هذه الساعة مرآه بدقة لا تقبل الجدل، فإني عندما رأيته يسير كئيبًا حسيرًا، شعرت لأول مرة بما كان فيه بؤس عتيد. فهل كان ذلك من تأثير محادثتنا بعد ظهر اليوم أو من الكآبة التي عرتني من ضحكه وسخريته؟ أو كان لعبوسة الشتاء حولنا؟ حقًّا فوجئت لأول مرة منذ عرفته بالإشفاق عليه يمازجه الحقد إذ كان يمشي ملتمسًا الدفء من شمس الشتاء الضعيفة، شديد

الانقباض، واضح التعب، في حال يرثى لها! كم من لحظات قضيناها هكـذا! لكنـه اتجه إليَّ قائلًا، وقد شوَّه الأسى محياه:

ــ أشعر أن حالتي سيئة، فلنعد... ولما أن ركبنـا العربـة اسـتتبع مـتكلمًا عـن صحته قائلًا:

ــ لم تعـد لي في الحيـاة إلا أيـام معـدودة، أصـبت... أتـألم شـديد الألم، ولـولا والدتك لما عشت هذه السنين... ثـم أخـذ يتغنـى بفـضائلها مـدفوعًا بهيامـه بهـا، بينما كنا مسرعين بالعودة وقد بدأ الشفق يكسو السماء بلونه الأرجواني. نعم كان جميل غرامه بوالدتي أكثر مني حنوًّا عليها إذ أطال في الترنم بقدرتها على فهم لغة الوجدان _وكثيرًا ما آنست فيها فقدان هذه الشاعرية_ وفي دقة ذكائها، مع كونها قلما أدركت ما يبدو على محياي من سريرتي. ثم أضاف وهو الحائل بيني وبينها:

ــ أحببها الحب كله فإنك ستصبح ولا شريك لك في حبها...

فإذا كان هو من جرؤت على الظن بأنه مجرم فهو لا بد عالم أنه في احتمائـه بذكرى والدتي إنما يضع أمامي العقبة الوحيدة التي قد لا أستطيع تخطيهـا والتـي كنت أدرك بجلاء ومرارة أنها قد تكون أشد قوة من أفظع أنواع اليقين! فما فائدة إغراقي إذن في البحث؟ ولكن لماذا أيضًا أتنازل عن المضي في التحقيق الذي أجريـه عبثًا؟ إلا أن الفرصة قد فاتت ولا سبيل إلى القهقري.

(13)

"أكنت جبانًا" إني كلما فكرت فيما استطعت إنفاذه بهذه اليد التي تحمل هذا القلم، أسمع في حنايا قلبي صوتًا يصيح بي" "كلا"! وإلا فكيف أفسر إذًا هجماتي عليه في المرة الأولى التي حاولت فيها تعذيبه في مكتبه بحديثي عن الجنايات وخطر الاشتراك في الجريمة. وفي المرة الثانية، وكنت جالسًا إلى سريره، إذ قلت له، متفرسًا في وجهه: "كلا، فالأستاذ ماسول لم ينسك..."، وفي المرة الثالثة في منزلي، إذ وضعت في يده الخطابات المتهمة؟ وكيف أفسر انقضاء أيام طويلة دون عمل بعد هذه الوقائع الثلاث؟ لقد أنَّبت نفسي أشد تأنيب لإضاعتي شهورًا دون أن أعلم ما به ألمس الحقيقة مع أن الدليل الذي انتزعته وأراه، جمادًا كان أو إنسانًا، قدمته لي الصدفة لا سواها، فلا فضل لي في إخراجه من حالك الظلمات التي كان ثاويًا فيها. لكن أكان ذلك خطئي؟ منذ اللحظة التي فيها آنس زوج أمي في نفسه من القوة ما يقيه الاندحار عند أول هجمة فاجأته بها مفاجأة، ماذا عليَّ سوى اليقظة لاصطياد الأدلة وسبر غور قلبه؟ لذلك عدت إلى الفكرة الأساسية وهي بما أن الأدلة العملية تنقصني فعليَّ تلمس البراهين العقلية الموصلة لاحتمال وقوع الجريمة الغريبة التي أتهم

بها هذا الرجل. وهو ما يدعوني إلى الإقامة بمنزل والدتي، بعكس عاداتي السابقة. لكن قد يكون في ذلك تعذيب لي وللسيد "ترموند"، إذ كيف يتحملني وهو يشعر أنه موضع الشكوك؟ وأنا، كيف أتحمل وجوده مع ارتيابي في أمره؟ إذن، كلا... كنت حقًّا كمن لدغته الأفعى في قلبه، كلما رأيته بجانب والدتي، مطمئنًا محبًّا لها محبوبًا منها، محترمًا من الجميع، فأناجي نفسي: "أيكون هذا قاتلًا دنيئًا"؟ فأتخيله على ما يجب أن يكون، شاحبًا، مقصوص الشعر، مغلول اليدين، متسلقًا المشنقة في برودة الفجر، مشيعًا بلعنات الجمهور، في ضيق التكفير عن جريمته وأمامه سكين المقصلة ماثلة سوداء في شحوبة السماء... لكنني بدلًا من ذلك، أراه موضع مواساة والدتي وحنانها ومداعبتها ومناط اهتمامها! هكذا كان هناؤها يؤذيني ولكن شغفي باكتشاف الحقيقة كان أقوى، إذ كانت شكوكي تثور ثورانًا حتى تبلغ بي درجة الهذيان فتوطد في نفسي رغبة عتيدة في الحيلولة دونه والخروج وذلك ليتجرع كأس العذاب برؤيته إياي. لكنه كان يتحمل بسهولة ومسايرة مدهشتين. فهل كان هو الآخر تحت تأثير شغف من نوع شغفي؟ أما الآن وقد انقشعت غيوم الإخفاء وعرفت قسطه في تلك المؤامرة المريعة، فأنا إذن الذي كنت أخضعه لتأثير شغفي المعذِّب، لأن شبح الجريمة كان يعذبه، يساعده في ذلك وجودي، كما كان هذا الشبح عاملًا حيًّا في تخيلاتي المشئومة الدائمة. فلم يكن هذا الرجل ليفكر إلا فيَّ كما أني لم أكن لأفكر إلا فيه. وهكذا

كان ما بيننا من الحقد يدفع كلانا نحو الآخر كما الحب بعاشقين، فإذا مـا افترقنـا، ثارت عواصف التخيلات الجنونية بأقسى شدة، أو على الأقـل، كـان ذلـك بالنـسبة إليَّ، فكان وجوده وإن آلمني، يهدئ تلك العواصف القلبية التـي كانـت، وأنـا عنـه بعيد، تطـير بي بـين طـرفي المـستطاع إذ مـا أكـاد أعـود إلى عزلتـي حتـى تتـضارب المشاريع الحمقى في مخيلتي فأراني منقضًّا على عنقه صائحًا: "إنك لقاتل"! مكرهًا إياه بهذه الصرامة عـلى الاعـتراف كـما كنـت أرى نفـسي مقـدمًا هـذه الأدلـة إلى الأستاذ "ماسُّول" الذي يقتنع بها فيعود إلى استتباع التحقيق من جديـد، كـما أراه يجوس خلال شارع "لا تور موبور"، كذلك كنت أرى نفـسي مرشـيًا اثنـين أو ثلاثـة من اللئام فيحملوا زوج أمي قهرًا فيدخلوه منزلًا منعزلًا في الـضواحي ليبقـى فيـه حتى يعترف بجريرته. هكذا كانت مخيلتي تقذف بي في هذا الهذيان الـذي جـرني إليه شغفي، وقد زاده حدة شعوري بعجزي. أما هو فعندما لا أكـون معـه. لا بـد أنه كان يجتاز ساعات كهذه يتخيل فيها ألف وسيلة ثم يرجع عنها مناجيًا نفـسه: "ماذا يعرف"؟ ثم يجيبها: "إنه يعلم كل شيء... كلا، لا يعلـم شـيئًا..." ثـم يجيبهـا: "إنه يعلم كل شيء... كلا، لا يعلم شيئًا..." "علام عـوَّل"؟ يـستنتج أني سـأفعل كـل شيء، بل إني لن أفعل شيئًا. أما عندما نكون معًـا، كانـت الحقيقـة تـتراءى أمامنـا فتدهور كثيرًا من هذه التخيلات. إذ كنا نجلس، يـدرس كـل منـا الآخـر، كوحـشين ينقضان عـلى بعـضهما. ولكـن كلامنـا كـان يـدرك مركـز الآخـر غـير قـادرين عـلى

الجهر، لا هو بتريبه، ولا أنا بشكوكي، لكنا نتحقق أنا لم نتقدم فتيلًا منذ محادثتنا الأولى. أما من جهتي فهذا الوضوح وإن أيأسني إلا أنه هدأني نوعًا ما إذ خفف عني عبء وخزات ضميري لتقصيري في واجبي. لكن ماذا كنت أستطيع؟

ما أمرَّ ذكريات تلك الفترة التي أضعتها عبثًا! فإني، حتى شهر مايو من عام 1879، كنت عاكفًا على رؤية زوج أمي كل يوم تقريبًا، فأكون أمامه ممزق القلب، وفي غيابه فريسة لأسوإ عواصف مخيلتي. وبذلك كان عملي محصورًا في دراسة خلقه وتحليل عقليته بحماس يضعف مرة ويشتد أخرى، بحسب ما كنت أتصيده أو لا أتصيده من تفصيلات صائبة. فكنت أتعلق بأقل الأشياء لأنها أقل تضليلًا وأكثر احتمالًا للوصول إلى ما تخفيه فطرة هذا الرجل... كنا نسير متنزهين في الغاب صباحًا ممتطيًا كل منا جواده، عدة مرات في الأسبوع، على خلاف عاداتنا الماضية. كان يحضر عندي أو كنا نتقابل على غير ميعاد منجذبين نحو بعضنا بغريزتنا المشتركة العاتية. وبينما كنا نسير متحدثين في أمور مختلفة، كنت أراه يسوس جواده بقسوة تارة، مع ما في ذلك من مخاطرة، وبدربة عظيمة، تارة أخرى. كانت له فطرة الوحوش العتيدة، إذ كان يسيء لدرجة الطغيان معاملة جواده، الأمر الذي يندر عند فارس درب. فكنت أناجي نفسي: لا بد أن مثله في ظلمه للخيل كمثله في حياته، يخضع من حوله إلى إرادته. ولأنه من الحقد بحيث لا يعفو، كان محبوبًا قليلًا ولكن مخوفًا مهيبًا. كما كان

يخفي وراء ظاهرة الأدب واللياقة قوة خارقة بدت خلال الحـرب فقـد دافـع عـن باريس دفاعًا مجيدًا. وأما صرامته مع جواده فقد أتاحت لي الحكم بأن الظلم من غريزته وأنه لا يعبأ بشيء في سبيل إرضـاء شـهواته. فـإني كنـت ألمـح مـن حـديث شجاعته التي بذلها في عام 1870، عقدًا أمضاه مع نفسه بأن يتغلب عـلى ضـميره حتى لا يبدو أمام نفسه إلا بما كان عليه، لا بما هـو عليـه الآن، إذا كـان حقًّـا قـد اقترف الجريمة. وقد كنت أسائل نفسي أحيانًا: هـل كانـت هـذه الـشجاعة مجـرد حدث من أحداث غريزة الوحشية التي تحققتها فيه، أم أحبولة يريد بهـا تـضميد حالة اليأس التي كان فيها وهو في جمال هنائه؟ ولكن، من أين تـولاه هـذا اليـأس؟ أمنشؤه الوحيد صحته المتهدمة؟ كنت أتفرس في تكوينه الجسماني، بينما كنا نـركض بجوادينا، باحثًا عن مشابهة بينه وبين الأدلة الغامضة التي درستها في أسفار مظـاهر المجرمين الخارجية فأرى أن نصفه الأعلى جد كبير بالنسبة لساقيه وذراعيه عظيمـي النمو وفكه الأسفل قويًّا وإبهامه طويلًا نوعًا ما. وقد سبب اهتمامي بطـول إبهامـه اعتياده إقفال يده عليه كمن يخفيه. على أني أدركت أني لن أسـتطيع اسـتنتاج شيء حاسم من ملاحظات كهذه فتركتها لتفاهتها. ولكني ما لبثت أن عـدت إليهـا لأتمهـا بملاحظات أخرى قد تجعل لها قيمة فقد أدى بي هـذا البحـث إلى النـبش في وراثـة السيد "ترموند" فاهتديت إلى أن جده مـن جهـة الأم قـد انتحـر بغـدارة وأن أخـاه قد انتحر غرقًا بعـد أن أضـاع ثروتـه وطـرد مـن الجـيش وضـل في مهامـه مخزيـة

وأنه قد ألمت بهذه العائلة كوارث مفجعة، كم من مـرة عنـدما كنـا نـسير راجلـين صامتين كنت أقلب هذه الأفكار الجنونية في مخيلتي بل وأشد منها جنونًا! وعنـد عودتنا كنت أفطر أحيانًا عند والدتي وأحيانًا أعود إليها بعد أن أتناول شـيئًا يـسيرًا وحيدًا بمنزلي. وكان من النادر أن نكون، أنا والسيد "ترموند"، وحيدين بمنزله. ومـا الفائدة الآن، ما دام المجرم الذي أتعسف في تأثره قد شعر ولم يعد لي حظ انتـزاع سره بمفاجأة؟ لذلك كنت أفضل أن أدرسه أثناء يتحـدث أمـامي إلى الغـير فـأزداد يقينًا بمبلغ سلطانه على نفسه. كنـت في طفـولتي وفجـر شـبوبيتي، أمقـت هـذه المقدرة على الإخفاء مقتًا إذ كنت أشعر بتفوقه عليَّ، بيـنما أنـا فريـسة لوسـاوسي غير قادر على شيء من الهدوء الذي يغشى التأثرات الهائجـة. أمـا الآن فـإني كنـت أشعر بنوع من الفرح إذ ألاحظ قدرته على الملق. فقد كانت عادة الإخفاء فيه أشـبه بغريزة فلا يعرف أحـد مـن أمـره شـيئًا حتـى ولا زوجـه، كـما كـان يحـسب حـسابًا لأبعد النتائج التي تحدثها كل جملة ينطق بها. ولدقة مراقبته نفسه لا يستطيع أحد أن يدرك أنه ذلـك المخلـوق الغـامض. لقـد اسـتجمعت مختلـف أمـور هـذا الخلـق مقارنًا بين هذا الإخفاء وتلك الحماسة التي كنت آنـستها فيـه فبـدا لي مخلوقًـا جـد خطـر، فهـو يكـثر مـن الاسـتفهام أو يـتكلم عـن رويـة وإبهـام، إلا في حـالات نـادرة كالحالة التي كان عليها يوم تنزهنا معًا، إذ ظننته يتناسى نفـسه، فقـد كـان يـضحك ضحكًا عصبيًّا مسرفًا من الحديث مدليًا بنظريات سفيهة تقريبًا، ذاكرًا أمورًا أفزعتني،

أنا نفسي، فضلًا عما تبينته من وقوفه المدهش على أدق أمور الطب الشرعي. فإنه بمناسبة قضية هامة كانت قيد التحقيق، خلال مناقشة حادة تدخل فيها كثيرون، فرط منه تاريخ يوم القبض على الطبيب الشهير "لابوميري" فحققت الرقم فوجدته صحيحًا! يا له من شاغل غريب بشؤون الجرائم التي يتفق كثيرًا مع المعلومات التي عرفتها من الأستاذ "ماسُّول"! أو ليست هذه هي الفكرة الوحيدة الملازمة التي يقول ذلك القاضي الخبير إنه لاحظ في كثير من القتلة إنها هي التي تجذبهم إلى الأماكن التي اقترفوا فيها جرائمهم وإلى تتبع جثث ضحاياهم ليروها في الأماكن التي تعرض فيها على الجمهور، وهي أيضًا التي تدفعهم إلى الشغف بمعرفة من هم موضع ريبتهم وإلى قراءة الصحف التي تحوي حديث جريمتهم قراءة دقيقة، وإلى تتبع قضايا الجرائم الشبيهة بجرائمهم! وكان زوج أمي يقع ساعات في صمت رهيب مدمنًا على التدخين نهارًا والمورفين ليلًا بالرغم من نواهي الطبيب، فما هي تلك الآلام التي كان يحاول التغلب عليها بإفراطه في هذه المواد الملهية المخدرة؟ أكان ذلك لشدة وطأة مرضه أم بسبب تلك التخيلات التي كانت تساورني عند استسلامي لنظرياتي المفجعة؟ وكذلك كانت تمر به لحظات مسحوقًا من شدة الألم حتى لا يأبه بوجودي. وقد فاجأته وحيدًا في هذه الحالة مرتين أو ثلاثًا وقت الغروب فكنت أتفرس فيه وأنا على وشك أن صيح به: "اعترف، اعترف، وكفى إخفاءً"! وقد لا يدهشني إذ ذاك لو سلم نفسه،

فيترك سره يفلت، فيجيبني: "إن ما يساورك لحق"! لكنـي أعـود فأشـعر بـضعف أدلتي فأناجي نفسي: "وإذا لم يكن آثماً"! فأوثر الصمت فريسة لحمى الشك الـذي كان، منذ أسابيع، يسحقني. أما هو فقد خرج من صمته فحدثني عن والدتي مثيراً من جديد صورتها بيننا. فلماذا؟ هل كان يذكرها حزيناً لأنه يظـن، لـشدة مرضـه، أنه سيحرمها إلى الأبد؟ أو كان يحتمي بذكرها لوثوقه من عدم احـتمالي تعريـضها لآلام الحقيقـة؟ إني أرجـح هـذا لأنـه لم يكـن يحتمـل الإهانـة التـي أوجههـا إليـه بنظراتي وتورياتي وما تنطوي عليه هذه وتلـك مـن وعيـد، مـع شـجاعته وقـسوته الفطريتين، لو لم يكن يريد، مهما كلفه ذلك، أن يحول دون والـدتي وحـادث يقـع بيني وبينه، مع إيقانه بعجزي عند تقديم الحجة الدامغة فضلًا عن ضـنه بنفـسه أن يتهم أمامها وهو بها هائم، لذلك آثـر احـتمال الألم. ومهـما يكـن مبلـغ تبرمـي لشعوري بحبـه لهـا فإنـه كـان عـليَّ قبـول هـذا الـدليل وعـلى الأخـص في نظريـة الجريمة. على أني مـع إدراكي بـأن علينـا كلينـا _بـالرغم مـما بيننـا مـن حقـد_ أن نتضامن في عدم تعكير هناء هذه الخلوقة وهي موضع إعزازنا، إلا أن التباين بيننا كان عظيمًا، لأنه وإن شعر بالغيرة لتعلقي بأمي فإني كنت أفزع كلما تذكرت أنهـا كانت تحبه مع ما يحتمل من تلويث ضميره بدم أبي!

كان يحبها! ومن أجلها أرشى آخر على سفك دم أبي. فهي إذن التـي يجب أن تكون سبب فقدانه، تلك التي كانت فرحـة تنظـر إلينـا نظـرة الحنو ليلـة كنـت جالـسًا إلى سريـره وهـو مـريض، فـإن مـا يبـذل مـن

جهد شاق استبقاءً لطمأنينتها وما يتخذ من مختلف الاحتياطات لـستر مـا يخـشى احتمال ظهوره من العوارض، كل ذلك مؤدٍ به إلى الفناء، لا فرق فيه بـين أحاديثـه الحكيمة إليها وذلك العطف الكاذب الـذي كـان يظهـره لهـا. ولـولا تظاهرنـا، أنـا وهو، بالحب لبعضنا لما أفضت إليَّ، هي، بحديثها ولما عرفت مـا عرفـت وهـو مـا وضع حدًّا فجأة لتلك الحرب الصامتة التي كنت متسلحًا فيها بضعفي...

إن ما أدركه، كلما رأيت حياتي بمأمن مما وقع مـن الحـوادث، هـو أن هنـاك منطقًـا سـديدًا للظـروف يـشرح جميـع نتـائج أعمالنـا حتـى أن نجـاح مقاصـدنا الإجرامية يحمل في طياته ما به يسحقنا يومًا ما. فإني كلما فكـرت في تعليـل ذلـك بشيء من التوسع تذكرت كيف أن أقوى دليل لم أكُ أستطيع التقهقر بعده، وكلـما فكرت في ذلك أصابتني حمى مفزعة فأشعر كأن أشد ريـاح القـدر تلفـح جبينـي. نعم، إن ذلك ليفزعني لأني، أنا الآخر ملطخ اليـد بـدم الجريمـة! لكنـه، في الوقـت نفسه، يطمئنني لأني لم أكن فيما فعلـت إلا كعامـل يـؤدي عمـلًا لا مفـر منـه، أو كأسير يدرك المسئولية ولكنه في أسر مولًى لا يقاوم...

ما أتعسك أيتها الأم لوعرفت! فإنك كنت أيضًا أداة القضاء القاتلة، ولكن أداة عمياء كسكين تقبل غير مدركة أنها تقتل! أما أنا فقد رأيـت، فعرفت، ففعلت... لقد احتفظت بقوة الميثاق الذي قطعته على نفسي، أن أعـترف تفـصيلًا بتـاريخي، عـلى حقيقتـه دون أن أحكـم عـلى

نفسي... وهأنذا يعروني التردد حين تقترب ذكرى الفاجعة الأولى والأخيرة في حياتي... يالجبانتي! يالجبانتي! فالوهم يعود فيتولاني فيصيبني ذلك الذهول الذي ينتابني كلما ذكرت أني أتيت ما أتيت وأنه أصبح ثابتًا في تاريخي... لكني عاهدت نفسي ولا مفرَّ من الوفاء... حقًّا، لقد اقترفت الإثم بيدي هذه التي تحمل الآن هذا القلم. نعم، إن يدي الملوثة بالدم، بوصمة لا تمحى، هنا، على هذه الأصابع التي تتقلص ولكن عليها أن تطيعني فتسطر التاريخ حتى النهاية.

(14)

انقضت ستة أشهر على وفاة عمتي، على ذلك اليوم الذي دخلت فيه مكتبي وجنون الشكوك يحيط بي من قراءتي خطابات أبي، لأقوم بدور الطبيب الذي يفحص العلة ويبحث بإصبعه موضع القرحة. فإذا لم أكن، حتى اللحظة التي رأيت فيها زوج أمي مسحوقًا في عربته، قد حصلت على دليل حاسم فهل كنت لأتنكب الجهاد في جو أسود كدت أختنق فيه؟ لم أكُ أتوقع حلًّا للمعضلة التي وضعت أمامي وفيها تعذيبي، عندما جرت بيني وبين والدتي محادثة هائلة ساحقة ما يزال قلبي يكاد يتقطع لذكراها... كنت أذكر تواريخ خالدة. فإذا كان يوم 25 مايو عام 1879 ينمحي من ذاكرتها فإن "أندريه كورنيليس" الذي يكتب هذه السطور بشديد الاضطراب، سيفنى هو نفسه من أعماق قلبها... فإن زوج أمي وكان على وشك السفر إلى "فيشي" قد أصابته نوبة من مرض الكبد جديدة هي الأولى بعد نوبة شهر يناير التي أصابته غداة محادثتنا الهائلة وكنت موقنًا ألا دخل لي في هذه النوبة الجديدة حتى ولا بصفة غير مباشرة لأن النضال الذي كنا متورطين فيه صامتين، دون شهود، لم يظهره أقل عرض جديد. ولذلك كنت أعزو هذا الارتباك لاستفحال مرضه المزمن.

وإني لأذكر ما كان يخامرني في ذلك اليوم، يوم 25 مايو، في الساعة الخامسة مساءً بينما كنت صاعدًا سلم منزله. كنت أتمنى أن تكون صحته متحسنة، أولًا لأني كنت أرى والدتي، منذ أسبوع، كئيبة وثانيًا لأن سفره إلى "فيشي" كان يفصلنا فأتخلص من اضطراباتي وآلامي التي حرمتني لذة الكرى فلم أكُ أنام إلا بمخدر فإذا نمت فنومًا مشوبًا بهواجس بشعة في صحبة دائمة مع أبي، عالمًا أنه ميت. كما كان ينتابني كابوس كنت أخشى، في الليل، ترديده المتواتر، كننت أرى نفسي في شارع آهل بالناس، واقفًا، ذاهلًا، فأسمع خطوات رجل يقترب مني، هو "ترموند" فلا أتميزه مع وثوقي أنه هو، فأريد الانصراف فأجد رجلي من رصاص فأريد التحول فأشعر بعنقي متصلبًا... فيقترب مني فيصبح عدوي ورائي فأسمع تنفسه فأتخيل أنه سيضربني فيلمس بذراعه كتفي فإخال يده مسلحة "بمسلة" طويلة تبحث عن قلبي فتدخلها فيه ببطء ثم أفيق من ذهولي فريسة أسًى لا يوصف. وطالما تولاني هذا الكابوس، منذ أسابيع، حتى كنت أنتظر بنافد الصبر يوم سفر زوج أمي، وقد أُجل ريثما يتملك صحته، لوثوقي أن هذا السفر يهدئني ولو فترة أتنفس فيها دون أوبخ نفسي على ضعفي. فإني لم أكن آنس في نفسي القوة على النزوح إذ كنت دائم الانجذاب إلى رؤيته، كنت أمقتها، بينما أسعى إليها بشغف قاهر.

هذه هي الأفكار التي كانت تخالجني وأنا مرتقٍ السلم الموصل لحجرة والدتي. فلما أجابني الخادم ردًّا على سؤالي، بأن حالة زوج

أمي متحسنة دخلت متشجعًا تلك الحجرة التي هي موطن أشد ذكرياتي حزنًا. كم كنت أبعد من أن أتنبأ أن هذه الزيارة سيكون لها أخطر شأن في حياتي! ألفيت والدتي جالسة إلى مكتب صغير مسندة جبينها إلى يدها اليسرى وبيمناها قلمها الذهبي المرصع بلؤلؤة وكانت مستغرقة الفكر ذاهلة حتى أنها لم تشعر بدخولي، فما هي، يا ترى، تلك الشواغل التي لا بد أنها كانت من شدة الوطأة بحيث أذهلتها؟ لمَ هذه الكآبة البالغة وقد فطرت على البشاشة والعذوبة؟ ماذا بها؟ وإذا كانت صحة زوجها متحسنة فلماذا تولاها الغم؟ أهي شاعرة بالرواية الفاجعة التي تُمثَّل بقربها، بمنزلها، منذ شهور؟ أو اضطر السيد "ترموند" للشكوى لديها من كثرة ترددي الذي يعذبه؟ لكن، ليس هذا. لأنه إذا كان قد أدرك ما بنفسي، منذ أول يوم، كما كنت أظن غير واثق، فلا يستطيع أن يقول لها: "يشك أندريه أني قاتل أبيه..."، أو يكون الطبيب قد أنبأها أن وراء ظاهرة التحسن في زوجها خطر الموت؟ وعند هذه الخاطرة شعرت بفرح تلاه في الحال ألم، فرحت أنه قد يبيد من عالم الحياة. وألمت لأنه، وهو مجرم، يموت قبل أن أثأر لأبي. لأني بترددي وشكوكي، سمحت لشغف الانتقام الوحشي بالتعاظم في نفسي حتى لم يعد رضيني إلا أن أكون، أنا نفسي، سبب موت هذا الكائن الممقوت.

إذن كنت ظمآن لهذا الانتقام ظمأ كلب ركض يوم صيف كاملًا تحت الشمس المحرقة! كنت شغوفًا بالتمرغ في ذلك الانتقام كما يتمرغ ذلك الكلب في الماء حتى ولو لم يصادف غير مستنقع...

مكثت طويلًا أتفـرس في محيـا والـدتي وإذا بهـا تنهـدت فجـأة تنهـدًا عميقًـا صارخة: "يا لله، ما أشده بؤسًا..." ثم رفعت وجهها وقـد غمرتـه الـدموع فرأتنـي فصرخت صرخة دهش ضعيفة فاقتربت منها فسألتها:

أمتألمة يا والدتي؟ ماذا بك؟

لكن خوفي من إجابتها جعل صوتي مضطربًا فجثوت أمامها كـما كنـت أفعـل في طفولتي ثم أمسكت يديها فغمرتها بقبلاتي. ولكن يا لشدة أسفي! فقد صـادف فمي في هذه اللحظة أيضًا ذلـك الخـاتم، دليـل زواجهـا، وكنـت أمقتـه كأنمـا هـو إنسان. على أن هذا الشعور المريع لم يمنعني أن أقول لها بطفولة:

ـ إذا كان بك آلام، فلمن تفضين بها إن لم يكن إليَّ؟ أنَّى لك أن تجدي من هو أكثر مني حبًّا إليك؟ كوني صديقتي. ألا تشعرين أنك مدينة بذلك لفلذة كبدك؟

فخفضت رأسها مـرتين وأشـارت بمـا يفيـد عجزهـا عـن الكـلام ثـم انفجـرت منتحبة. فسالتها:

ـ هل من دخل فيما يحزنك؟ فهزت رأسها سلبًا ثم سكتت مـن جديـد. ثـم، بعد جهد، قالت لي مداعبة شعري بصوت متأثر:

ـ إنك لرقيق يا ولدي "أندريه"...

مـا ألـذها كلـمات نعمـت بـسماعها، بعـد أن حرمتهـا، وطالمـا تمنيتها، كلمات مصدرها القلب، كانت بلسمًا لجروحي وبرهانًـا عـلى

أنها ما زالت تحبني... ثم عدت فألحفت في سؤالها مستعملًا، لأحوز رضاءها، كلمات عانيت مرارتها:

ــ هل حال مريضك العزيز تزداد سوءًا؟

فأجابتني مشيرة بأصبعها إلى غرفة زوجها:

ــ لا، بل هو في تحسن وها هو نائم الآن. فقلت لها:

ــ أمي العزيزة، أصرحيني، ثقي بي، فلأشاطرك بكاءك ولأساعدك في بلواك... يشق عليَّ ألا أعلم أنك آلمه إلا مفاجأة!

هكذا واصلت الضغط بأسئلتي. ولكن ماذا كنت أرجو أن أنتزع من هذا الفم الذي كان يضطرب ولا ينطق؟ لكني كنت شغوفًا بأن أعلم مهما كان الثمن لأني لم أكن أستطيع احتمال غوامض جديدة وعلى الأخص مع ثقتي بأن لزوج أمي دخلًا في حزنها وأننا _أنا وهو_ قد نكون سبب بلبلة قلب هذه السيدة. وبما أني لست سبب كآبتها كما قالت فإليه هو إذن قد يرجع السبب الذي لم يكن صحته. فهل فاجأت هي الأخرى شيئًا من الأدلة؟ وهل خامرها الشك المريع؟ وما كدت أفترض هذا حتى عرتني الحمى فازددت إلحافًا عليها فآنست من ميلها برأسها نحوي واضطراب يدها على شعري وسرعة أنفاسها أنها قبلت، فقد أجابتني:

ــ أأثق أن هذا السر سيبقى دفينًا في قلبينا حتى الممات؟

فأبديت حركة عتاب فخجلت وقبلتني في جبيني طويلًا كأنما أرادت أن تمحو ما عراه من غيوم تريبها الظالم، وقالت:

ـ عفوًا فقد أخطأت... ولمن أفضي بنجواي إن لم يكن إليك؟ وممن سواك أستمد النصيحة؟ آه! لو كان يتقدم إليه؟

فسألتها:

ـ من؟ من تعنين؟ فقالت لي بعظمة تقريبًا:

ـ أي "أندريه"... أتقسم لي أنك لن تبيح ولا تلميحًا بما سأسرك به؟ فقلت لها بعد أن كررت حركة العتاب:

ـ إني أقسم لك بالشرف. فقالت:

ـ وأنك لن تذكر قط شيئًا من هذا إلى...

ولم تنطق بالاسم ولكنها أشارت إلى حجرة زوجها. فأجبتها: "أبدًا، أبدًا"! فقالت:

ـ أتعلم شيئًا عن أخيه "إدوارد ترموند"؟ وكان صوتها منخفضًا كأنما تخشى كلماتها فأدركت من تحول عينيها نحو باب حجرة زوجها المغلق أن الموضوع يتعلق بشقيقه. وكنت أعرف تاريخه معرفة مبهمة إذ سبق أن فكرت فيه عندما كنت أدرس عقلية عائلة زوج أمي، كنت أعلم أن "إدوارد ترموند" بدد في بضع سنين حصته في الميراث وهي هائلة تقدر بمليون ومئتي ألف فرنك. وأنه قيد نفسه

في العسكرية فاستمر على حياة الفحش وأنه قد حرم المساعدة المالية من آله وعلى أثر خسارة في اللعب اقترف جريمتي السرقة والتزوير ثم لما أن رأى نفسه على أبواب الفضيحة هرب من الجندية ثم عاقب نفسه إذ انتحر غرقًا في نهر "السين" بعد أن استغفر أخاه بكتاب تثبت كلماته أن هذا الشرير كانت ما تزال فيه بقية من الأدب، فسدد زوج أمي المال المختلس وأسدل الستار على هذه الفضيحة. نعم، كنت قد عرفت هذا التاريخ من خادمي العجوز في طفولتي ووجدت أثره في مراسلات أبي. لذلك لما أن وجهت إليّ والدتي سؤالها وهي متأثرة توقعت أنها ستكلمني عن الآلام العائلية التي يعانيها زوجها وهي لا تهمني. فسألتها يائسًا:

ـ "إدوارد ترموند"؟ الذي انتحر؟ فأجابت بصوت أكثر انخفاضًا:

ـ لم ينتحر، بل ما يزال حيًّا! فكررت بغير قصد قولها: "بل ما يزال حيًّا! كررت هذه الكلمات دون أن أدرك أية علاقة بين وجود هذا الأخ والدموع التي انهمرت من عينيها، فاستتبعت بصوت أكثر ثباتً وكأنما قد سري عنها:

ـ ها أنت قد علمت بسر ألمي، فإن هذا الأخ اللعين هو جلاد "جاك". هو الذي يقتله يومًا فيومًا بما ينفذ فيه من رعب مريع... أما ذلك الانتحار فليس حقيقة، فأمثال هذا الشقي لم يؤتوا من الشجاعة ما يسمح لهم بالإقدام على الانتحار... وأما ذلك الخطاب فقد أملاه عليه "جاك"، إذ

ذاك لينجيه من الليمان بعد أن مهد له سبل الهرب وزوده بما يصلح به حياته لـو أراد... مسكين هذا الصديق الذي كان يتمنى عـلى الأخـص أن يحفـظ اسـمه نقيًّـا من هذه الوصمة الشنيعة! فقد وجب أن يترك "إدوارد" اسم ترموند ليأمن عيـون الأرصاد ولذلك نزح إلى أمريكا... لكنه سلك هناك نفس سـلوكه هنـا إذ بـدد هـذا الشقي في الحال المال الذي حمله والتجأ لأخيه من جديـد لعلمـه أن "جـاك" لـن يدخر تضحية في سـبيل شرف اسـمه، فـرفض زوجـي موافاتـه بالمـال الـذي طلبـه فاستعان بسلاح التهديد، نعـم، هـدد "إدوارد" أخـاه بأنـه واقـع بـين أمـرين: إمـا العودة إلى "باريس" ودخول الليمان، وإمـا المـوت جوعًـا في أمريكـا... وأنـه ليـؤثر الليمان. فاستسلم "جاك" لمساعدته أول مـرة... لأنـه كـان يحبـه بـالرغم مـن كـل شيء، فهو شقيقه الوحيـد. وأولئـك الأشـخاص كـما تعلـم، يـضيعون مـن يـضعف أمامهم... على أنه، في تهديده بالعودة، قد أفلح إذ ابتز من أخيه، اغتـصابًا، مبـالغ لا تتصور... وقد مضت سنون طويلة عـلى هـذا الابتـزاز الممقـوت. لكنـي لم أكـن أعلم بهذا إلا بعد الحرب، إذ كنت أرى زوجي شديد الكآبة فأشـعر أن ألمـًا يأكلـه وأخيرًا باح لي بكل شيء وبأن ما هو فيه من آلام منشؤه خوفه عليَّ أنا... فـسألته: "وماذا تخشى منه عليَّ"؟ فأجابني: "ما أشنعه! إنه ليبذل كل ما في وسعه لينتقم"، ثم إن زوجي وكان يـراني شـديدة الوجـل لقلقـه، خـضع لتوسـلاتي المـستمرة إليـه بالمقاومة فأبى على أخيه كل مساعدة جديدة ومكثنا زمنً لا نسمع شيئًا عن هـذا الشقي... لكنه نفذ وعيده وها هو الآن في "باريس"...

كنت أصغي إلى والدتي باهتمام يتزايد. وأني لم أكن أرى في السيد "ترموند" ما تراه هي فيه من دقة الإحساس، أدهشني ما لأخيه الملوث عليه من السلطان. وكم من عائلة منيت بمثل هذه الآفة، فهل يضطرب حبل الهناء في تلك العائلات وتبلغ بها الحال لبذل الثمين حتى الصحة في سبيل التخلص من تلك الآفات؟ كذلك أدهشني أن السيد "ترموند" وهو ذلك الطاغية يخنع لتهديد هذا الملوث ويخرج الفضيحة التي يحدثها عقابه عما تستحقه من التقدير. ولماذا لا ينال هذا الوغد جزاء ما جنى من تزوير واختلاس؟ فهل أستطيع أن أفسر هذا الضعف في السيد "ترموند" بأنه شبيه بالخوف من خيانة العهود التي تعطى للآل وهم على سرير موتهم بصيانة شرف اسم العائلة؟ لكن هناك فكرة ثارت في نفسي لم يكن من المعقول إنفاذها وعلى الأخص مع وساوسي وحالتي النفسي، فكرة قاسية أخذت تتعاظم حتى اشتد خطرها فتولاني من فعلها شديد الذعر حتى أن والدتي اضطرت حيال ما رأتني فيه من اضطراب خارق إلى الوقوف عن الاسترسال في حديثها إذ سألتني: "أتعب أنت يا أندريه"؟ فتملكت عواطفي وأجبتها: "لا يا والدتي. هذا تأثر بسيط لأني رأيتك تبكين سيزول..." فصدقتني وقبلتني بحنو ثم استتبعت حديثها قائلة: "وفي الأسبوع الماضي طلب زائر غريب مقابلة زوجي بحجة أنه موفد من قبل أصدقاء لنا بلندن فأدخل في هذا البهو نفسه أمامي. وما كاد "جاك" يلمحه حتى ظننت من اضطرابه الخارق أن هذا الزائر هو

شـقيقه "إدوارد". ثـم أن الـشقيقين اختليـا ببعـضهما في المكتـب وبقيـت وحـدي كالميتة من شدة القلق، أسمع عجيج أصواتهما دون أن أتبين حـديثهما ثـم خرجـا بطريق البهو فألقى عليَّ شقيقه حين مروره نظرة جمد منها الدم في عروقـي. ومـا كاد يأتي مساء ذلك اليـوم حتـى كـان زوجـي طـريح الفـراش... أتفهـم الآن مبلـغ يأسي؟ آه! ليس اسمنا هو الذي يهمني... فقد طالما حاولت عبثًا إقناع زوجـي بـأن تلويث الاسم لا يضرنا إنما صحته هي التي تهمنـا، وقـد قـرر الأطبـاء أن كـل تـأثر شديد ينتابه يفعل فيه فعل كأس من السم... آه! إنه سيقتل زوجي...".

فسألتها وأنا في الحقيقة لا أدرك ما أقول: "أرأيته"؟

ـ ألم أقل لك أنه مرَّ من أمامي. فسألتها:

ـ وهل أنت واثقة أنه أخوه؟ فأجابت:

ـ اعترف لي "جاك" بذلك في المساء ولم أكن في حاجة لاعترافه فقد عرفته مـن عينيه... من الغريب أن هذين الشقيقين مختلفان عظـيم الاخـتلاف، فـإن "جـاك" رقيق محترم شريف النفس... أمـا ذلـك الغلـيظ، الثقيـل الوغـد، فلـيس إلا شريـرًا ممقوتًا! لكن عيونهما متشابهة...

ـ وما هو الاسم الذي اختاره لنفسه في باريس؟

ـ لا أدري ولا أجرؤ أن أسأل زوجي عن ذلـك. فلـو علـم بمـا أفـضيت إليك، مع ما هو عليه من الأفكار... ولكنـك سـتعرفه يومـا مـا يـا ولـدي...

ثم أضافت بثبات: كنت منذ مدة طويلة أريد الإفضاء إليك بهذا السر لكني لم أجرؤ... وبما أنك أصبحت رجلًا وليس لديك ما يخضعك للإغراق في عاطفة الأخوة. فانصحني، أي "أندريه"، ماذا يجب أن أفعل؟ فأجبتها:

ــ لم أدرك ما ترمين إليه. فقالت:

ــ نعم، لا بد من وسيلة في إبلاغ العدالة لتزجه في أعماق السجون دون ذكر ذلك بالصحف. أما "جاك" فيرفض لأنه أخوه... لكن، ألا نستطيع ذلك نحن؟ سمعتك تقول إنك ما زلت تقابل الأستاذ ماسول الذي عرفناه في نكبتنا. فلو سعيت إليه مستجية نصيحة؟ آه أريد أن يعيش زوجي لأني أحبه كثيرًا!

لماذا فزعت لمجرد توقعي بأنها قد تقابل ذلك القاضي مع أني لم أستطع العودة إليه منذ وفاة عمتي خشية أن يتنبأ بشكوكي؟ وكيف أستطيع التوسل إليه بحق حب والدتي لزوجها؟ لكني أجبتها:

لا تفعلي ما ليس من حقك، فلن يعفو السيد "ترموند" وقد يكون محقًّا... وقد يكون في ذلك إفشاء لسره. فأجابت:

ــ إفشاء لسره؟ إن فيه نجاته! فقلت لها:

ــ وإذا أصابته من القبض على أخيه نوبة أخرى؟ أو خطر مرضه؟ وهكذا ابتدعت الحجة الوحيدة التي قد تقنعها. ما أغرب سخرية

القدر منا! هدأتها وأقنعتها ألا تفعل، في حين أني قد خامرتني فجأة فكـرة فظيعـة هائلة هي "أن القاتل، أداة الجريمة المطواع بين يدي زوج أمي، هـو هـذا الـسافل وأن "إدوارد ترموند" و"ورشدال" ليسا إلا شخصًا واحـدًا" يـا لـه مـن تخيـل هائـل مفزع!

(15)

ما أفظع ما عانيت من الاضطراب طول الليلة التي تلت هذه المحادثة لتلك الفكرة التي ثارت في نفسي وكانت تأكل قلبي مع ما مرَّ بي من ليالٍ قضيتها ساهرًا بينما ينعم سواي بلذة النوم! فلقد كنت كالسجين الحائر يتعلق "بقضبان" نافذة سجنه فتميد بين يديه فيظن نفسه ناجيًا لكنه لا يلبث أن يهبط مدحورًا. رزحت طويلًا تحت إصر هواجسي عاجزًا عن مقاومتها، لذلك كنت آخر نفسي، عبثًا، بالهدوء وأنا في حجرتي حائر لم أذق طعامًا. ثم انقضى الليل والليل التالي وبدأ الفجر. وسطع النهار وأنا غارق في عجاج الافتراضات الجديدة التي أثارها في نفسي حادث فجائي بسيط وكانت وساوسي تعقد في نظري أبسط الأمور... لقد جربت وقع هذه العواصف النفسية فأصبحت أرى أن النجاة منها تنحصر في التمسك بالأدلة الحقيقية التي تشبه في ثباتها الصخور الراسخة لذلك أرجعت، في الحالة الراهنة، هذه الأدلة الواقعية إلى دليلين حصلت عليهما الآن: أولهما أنه ما يزال يوجد للسيد "ترموند" شقيق كان المقول إنه مات، وثانيهما أن هذا الشقيق ملوث، منفي، هارب من الجندية، معدم، وأنه له على أخيه، وهو شريف، غني، لا غبار عليه، سلطانًا يفزعه به. فأما الدليل

الأول فواضح، لأن من الطبعـي ألا يكـذب "جـاك ترمونـد" خرافـة الانتحـار التـي اختلقها هو وبها أنجى أخاه من الليمان، فـلا يـرضى أحـد أن يعـترف بـأن أقـرب الناس إليه لص مزور هارب... وأما الدليل الثاني فالتباين القوي بـين ذلـك الـسبب الذي اعترف به زوج أمـي وقـد تحملـه والفـزع الهائـل المستولي عليـه. فـسطوة "إدوارد ترموند" على أخيه لا يبررها قد تهديده إياه بعـودة لا يـنجم عنهـا سـوى فضيحة شائعة لا تلبث أن تخمـد. لوالـدتي أن تـصدق هـذا الـسبب لثقتهـا بنبـل زوجهـا. أمـا أنـا، فـلا... لـذلك رجعـت لقـانون الجنديـة فوجـدت بالبنـد 184 أن "جنحة" الهرب من الجندية لا تسقط إلا إذا بلغ الهارب سـن الـسابعة والأربعـين. ومعقول أن "إدوارد ترموند" ما يزال تحت حكم القانون. لكن هل الرغبة في نجاة هذا الأخ الملوث من عقاب تأديبي تبرر مـا هـو فيـه زوج أمـي مـن خنـوع طـال عهده وعلى الأخص في ظروف اضطرابات صحته القاسية؟ لذلك كنت ألمح لتسلط أخيه عليه مبررًا آخر، ألمح اشتراكًا جنائيًّا مفزعًا هائلًا بين الرجلين، قد يكون "جاك ترموند" استعمل أخاه أداة في قتل أبي. فلو صح هذا وكـان بيـد القاتـل مـا يثبتـه لتحتم وقوفه مغلول اليدين أمام القضاء. أما كان يجب أن يوقظ أمي فزع زوجها فزعًا هدم كبرياءه الوحشي بسبب ذلك التهديد؟

عـلى أني كنـت أعـود فـأُكره نفـسي عـلى الهـدوء بـاذلًا جهـدي في تمحيص ما لديَّ من أدلة الجريمة الطبيعيـة والعقليـة لأرى مـا إذا كـان هناك ما يمنـع أن يكـون "روشـدال" و"إدوارد ترمونـد" شخـصًا واحـدًا،

اتفق الشهود على أن "روشدال" ضخم الجسم قوي، ووصفته لي والدتي بأنه غليظ ثقيل. وقد مضى خمسة عشر عامًا بين مقترف جريمة عام 1864 وعاطل عام 1879 الذي قد كبر طبعًا، لكن ليس ما يمنع أن يكون هو نفسه. ثم إن والدتي أكثرت من الكلام عن لون حدقتي "إدوارد ترموند" مكررة أنه أزرق باهت كلون حدقتي أخيه، وبواب النزل الملكي ذكر، إذ ذاك، زرقة حدقتي المزعوم روشدال زرقة رائعة وأن الذي دعاه إلى ملاحظة ذلك هو التباين العظيم بين زرقة عينيه وسواد وجهه. كذلك التجأ "إدوارد ترموند" إلى أمريكا، فماذا قال الأستاذ ماسول؟ كأني ما زلت أسمعه يكرر أن القاتل أجنبي، أمريكي أو إنجليزي، وربما كان فرنسيًّا أقام في أمريكا... إذن ليس ما يمنع، من الوجهة الطبيعية، أن يكون "روشدال" و"إدوارد ترموند" شخصًا واحدًا. فهل هناك مانع من الوجهة العقلية؟ كلا، لكني، زيادة في الاقتناع، رجعت لتاريخ الجريمة في نفس اللحظة التي بدأت فيها مراسلات أبي جلية عن "جاك ترموند"، أعني في يناير 1864. وليكون حكمي خاليًا من تأثير الحقد، محوت الأسماء من فكري مفترضًا حادثة خفية مريعة، هام رجل شرٍّ في فطرته خميرة الإجرام، وحدة بالغة في أهوائه لا يأبه بالواجبات بل يسحق كل ما يعترض أمياله، هام ذلك الرجل بامرأة صديق حمبم عالمًا أنها شريفة وأنها لو كانت طليقة من قيود الزوجية قد تحبه ولكنها ما دامت متزوجة فلن ينالها، فيلمح من صديقه الغيرة والكراهة وأنه بعد قليل سيغلق بابه في وجهه

فتخامره فكرة التخلص من هذا الصديق ليحقق حلمه، تخامره هذه الفكرة مـرارًا ضد هذا الصديق وقد أصبح موضع مقته حتى يعتادها فتسول له نفسه تحقيقها فيفكر في كيفية إنقاذها... أو ليس له شقيق ساقط ليس مجهولًا موطنه فحـسب، بل ووجوده أيضًا؟ ما أعظمه أداة قتل هذا الشقيق الملوث، المعدم، المنحط الـذي يعبد أخاه لشدة احتياجه لما يمـده بـه مـن المـال! ثـم لا يلبـث هـذا العاشـق أن يتوطد عزمه على إنفاذ فكرته الشريرة فيستقدم أخـاه إلى بـاريس. ولكـن كيـف؟ بخطاب أو خطابين يلمع فيهما بريـق المـال بيـنما تتخلـل سـطورهما شروط نيلـه الخفية الحاسمة فيقبل الآخر فيستقل الباخرة إلى أوروبا بعد أن يحتـاط إذ يـذيع حول سفره كثيرًا من الأكاذيب. وهل ألـين عريكـة وأطـوع مـن هـذا الأخ المنبـوذ المجهول الثاوي في الفاقة، والذي يعـيش، مـن زمـن طويـل، ضـالًّا لا وطـن لـه ولا آل؟ ثم يتقابـل الـشقيقان... وإلى هنـا، لا شيء يخـالف المعقـول أو يتعـارض مـع المراحل الطبيعية لقصد جنـائي كهـذا... أوصـلني هـذا الفـرض إلى وسـيلة الإنفـاذ مـستمرًّا في التكييـف، غـير متحيـز، يـساوم الأخ الغنـي أخـاه المعـدم عـلى إراقـة الدم مقدمًا له المال بسخاء، مئة ألف، مئتي ألف، ثـلاث مئـة ألـف فرنـك! فـماذا يحول دون ذلك الساقط الجائع والقبـول؟ الواجبـات؟ ومـا قيمـة الواجبـات عنـد رجل عاش خالع العذار في حمأة الـسرقة؟ إني لأعـرف مـما كنـت أقـرأ مـن أخبـار الجـرائم بالجرائـد ومحـاضر التحقيـق _مـدفوعًا بـشغفي بالانتقـام_ أن الرجـل

يصبح قاتلًا إذا اعتاد الفسق واشتدت حاجته للـمال. وإذن فهـذا الـشقيق وهـذا أمره، لا يتعفف عن الإجرام. كم من طعنات خناجر مدًى وطلقـات ناريـة ونقـط من السموم تسكب في الكـؤوس يقترفهـا أولئـك الأشرار في أحـرج مواقـف الخطـر وهم بعد غير موقنين بالكسب لا لشيء إلا ليبعثروا ما يجنون من المـال بـإجرامهم في بؤر الفساد... أو أن هذا الرجل كان يخاف المقصلة؟ لو كانت في قلـوب أولئـك الأشرار الفاسقين رهبة لما أقـدم واحـد مـنهم عـلى القتـل وقـد عاشـوا في الفـسق طويلًا، لا يعرفون للخوف معنى ولا يحسبون للعواقـب حـسابًا، غـير خاضـعين إلا لأهوائهم وما درجوا عليه حتى أصبحت قوى الشر فيهم طاغية تجتاح ما سـواها. وهل أوقفتهم عن جرائمهم تلك الفواجع من أم تموت وأطفال يقعـون بـين بـراثن الجوع ونساء تترمل يائسات؟ وهل يخشون تلك الأشباح المفجعة من المحكمة إلى السجن إلى المقـصلة عنـدما يزهقـون الأرواح، ظـامئين إلى المـال؟ المقـصلة بعيـدة وباب الماخور في زاوية الشارع والشرير يقتل الـسري كـما يـذبح القـصاب بهيمـة، ليدخل الماخور مفعم الجيوب حيث يمنـع عينيـه بمـشاهد الـدعارة ويـروي غلتـه من الخمر، إن ذلك جميعـه لـسبيل الجريمـة الـدائم. آه! لقـد آلمتنـي شـديد الألم هذه الأفكار ولم أطق أن يُهدر دم أبي لمـال يبـذر في حانـات سـان فرنسيـسكو أو نيويورك حتى كدت أفقد قـوة التكييـف ووقعـت في هـذيان أراني مخـدعًا خاصًّـا شبيهًا بتلك المخادع التـي كنـت مـررت بهـا وكلهـا متـشابهة رجـسة في كـل بلـد،

المنضدة معدة وقطيفة الأريكة ملوثة والمرآة محفورة عليها حروف بماس الخـواتم والبيانو مفتوح تُعزف عليه أغنية السفلة والشمبانيا في كؤوسهما والفتـاة تـضحك متهتكة متبذلة وبجانبها الرجل... وكأني أقول لتلك الفتاة: كلا! لا تـأكلي مـن هـذا الطعام ولا تحتسي من هذا النبيذ ولا تتركي نفسك تلوثك يدا هذا الرجـل وارفـضي هذا المال فهذا كله ملطخ بالدم... إن هذا الرجل الـذي يقبلـك، والـذي يـشتهيك، والذي دفع لك الثمن، إنما هو قاتل، قاتل، قاتل! لكني وقـد رأيـت نفـسي، واجـمًا مضطربًا طائر الـصواب فريـسة للتـأثير الـذي يتـولاني لـو رأيـت المـشهد المـشئوم _الذي قد تخيلته مع ذلك في لمح البصر_ لجأت إلى صورة أبي فتأملت فيها طـويلًا وكلمته، كأنما هو سميع، متوسلًا إليه أن يعينني، فآنست في نفـسي، لـيس الهـدوء ولكن القوة على معالجة ذلك الافتراض الوحـشي ومناقـشته بدقـة فرأيـت، بـادئ الأمر، أنه شـبيه بمـا يثـيره الكـابوس في مخيلـة المـريض، فـإن اسـتخدام أخ أخـاه، بإغرائه بالمال، في قتل رجـل ليتـزوج امرأتـه، يـدخل في نطـاق الأمـور التـي يبعـد تصديقها... لكني عدت فوجدت أن ليس في جريمة وقعت ما يبعـد تـصديقه فـإن القاتل، إذا وطـد عزيمتـه عـلى القتـل، لا يأبـه بـالفروض الاجتماعيـة. وعنـد هـذا انبعثت في مخيلتي أمثال عديدة من جرائم اقترفت في ظـروف تـشبه مـا أناقـشه من حيث الاستثناء والغرابة أو على الأقل، احتمال الوقوع. لكن عقبـة اعترضـتني، فإنه إذا كانت هذه الجريمة المعقدة محتملة، فلماذا كنت أول من خالجه الشك؟

ولماذا لم يبحث الأستاذ ماسول، ذلك الذكي الدقيق الماهر، من هذه الجهة، عن تفسير لهذا اللغز الدموي الذي حار في إدراك كنهه؟ لكن هذا يرجع، بكل بساطة، إلى أن هذا المستشار لم تأته هذه الفكرة. وليس يهم أن يخالجه شك من هذه الناحية وإنما يهم معرفة إن كان هذا الدليل صادقًا. ثم ما هي الأدلة التي كانت تستدرج الأستاذ "ماسول" لاقتفاء هذا الأثر؟ لو فحص بدقة داخلية والدي لوثق من عفة والدتي، فقد رأي حزنها الصادق ولم تقع في يده خطابات أبي وهي التي ينبعث منها أنينه لغيرته على زوجه وهيام ذلك الصديق المائن بها. وهل فات "جاك ترموند" أن يتواجد في غير مكان الجريمة من الوجهة الشعورية كما احتاط لذلك من الوجهة الجسمانية إذ أنه كان يتحدث وقت وقوعها إلى والدتي؟ ثم لنفترض أن القاضي بحث من هذه الجهة وأنه منذ الأيام الأولى ظن الخيانة بذلك الرجل فكان يتعين البحث عن الشريك في الجريمة، بما أن وجود السيد "ترموند" بمنزلنا وقت وقوعها أمر محقق. وهب أن بحث الأستاذ "ماسول" أوصله إلى التفكير في ذلك الشقيق المختفي فكيف كان يتاح له اقتفاء آثاره؟ وإذا كان "إدوارد" و"جاك" شريكين، فلم لا يكون أول همهما _طبعًا_ ابتداع مراسلة تعضل مراقبة البوليس؟ الم ينقطعا زمنًا عن كل مراسلة بعد ذلك؟ وماذا كان يضطرهما للاتصال بطريق المراسلة و"إدوارد" لاهٍ في تبذير ثمن جنايته و"جاك" منشغل في التحيل لامتلاك قلب أمي؟ ليكن هذا أيضًا ولكن إذا كان الأستاذ "ماسول"

ينقصه المستند الأساسي لجهله غرام "جاك ترموند" بامرأة القتيل؟ على أن عمتي نفسها كانت عليمة بهذا الغرام إذ كان بيدها الحجة الدامغة على تريب أبي. فلماذا لم تفكر هي فيما أفكر فيه أنا الآن؟ لكن ماذا يثبت لي أنها لم تكن فكرت فيه وقد افترستها الشكوك هي أيضًا، فعاشت وماتت في ميدانها؟ لا بد أنها راعت والدتي وإن لم تأنس من نفسها جرأة على الصفح عنها بسبب ما انتاب من الآلام شقيقًا تعبده ولأنها لو اتخذت وسائل ضد والدتي لكان عملها ضدي، لذلك حرَّمت على نفسها أي عمل. وهب أنها جرؤت عليه، فكيف كانت تستطيع البت وهي أمام استنتاجات غامضة مع علمها بمكان زوج أمي حين اقتراف الجريمة وجهلها مكان "إدوارد ترموند"؟ أما أن أكون أول من علل قتل أبي بما أعلله فلأني، دون سواي، حصلت على أدلة جديدة عن الجريمة وكون الافتراضات التي بنيتها عليها ليست حمقاء. وهناك اعتراضات أخرى، إذا كان زوج أمي قد انتفع بأخيه أداة في القتل، فكيف باح لزوجه بوجوده؟ لكن جواب هذا السؤال ظاهر، فإنه بفرض وقوع الاشتراك، يتحتم الحصول على الدليل وهو الخطابان أو الثلاثة التي كتبها "جاك" لأخيه يستدعيه بها لأوروبا ويرسم له الخطة، ولا بد أن "إدوارد" قد احتفظ بها كسلاح يسيطر به على أخيه وليهدده بتسليمها لوالدتي. فإبلاغ والدتي بوجود "إدوارد" وهو ما فعله زوجها إنما كان اتقاءً لهذا التهديد، حتى إذا أصر القاتل على تسليم هذا الدليل القاطع المشترك لأرملة القتيل التي

أصبحت زوج المحرض على القتل، فقد يستطيع، على الأقل، إنكار هذه الخطابات مدعيًّا بأنها مزورة بقصد الانتقام منه. مبرهنًا على براءته بأنه لم يخفِ عنها وجود أخيه. ثم، بفرض أن الجريمة اقترفت بالوسيلة التي تصورتها. فلمَ لا تكون وخزات الضمير قد سببت انفجاره بهذا السر لزوجه بعد أن أدرك أنه لم يفتها، وهي العطوف القلقة، ما هو فيه من عذاب. وهي تحبه وتعرف أنها موضع حبه؟ فكم من غيوم غشيت جبينه لم يكن يبددها وجودها بجانبه وكم قرأت من أحزان في عينيه لم تكف شفقتها لتحويلها إلى هناء! ومن يدري إذا كان قد عرف فعل الغيرة، وهي أفظع الآلام، وخشي سلطانها على زوجه بسبب إخفائه عوامل اضطراباته وكآبته الشديدة فاضطر لمكاشفتها بشيء من الحقيقة تهدئة لروعها واجتنابًا لما قد يصيبها مما يؤنبه عليه ضميره؟

لا تباين إذن بين القليل الذي كشفه لوالدتي من سره وبين ما افترضته من اشتراك الشقيقين... وقد كنت أدرك أيضًا أنه، فيما باح به، لم يستطع التأكيد عليها بإخفاء الأمر عليَّ إخفاءً، لولا فرصة تأثر والدتي وإلحافي بل ولولا حضور "إدوارد ترموند" المفاجئ الذي أضاع رشاد المسكينة، لجهلت ذلك إلى الأبد... ولكن كيف نعلل حماقة السيد "ترموند" في رفضه المال على أخ في حضيض الفاقة جدير بإتيان كل سيئة؟ قد وصلت في هذا أيضًا إلى افتراض السبب، فلقد كان زوج أمي يرى نفسه بمأمن من جهتي كما أنه بمأمن

من العدالة لسقوط العقوبة، لكنه كان مريضًا، فهلّا يكون طبيعيًّا أن يسترد، بـأي ثمن، تلك الأوراق التي قد تستعمل بعد موته، وهي بين تينك اليـدين الـشريرتين، سلاحًا للمساومة ضد أرملته وثلم ذكراه في قلب التي دفعـه حبـه لهـا إلى اقـتراف الجريمة؟ لذلك توقع أن أخاه لـن ينفـذ وعيـده دون أن يلجـأ لمحاولـة أخـيرة، أن يحضر إلى باريس فيتقابل الشقيقان بعد فراق سنين طويلـة. فيطلـب منـه أخـوه مالًا فيعطيه إياه للمرة الأخيرة وفي مقابلة يسترد تلـك الأوراق التـي هـي البرهـان الوحيد الذي ينير ظلمات تلك الجريمة الخفية.

لكن فات زوج أمي أن أخاه قد يحضر إلى منزله فيدخل في البهـو أمـام والـدتي وأن الهزة التي تعروه وهي جد شديدة تصيبه وقد أنهكه مرض الكبد، بنوبة بالغـة. "إن في طيات الحوادث من مفاجآت المجهول ما يعاكس مهارة المتبصر اليقظ"، فـإني عندما أذكر أن التفاتي في المكر ومراقبة الإنسان نفسه وغيره مراقة مستمرة أوصـلت إلى هذه النتيجة، كنت أشعر، من جديد، بلفحة القـدر تـصيبنا جميعًـا، مـا لم تكـن هذه الافتراضات رواية متجليـة في رأسي الـذي قـد اسـتولت عليـه الحمـى وشـغف الانتقام الذي يفترسني! ومهـما تكـن هـذه الافتراضـات حقيقـة أو خيـالًا فإنهـا قـد مثلت أمامي ولن أسـتطيع البقـاء عـلى الجهـل أو الـشك. عـلى أن هـذه التحلـيلات المختلفة التي منها ما يدعم تكييفي ومنها ما يفنده، أوحت إليَّ بدليل حاسم، عرفت، خطـأً أو صـوابًا، إمكـان وقـوع تـآمر قـد يكـون فيـه "إدوارد ترمونـد" أداة أخيـه في

الجريمة، فإذا صدق ظني، فقد وجب أن أتعسف في اقتفاء هذا الأثر ولو أودى بي ذلك إلى احتقاري نفسي واعتباري نفسي أجبن الجبناء. وبما أني أسرفت من الوقت بين هذه الهواجس المؤلمة فقد وجب العمل لبلوغ الحقيقة.

انقضت الليلة وأنا فريسة هذه الهواجس حتى اختلطت أشعة مصباحي المحزونة بأشعة الفجر الباهتة ففتحت النافذة فأقسمت علنًا أمام أشعة هذا اليوم الجديد أني سأبدأ فيه القيام بفروضي التي أخذتها على عاتقي وألا أتوانى لحظة حتى أستطيع مناجاة نفسي "بأني أصبحت موقنًا..." ووطنت العزم، في الوقت نفسه، على التغلب على عاطفة المشاعر الحقاء التي عذبتني وعلى تحديد فكري في هذه النظرية وهي: أهناك وسيلة للتحقق مما إذا كان "إدوارد ترموند" هو نفسه المزعوم "روشدال"؟ لم أكن أستطيع أن أرتكن في ذلك إلا على نفسي دون سواي، على ينابيع ذكائي وإرادتي. وإني لمدين لنفسي بفضل عدم الهرب من مهمتي بإلقاء عبئها على العدالة ضنًّا بوالدتي أن ينتابها الألم من جراء ذلك وعلى الأخص بعد أن عاهدت نفسي ألا تصيبها، من يدي، هذه الضربة القاسية، أن تعلم أنها كانت خلال خمسة عشر عامًا زوجًا لقاتل. فإنه لكي تظل جاهلة تلك الفاجعة الجنائية، وجب أن تبقى المعركة محصورة بين زوجها وبيني. لكن، "وإذا وجدت زوجها آثمًا"؟ وعند هذه الفكرة التي لم تعد غامضة ولا مستحيلة وقد تصبح حقيقة لا

تفند، اليوم أو غـدًا أو بعـد بـضع سـاعات، بـدا لي مـشروع هائـل. إلا أني أرجـأت البحث من هذه الوجهة حتى يحين وقتـه وعـدت إلى نظريتـي الحـاضرة أحللهـا، وهي: كيف أتحقق أن "إدوارد ترموند" هو نفسه المزعـوم "روشـدال"؟ إن انتـزاع هذا السر من زوج أمي لمستحيل. فقد حاولت منذ شهر أن أجد مكـان ضـعف في درع تكتمه الذي تكسرت عليه نصالي، فلم أفز بشعاع من الأمل. وإني لـو أتيحـت لي جميع وسائل التعذيب لدى محكمة التفتـيش، لمـا اسـتطعت أن أفـتح شـفتيه فأستلب من هذا الوجه المعذب الغـامض فتـيلًا مـن الاعـتراف. إذن، لـديَّ الآخـر. ولكن لأصاوله فأرديه، يتعين أن أعرف بأي اسم وبأي عنوان اختبـأ في بـاريس. ولم أكن في حاجة لكد ذهني في ابتداع وسيلة محققة في الاهتداء عليه، إذ كان يكفـي أن أتذكر نفس الظروف التي عرفت فيهـا وصـول "إدوارد ترمونـد" لبـاريس. فـإن أخاه سيبذل بالتأكيد قصارى جهده ليقنعه بالنزوح، إمَّا تفاديًا من ذكـرى اشـتراك في جريمة دموية أو خشية فضيحة مألوفة. وإذن فلابد سيقابله إما في بقعة خالية وإما أن يذهب إليه في المحل الذي اختبأ فيه. أما في المنزل فلن يكون ذلك لوجود والدتي والخدم. لذلك عولت على أن أرسـل وراءه مـن يتـأثره. فـإذا قابـل "جـاك" أخاه في مخبئه وصلت إلى غرضي سريعًا. أمـا إذا قابلـه في بقعـة خاليـة فـإني أزود رسولي بأوصاف "إدوارد ترموند" كما تلقفتها مـن فـم والـدتي فيقتفـي أثـره حتـى يعود إلى مستقرة بعد أن ينتهي من مقابلة أخيه.

أعد الجاسوسية سفالة كما أعد هذا الشرك الذي أنصبه لزوج أمي دناءة ولكن ليس للمرء في القتال اختيار سلاحه خصوصًا ولا بد لي من أن أتنكب للوصول إلى الغرض الذي بدأ نبراسه ينير بصيرتي كل ما يسبب الأسى لوالدتي... لكني عدت لنفسي أسائلها: "وما العمل إذا عرفت الاسم المستعار لإدوارد ترموند وعنوانه وليس لي ما للشرطة من سلطة القبض عليه ووضع اليد على أوراقه، تلك السلطة التي تستطيع إطلاق سبيله بمعاذير كثيرة عند انتهاء التفتيش؟ إني لأذكر كم تخيلت من خطط حاذق رفضتها جميعًا. لذلك انتهيت إلى التعلق بالأدلة الثابتة، لو فرض أن هذا الرجل هو قاتل أبي فمن المستحيل ألا يظل مشهد حادث القتل بجميع ظروفه حيًّا في مخيلته إذ لا بد أنه قد تمثل له، أثناء ساعات شؤمه، وجه ذلك القتيل الذي أشبهه كثيرًا. وعند هذا تذكرت المحادثة التي جرت بيني وبين زوج أمي في هذه الحجرة عينها وذكرت ما قلته إليه وهو "أتظن أن هذا الشبه يوقظ في مخيلة القاتل شبح فريسته"؟ فلماذا لا أستغل هذه المشابهة؟ لم يكن عليَّ إلا أن أتقدم إلى "إدوارد ترموند" فجأة فأبادئه بالكلام عن ذلك المزعوم "روشدال" الذي لا بد أن ترن مقاطع اسمه في آذانه رنين الناقوس. نعم، يجب أن أدخل حجرته الحالية كما دخل أبي في حجرة "النزل الملكي" وأن أسأله بالاسم الذي سأله به أبي بينما أريه وجه فريسته نفسها. فإذا لم يكن آثمًا اعتذرت بأني دققت بابه ضلة وإذا كان مجرمًا فسيعتريه خلال بضع لحظات أشد فزع جنوني. فأية عوامل قد تفعل فيه عندما ينمحي

عنه ذلك الفزع؟ عاملان لا ثالث لهما، خوف العقاب وحب المال. إذن يجب أن أذهب إليه مدرعًا بالسلاح والمال الوفير وأن أفرض عليه أحد أمرين، إما أن يبيعني الخطابات التي أتاحت له الاستبداد بأخيه سنين طويلة أو ألهب رأسه. فإذا أبى أن يسلمني الخطابات؟ ولكن أيتردد مثل هذا الشرير؟ قد يقبل المساومة وقد يعطيني الخطابات التي تكره زوج أمي على الاعتراف بالقتل. وإذن؟ إذن سيسافر كما سافر من قبل من "النزل الملكي" مدخنًا لفافته وقد دُفع له ثمن خيانته لأخيه كما سبق أن دُفع له ثمن غدره بأبي! نعم سأتركه ينزح بما أن قتله بيدي سيكرهني على إفشاء جريمة أردت أن تبقه مطوية مهما كان الثمن. "إيه يا أمي، كم كلفني هناؤك فوق ما أحتمل"! ثم انتحبت قليلًا ثم عدت إلى صورة القتيل فخيل إليّ أنه يأمرني ألّا أمس قلب تلك التي طالما أحبها، حتى ولا بدافع الانتقام. فأجبت أبي: "لأطيعنك"، وفي الوقت نفسه تركت إلى الأبد، هذه الناحية من فكرة انتقامي كان هذا عليّ شاقًّا وهينًا في الوقت نفسه ومع كل فهل كنت أضمر الحقد على هذا الشقي؟ حقًّا أنه قتل، ولكن كأداة سافلة في يد غيره. أما ذلك الغير فلن أتركه يفلت، فهو الذي فكر في الجريمة فدبرها فساوم عليها، نعم، لن يفلت ذلك الذي سلبني كل شيء، من حياة أبي إلى عطف والدتي، ذلك الآثم الحقيقي بل الآثم الوحيد. نعم، قد يقع بين براثني وسألذ بتدبير خطة الانتقام منه وتنفيذها دون أن تشعر والدتي بحسيس لهذه المعركة التي سأخرج منها منتصرًا.

كنـت بـذلك موقنًـا وخمـرة شـغفي بالتعـذيب الـذي سـأجرع هـذا الرجـل الممقوت كأسه المريـر كانـت تـسكرني سـلفًا. ولا غـرو فنـار الانتقـام تلتهـب بـين جوانحي إذ فيه تضميد لعذابي الطويل... فقلت في نفسي: "إلى العمل، إلى العمل"! مرتعدًا فرقًا أن يكون "إدوارد" قد نـزح مـزودًا مـن أخيـه بـثمن صـمته، فيخيـب رجائي. وما وافـت الـساعة التاسـعة حتـى بـدأت تجسـسي الممقـوت الـذي كنـت أستنكره، إذ كلفت وكيلي ببيع أسهم قيمتها مئة ألف فرنـك وانقـضى ذلـك اليـوم واليوم التالي وأنا فريسة ملل بـالغ. كـذلك لم أجـرؤ عـلى زيـارة والـدتي خـشية أن تدرك من عينيَّ ما يداعبني من أمل جنوني فتتحدث به إلى زوجها ولو بغير قصد، كما أنارت بصيرتي بجملة، بـل بكلمـة. وقبيـل ظهـر اليـوم الثالـث، علمـت ممـن أرصدتهم عيونًا على زوج أمي، أنه استقل عربة بعد أخرى، متجهًـا نحـو "الجـران أوتيل" ليقابل زائرًا وفد من أمريكا، ونزل بهذا الفندق باسم "ستانبوري" بـالحجرة رقم 353، بالطابق الثاني. فما وافت الساعة الثانية حتى كنت صـاعدًا سـلم النـزل متسلحًا بغدارتي وبالمال الذي أرصدته لشراء تلك الخطابـات مـصرًّا عـلى ألا أرجـع إلا ظافرًا بثمرة جهادي... فهل كنت مقبلًا على أعظم حوادث حياتي هولًا، أو هـي محاولة تقنعني مرة أخرى بأني كنت ألعوبة مخيلت؟ لكني، مـع ذلـك، أكـون قـد أديت واجبي كاملًا.

(16)

وصلت إلى الطابق الثاني فوجدت لوحة صغيرة في زاوية دهليز طويل مكتوبًا عليها: "من رقم 300 إلى رقم 360" ووجدت في الدهليز خادمًا يمر مصفرًا وفتاتين تضحكان في مطبخ قريب من آخر السلم وسمعت ضوضاء عظيمة في باحة النزل فوجدت الفرصة ملائمة لتنفيذ مقصدي إذ أن الرجل ل يستطيع الهرب من نزل كهذا مكتظٍّ بالناس... فأخذت أقرأ أرقام الحجر حتى وجدت نفسي أمام الحجرة التي كان يقيم بها "إدوارد ترموند" فألفيت المفتاح بالباب، كأنما الصدفة كانت تهون عليَّ إنفاذ عزمي بأكثر مما كنت أؤمل. هذا التفصيل البسيط يظهر ما كان فيه من قصدت إلى مفاجأته من الاطمئنان فهلا كان يجب أن يتوقع وجودي؟

وقفت لحظة أمام هذا الباب المغلق وكنت قد وضعت يدي اليمنى في جيبي محكمًا أصابعي على زناد غدارتي وفتحت الباب دون استئذان فسمعت صوت رجل يقول: "من أنت"؟ وكان يقرأ جريدة مدخنًا مستلقيًا على مقعد ذي مسندين واضعًا رجليه على مائدة وظهره إلى المدخل. سأل هذا السؤال غير مكلف نفسه مؤونة الوقوف ليرى من فتح الباب، لوثوقه بأنه أحد خدم النزل. فلم أترك له فرصة أن يكمل فيها اتجاهه إليَّ وسألته:

ـ السيد روشدال؟ وما كدت أفوه بهذا الاسم حتى وثب واقفًا دافعًا المقعد ملتجئًا إلى الجهة الأخرى من المنضدة ناظرًا إليَّ بوجه مُتلفٍ وأخذت عيناه تتسعان اتساعًا فظيعًا واضحتين في ذلك الوجه الذي تحيط به لحية كانت فيما مضى، شقراء والآن وخطها المشيب، وقد انفغر فوه واصطكت ركبتاه. ولا غرابة فهذا الجسم الكبير القوي قد عرته إحدى هزات الخوف الجنوني الذي يشل جميع قوى الحياة.

لكنه في فزعه لم يفه إلا بصرخة واحة هي: "كورنيليس"! هذا البرهان، وهو ضالتي المنشودة منذ أشهر، هأنذا قد نلته! وإني وإن شعرت، في تلك اللحظة، بجميع ما فيَّ من ينابيع الحياة متوترًا، إلا أني كنت نافذ الذكاء ثابتًا متملكًا عواطفي بينما كان خصمي صريعًا، لم يكن له ما لشريكه في الجرم من فطرة ضبط النفس إذ أن اسم "روشدال" ومشابهتي لأبي وهذه المقابلة الفجائية، كل ذلك قد أرداه. ولأني إذن لم أضل فيما دبرت، لمحت بسرعة المخيلة الخارقة التي تصحب العمل أنه يجب أن أُتبع هذا الهجوم الذي أربكت به عقله بهجوم آخر يشل جسمه فزعًا وإلا انقض عليَّ في حركة الدفاع التي قد تتلو هذا الفزع وقد يصرعني ويفر كالمجنون مخاطرًا بالوقوع بين أيدي الخدم الذين يرونه فارًّا حيران، وإذن... لكني، وكنت مصوبًا غدارتي على ذلك الشرير، قلت له بعد أن ناديته باسمه الحقيقي، تأكيدًا له بأني أعلم بكل دقيقة من أمره: إن أتيت حركة يا سيد "إدوارد ترموند" قتلتك لأنك قاتل... ثم أمرته بالجلوس فأطاع بغير تعقل.

وكان لي عليه في تلك اللحظة سلطان مطلق كنت أظن أنه سيزول حالما يثـوب إلى رشاده. ولكن، بفرض أن بقية المحادثة انقلبت ضدي الآن، فهل هـذا يمنـع أني أصبحت موقنًا؟ كنت أريد أن أعرف إذا كان "إدوارد ترمونـد" و"روشـدال" ليسا إلا شخصًا واحدًا، وقد وثقت من ذلك بهذا البرهان الحاسم. إلا أني كنـت ما زلت محتاجًا لانتزاع البرهان الآخر الذي سـيوقع زوج أمـي في قبـضة يـدي. وهو آخر وجه للمعركة. فلمحت كالبرق جميع ما تحويه الحجـرة التـي كنـت فيها محبوسًا مـع عـدوي فرأيـت عـلى الـسرير، عـن يـساري، عـصاة مرصـصة وقبعة ومعطفًا، وعلى المائدة قبضة يد فولاذيـة وغـدارة. وإلى اليمـين المغـسل "لافابو" و"البوريه" وعليـه خنجـر بـين أدوات الزينـة وبجانبـه صـندوق وراءه باب مقفل ودولاب بمرآة وراءه باب آخر مقفل أيضًا وهو نفسه محـصور بـين النافذة والمائدة تحت تهديد غدارتي المصوبة عليـه فلـم يـستطع لا الفـرار ولا التمكن من وسيلة للدفاع عن نفس، دون الوقوع معي في عراك ترديه فيه نار غدارتي. على أنه إذا كان كبير الجسم قويًّا، فـإني لـست طفـلًا ولا ضـعيفًا فقـد بلغت الخامسة والعشرين من العمر بينما بلغ هو الخمسين عامًا، فلي جميـع القوى الأدبية ولا بد لي إذن من الانتصار. فقلـت لـه بيـنما كنـت أجلـس دون انقطاع عن تسليط غدارتي عليه:

ـ لنتحادث إذن... فأجابني بوحشية:

ـ "ماذا تريد مني"؟ وكان صوته مكتومًا أبحَّ وقد صعد الدم في وجهه ولمعت عيناه اللتان تشبهان عيني أخي، عادت إليه الوحشية، بعد أن دهش لبقائه حيًّا مع ما عانى من خطر مريع. فأضاف مهددًا بقبضتي يديه:

ـ "هيا، اقتلني بما أني وقعت لنضع حدًّا..." ولمَّا لم أجبه وكنت ما زلت مصوبًا عليه غدارتي، صاح قائلًا:

ـ "آه! قد أدركت، أنت الابن... وجاك السافل باعني إليك تخلصًا مني... قد سقطت العقوبة ولذلك يرى نفسه في مأمن، ولكن هل اعترف لك أيضًا بأنه شريك، ذلك الرجل الشريف الذي أملك برهان اشتراكه؟ أيظنني تاركك تقتلني دون إفشاء؟ كلا! لأصيحن فيقبض علينا ويعلن كل خفي... سيضيع، هو أيضًا، الشريف". وكان يكرر كلمة: "الشريف"! فقد ملكه الغضب وكنت أرى شفتيه تفتحان ليصرخ صرخة الاستغاثة! والأدهى أن الغضب تملكني أنا الآخر... إذ كنت أرى يده الوحشية تجول ضالة على المنضدة، باحثة عما ترميني به، نعم فلقد كان هو قاتل أبي... ولو زاد به الغضب درجة لقتلني أنا الآخر، وكنت على وشك أن أرديه قتيلًا بطلقة من غدارتي فأروي غلتي، لكني رأيت، في لحظة هذيان سريعة، كأنه قبض عليَّ فاضطررت لإفشاء كل خفية فانتابت الآلام والدتي، لكن لحسن حظي مرت به هو الآخر لحظة تبصر. ولا بد أن خطرت بفكره

خاطرتان، الأولى أن أخاه لم يبلغني عن الحقيقة كاملة وذلك ليوقعه فريسة انتقامي والثانية أني، ومقصدي الانتقام لأبي، لم تكن تبدو عليَّ الرغبة في الإسراع. وبذلك مرت بنا فترة سكون قصيرة سمحت لي بامتلاك جميع حواسي فقلت له بثبات أذهله:

ـ "أنت مخطئ يا سيدي". فنظر إليَّ ثم أقفل عينيه مقطبًا جبينه بما أدركت منه أنه لا يتحمل النظر إليَّ لمشابهتي لأبي. فاستتبعت بأكثر رباطة لأحول هذه المحادثة المريعة إلى محادثة أعمال:

ـ "لم أحضر للقبض عليك ولا لقتلك"، ما الم تضطرني لذلك أنت، كما خشيت أن تفعل منذ لحظة... إنما جئت مساومًا بشرط أن تصغي هادئًا مثلي..." ثم سكتنا كلانا. وسُمعت ضوضاء خطوات وكلام وضحك بالدهليز أمام الباب تقريبًا فكان هذا كافيًا ليذكرني بضرورة امتلاك عواطفي وليذكره بأن تعسفه لعب بالنار فإن طلقة يصرخ أحد الواقفين بالدهليز على أثرها فيدخل الحجرة ونحن على هذه الحال... لكن "إدوارد ترموند" كان قد أصغى إصغاءً، فارتسم على وجهه شعاع من الأمل أظهر على محياه ارتيابًا غريبًا، فأجاب بصوت مكتوم ولكن هادئ:

ـ "قرر اشتراطاتك". فألحفت بجلاء لأزيده اقتناعًا بصدق طويتي:

ـ "لو كنت أريد قتلك، لصرت في عداد الأموات". ورفعت غدارتي. "ولو كنت أريد اعتقالك لما اهتممت بالحضور شخصيًّا

إذ يكفي اثنان من الشرطة. ولا تنس أنك هارب وأنك ما تزال تحت سيطرة القانون". فأجاب بكل بساطة:

ــ "حقًّا". ثم أضاف، مستتبعًا تقديرًا في نفسه له أهميته الحاسمة في محادثتنا: "إن لم يكن جاك الذي باعني...".

فاستتبعت قائلًا متعمدًا إهمال ما قال:

ــ كنت وما زلت في قبضتي ولم أتخذ ضدك شيئًا... فإذا أنا ادخرتك بالأمس أو اليوم أو الآن فلسبب قوي، فنجاتك موكوله إليك"، فأجابني مشيرًا لمسدسي بأصبعه وكان ما يزال بيدي ولكن غير مصوب عليه:

ــ "وتريد أن أصدقك؟ كلا، كلا..." ثم أضاف بلهجة قوية كشفت فيه الضابط القديم: "لست ممن تخدعهم هذه الأحابيل...". فأجبته بغاية البرود:

ــ إليك السبب القوي الذي يمنعني من قتلك كما يقتل الكلب، لا أريد أن تعلم قط والدتي، أي رجل تزوجته في شخص أخيك... أفهمت إذن لماذا قررت أن أتركك تذهب طليقًا؟ فإذا كنت مع ذلك مستعدًّا... لأنه حتى ولا اهتمامي بوالدتي يمنعني، إذا تولاني الغضب. ولا تنس أن عقوبة جناية 1864 ما تزال قائمة بفضل عناية القاضي. فأنت، برفضك، مخاطر بحياتك. هاك ما أعرضه عليك: "قد نجحت خلال عشر سنين، في ابتزاز الأموال من أخيك بطريق التهديد،

لأني لا أظنك تهز فيه عاطفة الإخاء، أليس كذلك؟ "لما حضرت من أمريكا متنكرًا تحت اسم روشدال، لا بد أنه زودك ببعض تعليمات... وقد احتفظت بتلك الخطابات... فأقدم لك مئة ألف فرنك، ثمنًا لها".

فأجابني بنغمة تشعر أنه تملك عواطفه مؤقتًا:

ــ لم تريد يا سيدي أن أصدق عرضًا كهذا؟ فبفرض أن هذه الخطابات حقيقية وأني محتفظ بها، لماذا أسلمها إليك وهي مستند؟ ومن يضمن لي ألا أعتقل، بمجرد وقوعها بين يديك؟ ثم زاد وقد حملق في وجهي: "آه! لم تكن تعرف شيئًا؟ هذا الاسم... هذه المشابهة... ما أغباني، فقد لعبت بي..." ثم تولاه شديد الغضب من جديد، فصاح متوعدًا: "لأقتص منك". وفي الحال، ولم أكن مصوبًا عليه غدارتي، دفع المنضدة عليَّ بأقصى شدة حتى كدت أصرع لو لم أقفز إلى الوراء. لكنه وجد الفرصة فانقض عليَّ وضغط على جسمي، ولحسن الحظ أوقعت شدة هجمته الغدارة من يدي بحيث لم أستطع استعمالها، وإلا لقتلته بها بحكم الغريزة. ثم شبت بيننا معركة، لم نفه خلالها بكلمة. فإنه بهجمته كان قد ألقى بي إلى الأرض، لكني كنت قويًا وكثرة اشتغال فكري بالأمور المخطرة التي أفنيت فيها شبابي، دفعتني إلى مضاعفة جميع قواي. وأكسبتني مهارة عظمى في استعمالها. كنت أشعر بأنفاس ذلك الشرير تهب عل وجهي وجسمه على جسمه وعضلاته على

عضلاتي، وكنت أشتم رائحته. فضاعف الحقد قواي وفي الوقت نفسه أتاح لي خوفي من أن تسمع حركاتنا، الهدوء الذي فقده هو. فبعد بضع دقائق من تضييقه الوحشي عليَّ، ولما أن شعر بالضعف عضني بوحشية في كتفي عضة أطارت صوابي فخلصت إحدى ذراعي وقبضت على عنقه مخاطرًا بخنقه فأرديته تحتي وأخذت أضرب برأسه الأرض لأسحقه فبقي برهة خامدًا فظننت أني قتلته فالتقطت غدارتي وذهبت نحو المغسل لآخذ ماء أبلل به جبينه. فرأيت نفسي في المرآة مرضرض الوجه ممزقة ياقتي ورباط رقبتي فارتعدت كأنما رأيت "أندريه كورنيليس" آخر. فتقززت من هذا الحادث الممقوت. وما كدت أشرع في غمس المنشفة بالماء حتى تنبه عدوي. لكني كنت مصرًّا على الانتهاء من أمره، هذه المرة، مرتاح الضمير بوفائي بعهدي نحو والدتي. ثم اعتدل الشرير جالسًا تقريبًا ناظرًا إليَّ. فتقدمت نحوه مصوبًا غدارتي على جبينه وقلت له:

ـ ما تزال لديك الفرصة، أعطيك خمس دقائق للبت فيما عرضته عليك، الخطابات مقابل مئة ألف فرنك وإطلاق سراحك وأقسم لك. وإلا فطلقة تلهب رأسك، أقسم لك أيضًا... أردت تركك لتظل والدتي جاهلة. لكني لا أريد فقدان الانتقام من الجهتين... فإذا تحركت قُتلت... فأعتقلُ... فتبحث أوراقك فيُعثر على الخطابات، فيُعلم أني محق في تحطيم رأسك، فتجن والدتي من الألم... لكني أكون

قد انتقمت... لديك خمس دقائق فقط. وكان يبدو عليَّ الإصرار. فنظر القاتل إلى وجهي ثم إلى الساعة وأراد الإتيان بحركة لكنه رأى أصبعي ينحني على الزناد، فقال:

ـ "سلمت نفسي". فأمرته بالوقوف فأطاع، فسألته: أين الخطابات؟ فقال متوسلًا كالطريدة والجبن مرتسم على وجهه القذر:

ـ أتتركني طليقًا أسافر إذا أخذتها؟ فأجبته:

ـ "قد أقسمت لك بذلك". ولما أن لحظت في عينيه قلقًا بالغًا، أضفت: "وأقسم لك مرة أخرى بذكرى أبي..." ثم عدت فسألته: "أين الخطابات"؟ فأجابني مشيرًا للصندوق:

ـ "هناك". فرميته بمحفظة أوراق النقود قائلًا: "هاك المال".

فهل لنغمة بعض الكلمات أو لما يرتسم على المحيا تأثير أدبي يسحر النفس أو أن ذلك التأثير راجع لطبيعة قسمي، أو أنه كان لإدوارد ترموند من قوة الفكر، حتى في لحظة اضطرابه، ما يقنعه بالركون في نجاته لصدق طويتي؟ على أنه لم يتردد لحظة، فتح الصندوق، وكان محزومًا بالحديد، وأخرج منه علبة مقفلة ففتحها وأخرج منها ظرفًا كبيرًا رماني به كما فعلت معه. فأخذت أفحصه، غير خائف أن يخرج من الصندوق سلاحًا يقتلني به. فوجدته يحوي ثلاثة خطابات عليها تاريخ البريد في شهري يناير وفبراير عام 1864، اثنان منها صادران من باريس إلى نيويورك والثالث من باريس إلى ليفربول، فسألني:

ـ "أهذا كل ما تريد "؟ فأجبته:

ـ "لا، بل يجب أيضًا أن تسافر الليلة بأول قطار دون مقابلة أخيك ولا التحرير إليه. فهل تتعهد بذلك"؟ فأجاب:

ـ "أعدك به. ثم ماذا"؟ فسألته:

ـ متى كان يجب أن تقابله؟ فأجاب هازًّا كتفيه:

ـ يوم السبت... كانت قد تمت المساومة بيننا. لكنه أرجأ الدفع ليوم سفري للهافر ليثق بأني لن أتأخر هنا. لكن قضي الأمر وعليه التبعة. فوقفت قائلًا مهددًا:

ـ وداعًا، إذن. واجتهد ألا تخاطر بعد الآن بمقابلتي أو بمقابلة مخلوق أحبه. ثم تركته جالسًا وخرجت. وما كدت أبلغ الدهليز حتى خانتني أعصابي فجأة بعد هدوئها المدهش أثناء المعركة فخارت قدماي حتى كدت أقع، إذ كيف أبرر اضطراب ملابسي؟ فرفعت ياقتي مداراة لرباط رقبتي وقميصي الممزقين ونفضت قبعتي ومسحت وجهي ونزلت السلم بخطى جاهدت أن تكون ثابتة فنظر إليَّ بعض الخدم دهشين من حالتي لكنهم لحسن حظي لم يحاولوا معرفة السبب. كننت أخشى أن يجر عليَّ ارتباكي أخطر النتائج فاخترقت الساحة فزعًا أن يقابلني أحد معارفي، وما كدت أتخطى باب النزل حتى ألقيت بنفسي بأول عربة قابلتني. وهكذا انتصرت برًّا بوعدي.

ماذا أفعل بهذه الخطابات التي اشتريتها غالية بتـضحيتي في سـبيلها انتقـامي من أحد المجرمين والتي ترهق زوج أمي وتوقعـه في قبـضتي كـما أخـضعته، زمنًـا طويلًا، لأخيه.

بـدأت أقرؤهـا في العربـة، في طريقـي لمنـزلي، فوجـدت أولهـا مـسهبًا يُـذكر "إدوارد ترموند" بأخطائه الماضـية وبمـا وصـل إليـه مـن شـقاء يعـز انتـشاله منـه وضمن ما جاء به وسيلة غير محددة تكـسبه ثـروة يـصلح بهـا شـأنه، شرط نيلهـا الأساسي أن يخضع هذا المنفي خضوعًا أعمى لأخيه وأن ينتقل إلى حي آخر، معلنًا معارفه بمبارحته نيويورك، وأن يغير اسمه ويبقى في انتظار خطاب آخر، وجلي أنه قبل لأن "جاك" أمر هذا الشقي في خطابه الثاني بالحضور إلى ليفربول حيث يجـد تعليمات أخـرى هـي موضـوع الخطـاب الثالـث الـذي انحـصر في تحديـد موعـد عاجل، في باريس، في الساعة العاشرة مـساءً، لمقابلتـه بـشارع سـحيق منعـزل هـو شارع "جوسيو" المقابل لشارع "جـوي ده لابـروس" خلـف حديقـة النباتـات وكـلا هذين الشارعين قفر كأنهما من الريف.

لم يذكر شيء بالخطابات عن الخطة التي رسمها "جاك" وكانـت موضـوع أول مقابلة لـه بأخيـه بعـد فـراق عـدة سـنين. وبفـرض أني لم أكـن قـد حـصلت عـلى الاعتراف الذي انتزعته من المزعوم "روشدال" بفضل فزعه وذهوله، فإن في اتفـاق تواريخ الخطابات واستدعاء "جاك" أخاه لأمر خفي وقتل أبي، برهانًا لا يفند.

قرأت هذه الخطابات المتهمة مرارًا وتكرارًا كما فعلت من قبل بخطابات أبي فوضحت لي جلية تلك المؤامرة البشعة التي سببت يتمي. فقد سبق لي أن عرفت شارع "جوسيو" الذي فيه أغوى "جاك" أخاه غوايته المشئوم. لأن زميلي القديم في التلمذة "جوزيف ديدو" قطن مدة طويلة بمسكن صغير على قيد خطوتين من هذا الشارع وكثيراً ما زرته لأقضي معه بضع ساعات ثم نتناول الطعام في أحد المطاعم هناك حيث كان يسرنا أن نشرف من نوافذه على مياه "السين" الخضراء والبحارة ومواكب البواخر. نعم، كم من مرة وطئت قدماي، وأنا جذل، أرض ذلك الشارع الذي تنزه فيه ذانك الشريران أثناء مقابلتهما الإجرامية! كنت أتمثلهما ذاهبين، آيبين فيه، وأسمع خطوات أقدامهما وأتميز صوتهما وعلى الأخص ذلك الذي قضى أن يتزوج أمي يقول بنغمة الساحرة كلمات ناءت بشؤم نتائجها على سني حياتي. فقد مات أبي بفعلها وكذلك ماتت عمتي ضحية الأحزان التي سببتها، تلك الأحزان التي سببتها، تلك الأحزان التي عذبتني. حقًّا فإن آلامي المتواصلة لم تكن إلا نتيجة مؤامرة ذينك الوغدين في ذلك الشارع... كذلك كنت أتمثل اضطراب وجه ذلك الوغد اللئيم الذي أثرت عضته تأثيرًا عميقًا بكتفي الأيسر حتى كنت أحركه بألم. كما كنت أتمثله وقد بارحت حجرته، يصلح هندامه ويحزم أمتعته وينادي الخادم فيدفع له الحساب من مالي، ثم يستقل عربة قاصدًا بالتأكيد محطة الشمال لقربها من الحدود حيث يركب أول قطار، فأندم على

إفلاته من يدي، فيتولاني الغضب، فأقول في نفسي: "إنه ما يـزال قريبًا وما تـزال الفرصة سانحة... فهل أسرع فأخطر الشرطة وأزودها بأوصافه لتعتقلـه؟ "لكنـي أقسمت له بأني سأتركه يسافر"، "لكن ما قيمة الإقسام حيال لص"؟ لكن سيعتقل، سيعتقلان، ووالدتي؟ والدتي؟ إني منذ أيقنت بالحقيقة المشئومة أصبحت أحنـق كلما تذكرتها. ففي هذه اللحظة، حيث أتخيل القاتل فارًّا، أوبخ نفسي إذ ضحيت نصف انتقامي في سبيل راحة هذه الأم التي أحبها. فناجيت نفسي ساخطًا: "فتتألم عقابًا لها على عدم بقائها أمينـة لـذكرى الميـت..." ثـم مـا لبثـت أن خجلـت مـن ضلالة كهذه كأني أجرمت... فإنها لن تتحمل وقع هـذه الحقيقـة بعـد أن قـضت زوجًا لهذا القاتل خمسة عشر عامًا. بل لن أتحمل، أنا نفسي، وخزات ضميري مـن إفشاء هذا الأمر البشع إليها. كلا، ولينج ذلك اللـص"! لكنـي، بـالرغم منـي، كنـت أرقب الساعة فأرى أنه كلما مرت ثانية، قرب ذلك السافل مـن النجـاة. فـساءلت نفسي: "تري أية طريق سلك؟ لا بد أنه سافر إلى إنجلترا" فتخيلت قطـارًا يـسير في الليل وفرضة واسـعة ومـسافرين يتزاحمـون، ثـم تـصفر البـاخرة طـويلًا فتتحـرك مسافرة... وأن الوغد سيكون بعد بضع ساعات، في لنـدن، تلـك المدينـة الواسـعة، طليقًا، آمنًا، فصرخت مرتميًا على الأريكـة، شـديد اليـأس: "أي أمـي... أي أمـي، إن ما ضحيت في سـبيل راحتـك لعظـيم"! ثـم وقفـت فطـردت بـشدة صـورة هـذا الشرير لأحلَّ محلها صورة الآخر، صـورة أخيـه. فـإن هـذا لـن يفلـت منـي. وإذا

كان الانتقام طعامًا يؤكل باردًا، كما يقول المثل المفجع، فلديَّ من الوقت ما يسمح له به منه. نعم لن يفلت مني، وقد جعلته جريمته وزواجه بامرأة ضحيته، أسيري. فإني أعرف مكانه وأستطيع أن أقابله كل يوم، فأثير معه خصامًا أنفذ منه إلى مقصدي. أي مقصد؟ هو ذلك الذي قد خامرني ورأيت فيه سلفًا، التعويض الكافي على سماحي لأحد عدويَّ بالنجاة. قد تكوَّن فجأة هذا المقصد في رأسي بعزم لا يتزعزع، إذ سمعت نفسي أصرخ كالمجنون مكررًا: "لأقتلنه، لأقتلنه" وكأنما ثملتُ في حالة هذيان فجائي بمرأى جثته هامدة وعينيه اللتين طالما أرهقتني نظراتهما وقد انطفأ نورهما وفمه الذي ساوم وقد صمت وجبينه الذي تأصلت فيه الجريمة وقد جمد ويده التي سطرت الخطابات وقد شُلَّت، فلن يتحرك بتاتًا، هذا الجسم الذي كان موضع مقتي. وهكذا جعلني شبح الحقد أثب فجأة بلذة غريبة فصحت مرة أخرى: "لأقتلنه..." لكنني ما لبثت أن عرض لي هذا السؤال الذي لا مفر منه: "وبأية وسيلة"؟ لأني لم أضحِ انتقامي الأول لأصيب هذه المسكينة بآلام أشد نكيرًا، بانتقامي من الثاني. لذلك كان لا بد لي أن أتخذ في انتقامي من هذا الثاني احتياطات تضمن لي النجاة من العدالة كما احتاط لنفسه في قتل أبي... وبالإيجاز، لا بد لي من قتله... قتله؟ إن معنى هذه الكلمة قتل رجل غيلة. ومهما يكن الشرك الذي أنصبه إليه، كأن أقتله بالسم، وريدًا رويدًا، أو أتربص إليه في ركن فأقتله بخنجر أو بغدارة فالمعنى واحد، هو قتله غدرًا. أأقتله

فأصبح، أنا أيضًا، قاتلًا؟ لقد ثار فجأة، أمام عيني كل ما تحويه هـذه الكلمـة مـن نذالة وانحطاط، حتى استبشعت الانتقام لأول مرة وطالما تمنيتـه ونـذرت نفـسي، منذ طفولتي إليه، إذ هو علاج بؤسي الوحيد. لكنـي وقـد تحققـت هـذا الـضعف الفجائي في نفسي، أمام ذلـك العمـل المـستطاع، دهـشت، بـادئ الأمـر، فأغمـضت جفني لأتملك حواسي، مضطرًا لمناجاة نفسي بأني "خائف". ومم؟ من كلمـة، كلمـة الانتقام الذي ضحيت في سبيله بكل شيء حتى فرض احترام رغبة الموتى، إذ نكثت عهدي لعمتي وهي في نزاع المـوت. إلا أني مـا لبثـت أن وجـدت أن منـشا فزعـي الفجائي مخالفة وسـيلة إنفـاذ الانتقـام لخـزعبلات طبقتـي وزمنـي فلـم أتـردد في الحكم على نفسي بالجبن لخوفي أن أقتل... هل كنت أتردد في تـسميم قاتـل أبي أو في قتله بطلق ناري، لو كنت ولدت بإيطاليا في القرن الخـامس عـشر أو ربيـت في كورسيكا، منذ خمسين عامًا، أو بصقلية الحالية؟ أو لـست إلا رجـلًا متمـدنًا، تعـسًا، ضعيف التفكير، شغوفًا بالعمل ولكنه لا يجـرؤ أن يلطـخ بـه يـده؟ ثـم استعرضـت حالتي بوضاحتها المطلقة وربما فيها مما لا مفر منه فوجدت أني بين أمـرين: إمـا أن أثأر لأبي بتقديم قاتله للعدالة، بما أن الحكيم "ماسول" هدتـه بـصيرته فجـدد مـدة العقوبة، أو أثأر له بنفسي. وهناك فكرة ثالثة: تـرك الـشرير يمـرح واحـتمال اشـغله مكان ضحيته بمنزل والدتي، بمنزلي أنا وقد طردني منـه! وعنـد هـذه الفكـرة هجـت لشدة الغضب. وإذا كان روح فيَّ قد تردد أمام الخزعبلات، فهذا التردد لن يمنـع روح

الوحشية الثاوي فينا عن الافتتان بشهوة الثأر التـي تثـور ثـوران الجـوع والحـب، ثوران طبيعة الإنسان الحيوانية، ثوران لحمه ودمه. فقلت في نفسي: "إذن، لأقتلن زوج أمي..." وهل خاف هو أن يقتل أبي؟ "قَتل وليُقتل". "عين بعـين وسـن بـسن" بهذا قضى أصل التشريع وأما ما عداه فكذب.

هجم الليل حالكًا، وأنا بين هذه الأفكار كمن وقع في هذيان الحمى وهو مـا يتعارض تعارضًا غريبًا مع ما كنت عليه من هدوء عندما كنت مرتقيًا سـلم النـزل الأكبر. لكن ذلك راجع لتغير الظروف، لأني كنت إذ ذاك، مقبلًا عـلى مقاتلـة رجـل لأنتصر عليه، وجهًا لوجه، دون خيانة، لذلك لم أرتعد. لكن الذي أفزعني الآن هـو أن أنصب لزوج أمي شركًا في ظلمات الخديعة لأقتله غيلـة. فتملكـت نفـسي لأول مرة خائفًا أن يعود إليَّ ارتعادي فأعـاني ذلـك الأرق الـذي إذا نـام الإنـسان بعـده استيقظ غير قادر على العمل بهدوء. فشعرت بملل الانتظار إذ كنت أريـد العمـل منذ اليوم التالي فأنفذ، في الحال الخطة التي سـأبتُّ فيهـا خـلال الأربـع وعـشرين ساعة، مهما كانت. ومن الآن، أستطيع أن أخدع اضطراب أعصابي بالبـدء في ذلـك. أما يجب أن أظهر أمام الناس هادئًا، ثابتًـا، باسـم الثغـر، ليـشهدوا لي بـذلك عنـد الحاجة؟

وارتــديت ملابــسي مــصرًّا عــلى تنــاول الطعــام في مكــان عرفــت فيه وقضاء بقية هذه الليلة بالنـادي. فلـما بلغـت شـارع "الـشانزلزيه"

المكتظ بجماهير المتنزهين شعرت بلذة حياتي مبددة، فالجو معتدل والسماء صافية تتماوج بلألاء الكواكب والنسيم عليل يداعب أوراق الشجر النضرة وأكاليل النور تؤذن بارتياد الحدائق فمررت بمطعم انتشرت موائده حتى حافة "الرصيف" فألفيت الشباب فرحًا بتناول الطعام ناعمًا مغتبطًا وكانت نغمات الموسيقا الشجية المنبعثة من المراقص تطرق أذنيَّ ضعيفة، لبُعد المسافة، بينما كانت العربات تسير كالسيل المنهمر، آتية من طريق الغاب تحمل أجمل القبلات وأعذب الكلمات. فأسخطني أشد السخط هذا التفاوت العظيم بين لألاء هذه البهجة، بهجة الربيع، وحالي المفجعة. فبم أجرمت حيال القدر حتى أستحق هذه العزلة وأعاني ما أنا فيه من محنة، بينما تتمتع تلك الجموع بنعمي الحياة؟ لماذا صادفت، في حياتي، رجلًا يدفعه الهيام إلى إزهاق الروح، في عالم اعتاد أن يرى الهيام عطوفًا، ضئيلًا، لا قيمة له؟ لا أظن أن في العالم اثنين تبلغ بهما الجرأة على تبرير جريمة كالتي اقترفها "جاك ترموند" أو انقياده لهواه. ثم ما لبث أن أصابني ريح القدر، وكثيرًا ما أصابني، فانتابني اشمئزاز غامض من النظر إلى وجوه بني الإنسان فلويت عناني فجأة عن هذا المرتع الباسم من "الشانزلزيه" واتجهت نحو "قوس النصر" متخذًا دون شعور طريق الغاب، متجهًا إلى اليمين، تجنبًا للعربات. ثم تغلغلت في طرق قاحلة. فهل كنت بذلك مطيعًا، دون شعور، لشيء من تلك الذكريات التي تقودنا، بحكم غريزتنا، للسبل التي سبق لنا أن

طرقناها، فقد عرفت، في ضوء القمر، المكان الذي سرت فيه في الشتاء الأخير، مع زوج أمي. أثناء أول نزهة لنا في الغاب، وكان ذلك يوم زارني بحجة طلب المجلة حيث أكرهته على رؤية وجه فريسته. فتمثلته سائرًا في برودة الجو بنفس هذا الطريق بين الحشائش اليابسة بشعره الذي وخطه الشيب، ملتفًّا بمعطفه فتذكرت تلك الشفقة الغريبة التي خامرتني عندما رأيته بادي الكآبة مسحوقًا. فتصورته بجانبي، فتذكرت، لثوران هذه الذكرى، أنه ما يزال حيًّا فأدركت تمام الإدراك معنى كلمة "القتل". القتل؟ سأقتله في بضع ساعات، أو على الأكثر، في بضعة أيام. فعاد فتملكني القلق الذي حاولت الفرار منه عندما بارحت منزلي وسرت ضالًّا هكذا. فساءلت نفسي عما كنت قد تقهقرت أمامه منذ لحظة: "سأقتله، فهل لي الحق"؟ ما أشد ألمي، ألقيت بنفسي على مقعد منسحقًا بينما أوراق الأشجار تتحرك ناعمة حولي! كنت منزويًا فسمعت أصواتًا تقترب ورأيت شبحين يسيران على مقربة مني، هما شاب وشابة وقفا يتبادلان قبلة الحب يغمرهما القمر بنوره فانهمرت دموعي لأني وإن كنت مثلهما شابًّا عامر القلب بينابيع الحب إلا أني منعزل في ركن مظلم أتدبر في قتل! لكن، كلا! بل أنفذ العقاب. هل يستحق زوج أمي أن يُقتل؟ نعم. وهي يسمى الجلاد الذي يسقط رأس المحكوم عليه، قاتلًا؟ كلا! إذن، سأكون جلادًا فتركت هذا المكان الذي سكبت فيه آخر دموع جبانتي، تلك الدموع التي أذكرها اليوم كبرهان قاطع على أني لم أخلق على

الإجـرام، وعـدت إلى "بـاريس" موجهًـا جميـع قـواي العقليـة إلى هـذه النقطـة الوحيدة: "لي الحق في إنفاذ الإعدام في قاتـل أبي... فـإن حـق المجتمـع الإنـساني في تحقيق العدالة بإعدام القاتل مستمد من حقـوق أعـضاء هـذا المجتمـع المكـونين لهيكله في الدفاع عن أنفسهم. فهناك تعاقد مضمر بين المجتمـع وأعـضائه، ولـو لم يكن للفرد حق الدفاع عن نفسه لما كان هذا الحق للمجمـوع. ويحـصل أن هـذا التعاقد يتعذر تنفيذه لحكمة عالية. ففـي هـذه الحالـة أعـود لحقـي الأول... أي حق؟ حقي في الدفاع عن نفسي... أما يوجد، في الواقع، حق الدفاع الأدبي كـما وجـد حق الدفاع المادي؟ يقتل "جـاك ترمونـد" أبي ويتـزوج بـأمي فيـسلبني بـذلك أغـلى عاطفتين طول حياتي ولا يكون مشروعًا قتل كما شرع قتـل سـارق يـدخل لـيلًا مـن النافذة؟ "وهكذا ضاعفت البراهين حت استطعت إخفات صوت في قلبي أقوى مـن شغفي بالانتقام ومن أدلني، صوت كان ينطق بكلـمات عمتـي وهـي: "أنـا أجـازي، يقول الرب" الرب... وإذا لم يوجد إله؟ أما إذا كان هناك إلـه. فعليـه التبعـة إذ تـرك الظروف تجري في أعنتها... لكني عدت فناجيت نفسي: "إنما هـي تخـيلات الطفولـة تعود إليَّ لأن التأثرات قد أتعبت رأسي، إنما هي مسيحيتي تبدو كـما تبـدو للمـرضى إذ يرتعدون فرقًا من جهنم وما كانوا في صحتهم بها مؤمنين..." ثـم بـدا لي أن هـذه الخزعبلات مناقشات باردة لا قيمة لها إلا لدى الفلاسفة وكهنة الاعتراف، فإن هنـاك أمـرًا مطلقًـا، لا يقبـل الجـدل وهـو أني لم أكـن أحتمـل أكـثر أن يـستمر قاتـل أبي

زوجًا لأمي. كما أن هناك أمرًا آخر ليس أقل من هذا وضوحًا وهو أن تسليمي هذا الرجل للعدالة ينجم عنه قتل أمي أو تسميم حياتها. إذن كان عليَّ أن أثأر لأبي، أن أكون الحكم والجلاد في قضيتي. وماذا تهمني تلك السفسطة من إثبات ودحض؟ كان عليَّ، قبل كل شيء، الرضوخ لغريزتي بصفتي ابنًا، تلك الغريزة التي كانت تصيح بي: أقتل كان عليَّ أن أقتل.

سرت مسرعًا مصرًّا على هذه الفكرة، بلذة مشئومة، لأني كنت شاعرًا، على الأقل، بانقطاع ترددي وبأني سأعمل. لكني ذكرت، بينما كنت مارًّا تحت قوس النصر، أني قابلت هناك لأول مرة أحد رفاقي بالنادي وأنه انتحر في اليوم التالي بغدارة. فأثارت في نفسي هذه الفكرة _بدافع خفي لا أدري ما هو_ سلسلة خواطر جديدة. فوقفت خافق القلب... إذ لمحت سبيل السلام. ما أشد جنوني وانقيادي لمخيلتي، دون تمييز! قد يموت زوج أمي، إذ حكمت عليه بذلك بمالي من حق ابن ينتقم لأبيه. ولكن أما أستطيع إكراهه على الانتحار ولديَّ ما يضطره لذلك؟ لو ذهبت إليه فأقول له بصراحة: "بيدي البرهان الحاسم على أنك قاتل أبي، فانتحر وإلا أخبرت والدتي بكل شيء، فبم يجيبني وهو يحبها بعبادة تؤلمني وأشاطره فيها؟ قد يفضل أن تعلم الحقيقة فتعتبره خائنًا، جبانًا، قاتلًا! كلا، بل قد يفضل الانتحار... وعندئذ اندفع قلبي _وقد أنهكته التأثرات_ نحو باب هذا الرجاء الذي فتح فجأة إذ قلت في نفسي: "لو انتحر،

أكون قد أديت واجبي دون أن تتلوث يداي بالـدم أو يـتلطخ بـه ضـميري وشـعرت بتفريج كربتي من عـبء وخـزات الـضمير التـي كنـت شـعرت بهـا سـلفًا وظللـت أستعرض مستقبلي بعد أن نجوت من هـذه الغيـوم القاتمـة التـي غـشيت بالحـداد سماء شبوبيتي، فسينتحر، فتبكيه أمي، لكني سأعرف كيف أواسيها. وسنـسترد معًـا ساعات الهناء التي استلبها منا القاتل عندما تعفى آثاره. إذ ذاك أستطيع أن أبـرهن على مبلغ حبي لها بما أسرف من مداعبتي لها وهو ما لم أكن أسـتطيعه في طفـولتي أمام ذلك الرجل الذي كان وجوده يخمد حماستي. سنترك باريس وهـذه الـذكريات المؤلمة حيث نأوي إلى جهة نائية فـلا يكـون لهـا سـواي ولا لي سـواها فأنـذر نفـسي للسهر على شيخوختها. فهل أحتاج وأنا معها لحب عائلة أخرى؟ وبما أن الآلام ترقق النفس فإنها ستزيد في حبها إليَّ. وكـم نـسعد! لكـن الـدموع عـادت فـانهمرت مـن عينيَّ، إذ ساءلت نفسي "وإذا رفض اللئـيم الانتحـار"؟ نعـم، إذا لم يـصدق تهديـدي بإفشاء أمره لوالدتي؟ ألم يرني منذ أشـهر شريكًـا لـه في العنايـة التـي كـان يبـذلها في إبقائها جاهلة الحقيقة؟ ألم يكن يعرف كم أحبها؟ أما كان يغار من شفقتي البنويـة عليها، غيرتي من شفقته الزوجية؟ أما يجيبني قائلًا: "اليوم شك وغدًا يقين ولن يظن أن ما بيدي من دليل قاطع يعجزني عن إتيان كل أمر... وبفرض أنه يـرفض فـإني إذًا أكون قد حاولت، حتى المستحيل، تجنب القتل... وليجرِ القدر بما يشاء.

(18)

ذهبت في اليوم التالي، في الساعة الرابعة بعد الظهر إلى شارع "لاتور موبـور" لأنه كان من المرجح كثيراً أن والدتي تكون قد خرجـت لزيـارة صـديقاتها ولعلمـي بأن زوجها لا بد منحرف الصحة بسبب ذهابـه صـباح الأمـس إلى "الجـران أوتـل" مؤملًا أن أجده بمنزله وربما كان نائمًا. وفعلًا لم أجد والدتي لكنه، هو، كان موجودًا بمكتبه المغشاة حوائطه بجلود قرطبة الملونة باللون الذهبي وهـو الـذي تفاهمنـا فيه معًا لأول مرة. أما زيارتي هذه فكانت لها أهمية تختلـف عـن تلـك. ومـع كلٍّ فقد كنت أقل تأثرًا، فإن اليقين الذي وصلت إليـه أكـسبني هـدوءًا غريبًـا. فإني أذكر أني رأيت، لأول مرة، مـن إحـدى نوافـذ الـسلم ماسـورة معمـل وراء الحديقـة الـصغيرة يتـصاعد الـدخان منهـا. إذن كـان ذهنـي طليقًـا مـن الاضطرابات. وعند دخـولي تلـك الغرفـة الفـسيحة، لمحـت زوج أمـي غارقًـا في مقعد كبير بجانب المدفأة يقطع صفحات كتاب جديـد بخنجـر عـريض قـصير قوي كان أحضره من الأندلس ضمن أسلحة أخرى كثيرة مبعـثرة بجميـع حجـر منزله. وقد أدركت الآن الفكرة التـي كانـت سـائدة عليـه فغرسـت فيـه هـذا الميـل. كـان مرتـديًا ملابـسه كأنـه متأهـب للخـروج، ولكـن اضـطراب محيـاه

كان يشعر بشدة وطأة تلك النوبة التي عاناها وكان ما يزال يعانيها. ومن المحتمل أن محياي كان يدل على عزم خارق، إذ أدركت من عينيه، منذ تقابلت أنظارنا، أنه قرأ جميع ما بنفسي. ومع ذلك قال: "هذا أنت يا أندريه؟ قد أحسنت بحضورك..." وهو ما أقنعني مرة أخرى بقوة سلطانه على نفسه. ثم مدَّ لي يده فرفضتها. فهذا الرفض الغريب الذي أجبت به على حسن مقابلته والسكون الذي لزمته خلال الدقائق الأولى وتقطب جبيني وعيناي المهددتان، كل ذلك أفهمه ما كنت عليه من حالة نفسانية. فوضع بسكون كتابه وذلك الخنجر على المائدة الكبرى التي كانت وسط الغرفة ووقف فاستند بظهره إلى رخام المدفأة مكتفًا ذراعيه ناظرًا إليَّ نظرة العجرفة التي كان يعرف كيف يصطنعها وكثيرًا ما حقرني بها فيما مضى. فكنت البادئ بالكلام إذ أجبته على كلماته العذبة بخشونة محملقًا فيه "قد مضى زمن الأكاذيب... ها أنت تدرك أني أعلم كل شيء..." فقطب حاجبيه كما كان يفعل عندما يتولاه غضب يريد إخفاءه ونظر إليَّ بعظمة عاتية. ثم أجابني ببساطة قائلًا: "لم أفهم ما تقصد..." فقلت له: "أنت لا تدرك قصدي؟ ليكن ولأنرين مخيلتك... " وكان صوتي يضطرب عندما نطقت بهذه الكلمات لأن هدوئي بدأ يزول، فبالأمس، استطعت أن أرى في أخيه، عندما كنت أكلمه، انحطاط الرجل الجبان الخليع، أما هذا العدو، وهو أكبر منه إجرامًا، فكان يجد الوسيلة التي تمكنه من الاحتفاظ بنوع من التفوق الأدبي حتى في هذه اللحظة الرهيبة

التي كان موقنًا فيها بان جريمته على وشك الافتضاح. نعم، كان هذا الرجل مجرمًا ولكنه يخفي الدناءة وكان الصلف يذكي شغفه الجريء في ذلك الجبين الذي وإن عرته أفظع الأفكار لا يرتسم عليه الفزع ولا وخزات الضمير. كان يقر في عينيه، وهما عظيمتا الشبه بعيني أخيه، عزم وحشي، لذلك شعرت أنه قد يبذل آخر جهد في الدفاع عن نفسه فلا يسلم إلا عند برهان قاطع لكن تملكه هذه القوة النفسانية في مثل تلك اللحظة قد أهاجني، فصعد الدم في رأسي واشتدت ضربات قلبي. بينما كنت أقول له مستتبعًا: "اسمح لي أن أعود إلى تاريخ الوقائع... كان في باريس، عام 1864، رجل هامَ بامرأة أخلص أصدقائه، وبالرغم من أن صديقه كان مستأمنًا، شريف الطوية، سهل الاغترار فإنه شعر بهذا الحب وبدأ يتألم منه فتولته الغيرة وإن لم يَرتَبْ قط في طهارة زوجته... تولته تلك الغيرة التي تصيب الهائم. فشعر بغيرته، ذلك الرجل الذي أصابه بآلامها. وأدرك أن المنزل سيغلق في وجهه. ولوثوقه أن المرأة التي كلف بها لن تسقط قط إلى حضيض اتخاذ عشيق سَّولت له نفسه هذا التدبير الجريء: إن له أخًا سافلًا لصًّا مزورًا هاربًا من الجندية في جهة سحيقة مجهولة عُرف عنه أنه ميت. فرأى في هذا الشقيق أسلس أداة يتخلص بها من الصديق الذي يعترض غرامه... فأحضر هذا الشقي خفية فحدد له موعدًا في الليل بأقصى مكان قاحل بباريس، على رصيف شارع ملاصق لحديقة "النباتات"... ها أنت ترى أني عليم... كيف اتخذ لإقناع ذلك اللص

القديم بالقيام بمهمة القاتل المأجور؟ وهو ما لا يصعب تصوره... وبعد ذلك بعدة أشهر، قُتل الزوج في كمين بيد ذلك الشقيق الذي فر من العدالة وتـزوج الـصديق الخائن، في الحال تقريبًا، تلك التي كان يحبها... وهو اليوم من علية القـوم، غنـي، محترم تغـدق عليـه زوجـه التقيـة جـمَّ عطفهـا واحترامهـا... أبـدأت تـدرك الآن؟ فأجابني بمحياه الهادئ:

ـ "لم أدرك شيئًا" وكان محقًّا في ثباته. فإن ما قلت له قد لا يكون إلا محاولة أنتزع بها سره متظاهرًا بأني أعلم كـل شيء. ولأني رأيـت أن ذكـرى مكـان مقابلتـه لأخيه قد أحدثت فيه انزعاجًا، وجـدت أنـه يجـب مهاجمتـه مـن هـذه الناحيـة، فاستتبعت مسرعًا:

ـ فالقاتل الجبان، نعم الجبان، ولم يجرؤ على تنفيذ جريمته بنفسه، كـان قـد قدر جميع ظروفها أو حسب حسابًا، فيما خـلا طـوارئ بـسيطة، إلى أن أخـاه قـد يحـتفظ بالثلاثـة خطابـات التـي اسـتلمها منـه، الأولان في نيويـورك، والأخـير في ليفربول، وهي التي تحوي التعليمات الخاصـة بمراحـل هـذه الرحلـة الخفيـة. لكنـه لم يكـن يتوقـع أن ابـن فريـسته سيـصبح رجـلًا وأنـه سيـضمر في نفـسه شكوكًا عن الأسباب الحقيقية الدافعة لموت أبيه وأنه سيصل إلى الأدلـة الحاسـمة على تلك الجريمة الخفيـة... ثـم أضـفت بوحـشية: "كفـى خـداعًا يـا سـيد "جـاك ترموند" فأنت قاتل أبي بيد أخيـك "إدوارد"... وبـين يـديَّ الخطابـات التـي كتبتهـا

في يناير عام 1864 تستدعيه بها إلى "أوروبا" أولًا باسم "روشستر" ثم باسم "روشدال" ولن يجديك التظاهر بالحنق أو الدهش، فقد وضح الأمر..." فعراه شحوب مريع. لكنه ظل مع ذلك مكتفًا ذراعيه ولم يضعف نظره الجريء. فحاول المحاولة الأخيرة ليدفع الضربة التي أصبته بها وتشجع فقال لي:

ـ "كم طلب إليك هذا الشقي "إدوارد" ليبيعك هذه الخطابات التي زورها انتقامًا مني لرفضي إمداده بالمال"؟

فأجبته بأشد وحشية: "صه! أتستطيع التغرير بي، بي أنا، أيها الشقي؟ وهل كنت في حاجة لهذه الخطابات لأعلم بكل شيء؟ أما كان كل منا منذ أشهر عالمًا بنجوى الآخر، فكنت أعلم أنك قاتل أبي وكنتَ تعلم أني أدركت ذلك؟ لم يكن ينقصني إلا الدليل الكتابي الذي لا يفند والذي يمكن تقديمه للعدالة... رفضتَ إمداده بالمال؟ لكنك كنت ستمده به، لولا أنك احترستَ، إذ انتظرت حلول يوم سفره... ولم تكن تتوقع أني سأقتفي أثره... أتريد أن أقول متى رأيته آخر مرة؟ قد خرجت بالأمس، حوالي الساعة العاشرة صباحًا فغيرت العربة أول مرة بميدان الكونكورد، وثاني مرة عند القصر الملكي حتى وصلت إلى الجران أوتيل فسألت عما إذا كان السيد ستانبوري في حجرته. وبعد بضع ساعات كنتُ أنا في هذه الحجرة عينها. تسألني: كم طلب إليَّ "إدوراد ترموند" ثمنًا للخطابات؟ إني انتزعتها منه وغدارتي بيدي

بعد معركة كدت أقتل فيها... ها أنت ترى جيدًا أنـك لـن تـستطيع أن تخـدعني، وأنه لا فائدة من الإنكار...".

ظننت أنه سيقع صريعًا. فقد كان وجهـه يـزداد تغـيرًا كلـما تقـدمت في سرد الأدلة الحاسمة أطارده بها في كذبه كما تطارد البهيمة الطريدة مؤيدًا له أن أخـاه قد دافع عن نفسه كما يدافع هو الآخر عن نفسه. فأمسك رأسـه بيديـه ليتغلـب على الأفكار المريعة التي تولته بينما كنت أتمم كلامـي. ثـم عـاد فنظـر إليَّ ولكـن بيأس لا حدَّ له وقال لي نفس الجملة التي كان قد خاطبني بها أخوه ولكن بمزيـد الألم والاضطراب:

ــ كانت هذه الساعة لا بد آتية... ماذا تريد منـي الآن... فأجبتـه: أن تقـتص من نفسك. ولديك أربع وعشرون ساعة... فإذا لم أجد غدًا، في مثل هـذه اللحظـة، أنك انتحرت، سلمت الخطابات لوالدتي...

فارتسمت جميع صنوف المشاعر على هذا الوجه الـشاحب عنـدما رميتـه بهـذا القرار القطعي المفجع بصوت المصر الذي لا يقبل مناقـشة. كنـت واقفًـا مـستندًا إلى المنضدة الكبيرة فتقدم نحوي وعيناه ملؤهما الجنون تبحثان عن عيني. وصاح قائلًا:

ــ كلا، كلا يا أندريه لم يحـن الوقـت! شـفقةً، يـا أندريـه، شـفقةً! رحمة فإني مقضي عليَّ، لن تطول حياتي ستة أشهر... فلست في حاجـة لتنـتقم... وإذا كنـت اقترفـت جرمًـا هـائلًا، فهـل تظـن أني لم أعاقـب عليـه؟ انظـر إليَّ، إني لأمـوت مـن هـذا الـسر المفـزع... قـضي الأمـر.

أيامي معدودة فدع لي هذا القليل الباقي من حياتي! افهم جيدًا، لست لأرهب الموت. ولكن انتحاري، ذهابي تاركًا هذا الألم إلى تلك التي تحبها كما أحبها... جرؤت حقًّا في سبيل اكتسابها، على إتيان جريمة فظيعة... فهل قصَّرت ساعة أو دقيقة في سبيل إسعادها؟ وتريدني على تركها هكذا فأسومها عذاب الشك بأني وفي استطاعتي البقاء بجانبها، فضلت تركها قبل الأوان؟ أي أندريه، كلا! ولتدع لي، لنا، هذه السنة الأخيرة! فإني كما قلت ضائع، وإني بذلك لموقن ولم يخفه عني الأطباء. حدد موعدًا في خلال بضعة أشهر... فإذا لم يختطفني المرض فعد إليَّ... لكني لا بد ميت... وستبكيني دون أن يخالج عبراتها ذلك الشك البشع، الشك بأني استقدمت ساعتي وهي تلك التقية! وستكون أنت إذ ذاك بجانبها لمواساتها وستحبها وحدك... شفقة بها إن لم يكن بي! ها أنت تراني خاضعًا متوسلًا إليك باسمها وبقلبها ينبوع الشفقة... إني واثق بحبك لها وتنبأت بأنك تخفي عنها وساوسك لتحول دونها والألم... وأكرر لك مرة أخرى أن حياتي جحيم وقد أقدمها إليك بلذة استغفارًا عن جريمتي ولكن هي، أي أندريه، والدتك ولم يخالجها إلا خاطرات النبل والطهارة، لا تعذبها، كلا لا تعذبها بهذا...

فأجبته متأثرًا بالرغم مني لانفجاره الألم الذي اضطرني للاعتراف بإخلاصه فيه:

ـ كذب وملق... لن أقبل أن تظل والدتي زوجًا لقاتل بعد الآن. فانتحر وإلا أعلمتها بكل شيء...

فأجابني وقد عاد فجأة إلى كبريائه الفطري بدافع وحشية إجابتي:

ـ أتجرؤ؟ نعم، هي زوجي. نعم، هي تحبني فاذهب إذا كنت تجرؤ فاقتلها بما تحمل إليها! ها أنت قد شحب لونك لهذه الفكرة. أتظنني لا أمقتك كما تمقتني؟ إنما من أجلها هي تركتك تعيش وما احترمتك إلا لأنك عزيز لديها فمن واجبك أن تقابل صنيعي بمثله، أسمعت؟ إنه لفرض عليك...

لقد أصبح هو الآمر بل المهدد، فكم قرأ في نفسي من حنو لوالدتي حتى استطاع أن يقف هذه الوقفة أمامي! فثار في نفسي هائجًا شغف الانتقام إذ لمحت حقيقة موقفي وأن هذا الرجل كان قد كلف بوالدتي بجنون فاشتراها بقتل أخلص أصدقائه وأنه ما يزال يحبها من أعماق قلبه مع انقضاء عدة سنين حتى أنه رفض فقدان يوم واحد من تلك الأيام التي كان يستطيع قضاءها بجانبها وأنه كان واثقًا بعجزي عن إفشاء هذا السر الغامض المريع لتلك المسكينة، فهاجت في نفسي ثائرة الغضب فجأة هيجانًا أفقدني كل سلطان على عواطفي فصحت به:

ـ آه! بما أنك لا تريد أن تقاصّ نفسك فمت إذًا حالًا! ومددت يدي فأمسكت الخنجر الذي كان قد وضعه على المنضدة فنظر إليَّ

دون وجل ولا تقهقر فاتحًا إليّ صدره متحديًا هياجي الـصبياني... كنـت إلي يـساره متحفزًا للوثوب فرأيتـه يبتـسم سـخرية منـي واحتقـارًا فأغمـدت، بأقـصى قـوتي، الخنجر حتى قبضته جهة القلب... ولم أكد أفعل هذا حتى تقهقرت بحالة جنـون لشدة فزعي مما جرؤت على إتيانه. فصاح صيحة واحدة وارتسم على وجهه قلـق مريع ووضع يده اليمنى على جرحه كأنما يريد اقتلاع الخنجر ونظر إليّ وقد أشـله ألم عتيد، فتحركت شفتاه يريد الكلام، لكنه لم يفه بكلمة وقـرأت في عينيـه جهـدًا خارقًا، فانحنى على المنضدة فأمسك قلمًا وجد مـن نفـسه القـوة عـلى غمـسه في المحبرة فسطر سطرين على ورقة صادفها ثم نظر إليّ مرة أخـرى فتحركـت شـفتاه من جديد ثم وقع كتلة هامدة.

إني لمتذكر... رأيت جسمه ممدودًا على البـساط بـين المنـضدة والمـدفأة عـلى قيد خطوتين مني... فسرت نحوه فانحنيت عـلى وجهـه فتخيلـت عينيـه تتبعـاني، حتى بعد موته... نعم، قد مات وقد عزا دهِشًا الطبيب الـذي حقـق الوفـاة قـوة الضربة إلى بلوغ آلام مـرض الكبـد بـه أقـصى شـدة جنونيـة حتـى أن الخنجـر اخترق سمك عضلة القلب دون أن يدخل تمامًا في تجويفـه الأيـسر وأمـا كـون الوفاة لم تحصل فجأة فلأن الدم لم يتدفق دفعة واحدة. أما أنا فلا أستطيع أن أقول كم دقيقة استمرت النوبة المريعة التي عرتني ولا كم مـن الـزمن بقيـت مسحوقًا فزعًا أقول في نفسي: "سيحضرون، قد ضعت" ومـا كـان فزعـي خوفًـا عـلى شخـصي، وهـل مـن تثريـب عـلى ابـن ينـتقم مـن قاتـل أبيـه؟ إنمـا كـان

فزعي بالنسبة لوالدتي، فإني بالرغم من إصراري منذ أسابيع عديدة على جعلها بمأمن من الآلام مهما كلفني ذلك، واهتمامي الدائم بهنائها، ودموعي التي طالما أخفيتها وصمتي إشفاقًا بها، قد ذهب كل ذلك هباءً. فإنه قد وجب إما أن أشرح لها ما اضطرني إلى قتله أو أن أدعها تعتقد أني قاتل سافل. ولأي غرض قتلت؟ حقًّا، قد ضعت... ولكن، أإذا استغثت، إذا صحت قائلًا إن زوج أمي قد انتحر أمامي، فهل أُصدَّق؟ ومع كل ألم يكتب هو نفسه على هذه الورقة التي بقيت على المنضدة ما يثبت أني قاتله؟ فهل أعدمها كما يعدم الشرير كل أثر لوجوده في مكان جريمته قبل أن يبارحه؟ أمسكت تلك الورقة وهي واسعة فوجدتها تغشاها كتابة بحروف أكبر من الحروف المعتادة. وكم كانت تضطرب في يدي بينما كنت أقرأ فيها هذه الكلمات: "عفوًا، ماري، تألمت طويلًا، أردت الخلاص..." ثم إنه استطاع التوقيع عليها! إذن كانت موضع تفكيره حتى آخر لحظة حتى في هذه اللحظة السريعة التي مرت بين طعنتي وموته، فقد لمح هذا الأمر المريع، أني سأعتقل، وأني سأقضي بأسباب جريمتي فتعلم أمي بجريمته فنجاني ولكنه أرغمني على الإخفاء... فهل استغل سبيل النجاة، هذه؟ وهل أقبل من هذا الرجل، وطالما مقتُّهُ، هذه المكرمة المريعة التي بها وقَّى لي بدينه إلى الأبد؟ يجب أن أعترف عدلًا تشريفًا لي بأن أول حركة بدت مني كانت شروعي في تمزيق هذه الورقة فأعدم معه بتمزيقها ذكرى مكرمة يدينني بها مقابل حقدي، مكرمة وإن عُدَّت إخلاصًا

سامياً، إلا أنها مُهينة ممن هو قاتل أبي. لكني رأيت أمامي على المنضدة صورة أمي شابة بلباس السهرة مكللة الشعر بالجواهر سعيدة مغتبطة يُقرأ في محياها الحنو والعذوبة فقلت في نفسي: "أيضحي زوجها بكل شيء في سبيل حمايتها من اليأس الي يعتريها لو عرفت الحقيقة وتصيبها مني، أنا، الطعنة القاتلة فتعرف أن الرجل الذي كانت تحبه قتل زوجها الأول ثم قُتل بيد ابنها؟ لذلك ضننت بهذا المحيا أن تصيبه الآلام واحترامًا لنفسي أعدت الورقة مكانها وابتعدت عن الجثة دون أن ألقي عليها نظرة، فإن فراري بالأمس من الجران أوتيل قد شجعني ويجب أن أحاول الفرار مرة أخرى دون وجل. وعليه، أخذت قبعتي وانصرفت مغلقًا باب الحجرة كأني غير مهتم فاجتزت البهو ونزلت السلم ومررت أمام الخادم والبواب اللذين وقفا تحية واحترامًا ولم يُعنيا كلاهما بوجودي حتى ولم يتفرسا في وجهي. فعدت لمنزلي كما فعلت بالأمس ولكني كنت أشد قلقًا.. فهل نجوت؟ أو ضعت؟ إن البت في أمري مؤجل للحظة اكتشاف الجثة، كأن تعود والدتي بعد خروجي ببضع دقائق أو يقصد المنزل زائر آخر أو يصعد الخادم حاملًا بضع رسائل. وهكذا كنت أحس أني موضع الريبة بالرغم من الإقرار الذي كتبه السيد "ترموند" وكنت أظن قوتي قد خمدت بحيث أني لو اتهمت لما وجدت من القوة العقلية ما أدافع به عن نفسي بعد أن عراني شديد التعب فلم يبقَ لي إلا القدرة على متابعة حركات عقارب ساعة الحائط...

مرَّت ساعة ونصف على خروجي مـن الحجـرة المـشئومة وإذا بجـرس البـاب يدق وخادم يحمل لي تذكرة موجزة من والدتي مكتوبة بالرصاص بيد فزعة تخبرني بأن زوجها قد انتحر بدافع نوبة من آلام مرضه واستحلفتني المسكينة بأن أذهـب إليها في الحال. إنها، على الأقل، لن تعرف الحقيقة!

(19)

هأنذا قد سطرت ذلك الاعتراف الذي كنت أريد تدوينه، فما الفائدة إذن، من أن أضيف إليه الآن أمورًا جديدة؟ كنت أريد التفريج عن قلبي فإذا بي، باستعراضي أمام مخيلتي هذا الحادث المشئوم لم أفعل إلا أن أيقظت ذكريات المشاهد التي كنت فيها عاملًا منذ أول مشهد رأيته فيه أبي صريعًا لا حراك به على سريره وعند قدميه أمي تبكي، حتى آخر مشهد، ذلك الذي فيه تخطيت عتبة حجرة كانت فيها تلك المسكينة جاثية تبكي كذلك، وعلى السرير كانت ما تزال سطيحة جثة الآخر. فوقَفَتْ عند دخولي كما وَقَفَتْ أول مرة صارخة صرخة اليأس عينها: "ولدي أندريه، ولدي"! فاضطررت إلى الإجابة على أسئلتها باختلاق محادثة زعمتُ، كاذبًا، أنها جرت بين وبين زوجها، وبأنه كان كئيبًا، عندما تركته" إلا أن محياه لم يكن ينذر بإصراره على أمر مشئوم. كذلك اضطررت للسعي ليبقى هذا الانتحار المزعوم مجهولًا ثم لمقابلة مأمور الشرطة وطبيب الصحة وتولي أمر تشييع الجنازة وتقبل التعازي.

إني لأراه دائمًا واقفًا أمامي والخنجر مغمد في صدره، يكتب تلك الكلمات التي أنقذتني ناظرًا إليَّ، محركًا شفتيه...

أيها الشبح الممقوت، اذهب عني! اغرب عني، أيها الشبح الممقوت! حقًّا إني أتيت ما أتيت! حقًّا، إني قتلته! وكان هذا عدلًا، وأنت تعلم أنه كان عدلًا. فلِمَ لا تزال منتصبًا أمامي؟ أريد أن أعيش، أن أنسى! ليتني أستطيع أن أنساك ولو يومًا، يومًا واحدا، وأن أتنفس وأن أكون طليقًا وأن أرى السماء، دون أن تعود صورتك المشئومة فتتردد على رأسي المسكين الذي اضطرب من فعل ما تولاه من شكوك أضنته.

إلهي، رحمة بي! لم أختر لنفسي هذا المقدور، فأنت الذي قضيت به عليَّ! فلمَ تعاقبني إذن؟ رباه، رحمة وحنانًا!

يا له من قدر جائر، قاسٍ، أحمق ينوء بوطأته على البشرية مقسمًا، عرضًا، الترح والفرح! أإله يقول لابن قُتل أبوه: "لا تقتل"؟ كلا! وقد أجيبه ولو كانت جهنم مفتحة أمامي: "إني حسنًا فعلت" وقد لا أندم، بل لن أندم، وما ندمي لأني طعنته بل لأني مدين له بتلك المكرمة المهينة التي أصابني بها فأصبحت في هذه الساعة عاجزًا عن اقتلاعها من نفسي. فلو أني أبديتُ تلك الورقة وتقدمت إلى القضاء معترفًا بفعلتي، لما عراني خزي ولرفعت رأسي عاليًا. ما كان أعظمها لذة لو أستطيع أن أصيح على الملأ بأني وهو كاذبان وأني أنا الذي أمسكت الخنجر وطعنته! على أنه لا ضير في قبولي _لا بل في احتمالي_ تلك المكرمة المرذولة. وهل قبلتُها جبنًا؟ وماذا أخافني؟ لم أخشَ

إلا أن تتعذب والدتي، فلماذا أعاني إذن هذا القلق المرهق؟ إنما هي والدتي التي تحيي، من غير قصد، في مخيلتي ذكرى هذا الميت فأراه في حالة يأسه. فهي التي تثأر له إذ تعاقبني ببقائها أمينة على عهده، فإنها وقد احتبست في هذا النزل الذي عاشرته فيه ثلاثة عشر عامًا، لم تمس شيئًا من أثاثه بل تحيط هذا التذكار الممقوت بنفس الإخلاص التقي الذي كانت تحيط به عمتي آثار والدي المسكين. إنما هو هذا الميت الذي ما زلت أرى سلطانه النافذ عليها من شحوبها وتجاعيد جفنيها وما وخط شعرها من المشيب. إنه ما يزال ينازعني عطفها حتى وهو في أعماق لحده. إنه ليستلبها مني رويدًا رويدًا ولا حول لي ضد حبهما. قد أريد مكاشفتها بكل خفية، من الجريمة التي اقترفها حتى ما أنفذت من قصاص، لكنها قد تمقتني، لأني قاتله. إذن ستهرم حزينة وسأراها دائمًا تبكيه! فما الفائدة إذن مما فعلت، بما أني أطعنه في صميم قلبه؟

تمت بعون الله